أهل البيت

الإمام علىّ بن أبى طالب

للأستاذ

توفيق أبو علم

رئيس مجلس إدارة مسجد السيدة نفيسة
والوكيل الأول لوزارة العدل

الطبعة الثانية



دار المعارف

أهل البيت

الإمام علي بن أبي طالب

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ .

[سورة الأحزاب]

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فى الْقُرْبَى﴾ .

[سورة الشورى]

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين والصفوة من صحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد فخير مقدمة لكتابى (على بن أبى طالب) أن أبدأ بهذا الدعاء من أدعية الإمام رضى الله عنه :

[اللهم إنك آنس الآنسين لأوليائك ، وأحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك ، تشاهدهم فى سرائرهم ، وتطّلع عليهم فى ضمائرهم ، وتعلم مبلغ بصائرهم ، فأسرارهم لك مكشوفة ، وقلوبهم إليك ملهوفة ، إن أوحشتهم الغربة آنسهم ذكرك، وإن صُبّت عليهم المصيبة لجأوا إلى الاستجارة بك ، علماً بأن أزمّة الأمور بيدك ، ومصادرها من قضائك .

اللهم إن فههت عن مسألتى ، أو عميت عن طلبتى ، فدلنى على مصالحى ، وخذ بقلبى إلى مراشدى ، فليس ذلك بنكر من هداياتك ولا ببدع من كفاياتك .

اللهم احملنى على عفوك ، ولا تحملنى على عدلك .

اللهم إنى أعوذ بك أن أفتقر فى غناك ، أو أضِلَّ فى هداك ، أو أضام فى سلطانك ، أو أضطهد والأمر لك . اللهم إنا نعوذ بك أن نذهب عن قولك ، أو نفتن عن دينك أو تتابع بنا أهواؤنا دون الهدى الذى جاء من عندك] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الإمام عليّ بن أبي طالب

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال للإمام على :
« حباك إيمان ، وبغضك نفاق ؛ وأول من يدخل
الجنة محبك ، وأول من يدخل النار مبغضك »
[حديث شريف]

هو عليّ بن أبي طالب (واسمه عبد مناف) بن عبد المطلب (واسمه شيبة الحمد) بن هاشم (واسمه عمرو) بن عبد مناف (واسمه المغيرة) ابن قصى بن كلاب بن مرة بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان .

مولده :

ولد رضى الله عنه بمكة داخل البيت الحرام ، فى يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب سنة ثلاثين من عام الفيل ، قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة — ولم يولد قبله ولا بعده مولود فى بيت الله سواه — وفى ذلك يقول السيد الحميرى :

ولدته في حرم الإله وأمنه والبيت حيث فناؤه والمسجد
بيضاء طاهرة الثياب كريمة طابت وطاب وليدها والمولد
في ليلة غابت نحوس نجومها وبدت مع القمر المنير الأسعد
ما لف في خرق القوابل مثله إلا ابن آمنة النبي محمد

وفي ذلك يقول أيضاً عبد الباقي العمري :

أنت العلي الذي فوق العلا رفعا ببطن مكة وسط البيت إذ وضعا

وقد سمته أمه : حيدرة — والحيدرة الأسد — ويدل على ذلك خبره يوم برز إليه مرحب ، وارتجز عليه :

قد علمت خيبر أني مرحب
شاكي السلاح بطل مجرب
أنا الذي سمتني أمي مرحبا

فأجابه عليّ كرم الله وجهه :

أنا الذي سمتني أمي حيدره ضرغام آجام وليث قسوره
عبل الذراعين شديد القصره كليث غابات كريه المنظره
أكيلكم بالسيف كيل السندره أضربكم ضرباً يبين الفقره
وأترك القرن بقاع جزره أضرب بالسيف رقاب الكفره
ضرب غلام ماجد ضروره من يترك الحق يقوم صعره

وما سمته أمه بهذا الاسم إلا لتغرس فيه روح الحماسة والبسالة وتبعث فى نفسه شجاعة الأسد وإقدامه — وقد كان فى ذلك مضرب المثل .

وسماه أبوه عليًّا ، وقال :

سميته بعلى كى يدوم له   عن العلو وفخر العز أدومه

وكناه الرسول صلى الله عليه وسلم بأبى تراب وقد اختلف فى سبب هذه التسمية فذهب بعضهم إلى أن سببها أنه صلى الله عليه وسلم مرّ به نائمًا تسفى عليه الريح التّراب فقال : قم يا أبا تراب ، ألا أخبرك بأشقى الناس أجمعين ؟ عاقر الناقة والذى يضر بك على هذا فيخضب هذه — يعنى على رأسك فيخضب لحيتك بدمك [1] . ويروى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجده فى المسجد نائمًا وقد ترب جنبه فجعل يمسح التّراب عن جنبه ويقول : قم أبا تراب .

ويرى العلامة السيد محمد الصدر أن كلمة « أبو تراب » كناية عن كثرة عبادته وصلواته لأن المسلمين فى السابق كانوا يسجدون على التّراب ، وكان الإمام على معفر الجبين لكثرة ما يسجد ، فقوله : قم أبا تراب على حد قوله قم يا كثير العبادة .

---

(١) ص ٥٥ من كتاب إمتاع الأسماع للمقريزى .

وفى رأى أستاذنا محمد صادق الصدر أن هذه الكنية كانت أحب الكنى إليه . كما أن المعروف أيضًا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كثيراً ما يدعوه بها ؛ ولا بد أن ذلك لميزة تستحق هذه العناية من الرسول صلى الله عليه وسلم .

وذكر ابن أبى الحديد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له :

« اجلس إنما أنت أبو تراب » ، فجاء بإنما — وهى للحصر — ولا معنى لأن يحصر فيه التراب وإنما حصر فيه صفة عالية كانت من مميزات الإمام ، وهى العبادة — فهذه الكنية بهذا المعنى وسام من النبي منحه الإمام .

وللشاعر الشهير عبد الباقى العمرى فى هذه الكنية معنى مبتكر جميل ، فهو يجعل آدمَ ابنًا للتراب لأنه خلق منه — ويجعل عليًّا أباه لأنه أبو تراب فيقول :

أنت ثانى الآباء فى منتهى الدو ر وآباؤه تعد بنوه
خلق الله آدمًا من تراب فهو ابن له وأنت أبوه

وقد أحس خصوم الإمام ، وبخاصة معاوية ، برفعة هذه الكنية ميزة صاحبها . فأخذوا يموّهون على الناس بأن سبوه بها على المنابر مظهرين

أنها منقصة له [١] – ولكن المسلمين المؤمنين يعرفون منزلة الإمام ويقدرونه حق قدره .

أمه :

أمه فاطمة بنت أسد : وفى الأغانى : هى أول هاشمية تزوجها هاشمى ، وأول هاشمية ولدت خليفة ، وهى أم سائر ولد أبى طالب ، وكان علىّ أصغر بنيها ، وجعفر أسن منه بعشر سنين ، وعقيل أسن منه بعشر سنين ، وطالب أسن منه بعشر سنين ، وخرج يوم بدر مع المشركين كارهًا ، ولم يعرف له خبر ، ولا عقب له .

وهو وإخوته أول هاشميين ولدوا من هاشميين :

ويقول السيد محسن الأمين :

له فاطم أم وكانت لأحمد ... ببر وإشفاق هى الأم والظئر
فيغدو رهينًا عندها متكحلا ... وأولادها شعث شعورهم غبر
به آمنت فى مكة ثم هاجرت ... إلى يثرب ماشاب إيمانها نكر
وكفنها خير الورى فى قميصه ... وفى قبرها قد نام مذ حفر القبر
ولقنها القول السديد الذى به
لدى الحشر تنجو حين يجمعها الحشر

---

(١) ابن أبى الحديد (ص ٤ – الجزء الأول)

لخير أب ينمى وأكرم حرّة | بذاك سمت عدنان وافتخرت فهر
هما الهاشميان اللذان تفرعا | على خير فرع أصله هاشم عمرو
له نسب من شيبة الحمد باهر | جلى فمن ساماه أقعده البهر
نماه إلى العليا لؤى بن غالب | وعبدمناف قدمضى قبله النضر

وكانت ذات رأى أصيل ، وغرض نبيل ؛ وكانت فى مقدمة النساء اللاتى بايعن المصطفى صلى الله عليه وسلم، وقد سارت سيرة خديجة رضى الله عنها فى استرواح نفس النبى صلى الله عليه وسلم ومواساته وتأييد أمره ، وتقيّلت خلق زوجها أبى طالب فى الذود عنه ومؤازرته ، وإعلاء كلمته ، ونشر رسالته ، وكانت جريئة لا تخاف فى الحق لومة لائم ، ولم تهب أحداً من أساطين المعارضين ممن غالوا فى إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل كثيراً ما وقفت فى وجوههم ، وردت عنه عداوتهم ، وقد تابعته فى هجرته إلى المدينة ، وكان بيتها بها مقيلا طيبًا ومثوى مباركًا ، كما كان فى مكة لياذاً أمينًا ، وموئلا كريمًا ، فهى منقطعة النظير فيما أظهرته فى تأييد المصطفى صلى الله عليه وسلم ونصرته، ولقد كان عليه السلام يزورها فى بيتها فيَجدها فيّاحة نفاحة متهللة الوجه .

وكانت تعطف على زوج ولدها « السيدة فاطمة الزهراء » عطف الأمهات على أفلاذ أكبادهن ، وكانت تعاونها فى أعمالها ، وتساعدها فى أمورها ، ولقد قال على رضى الله عنه لأمه فاطمة بنت أسد : « اكفى فاطمة

بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سقاية الماء ، والذهاب فى الحاجة ، وهى تكفيك من الداخل الطحن والعجن » ، فكانت بارة بها ، حانية عليها ، مدللة لأولادها ، عاطفة عليهم .

ولما توفيت كفنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قميصه ، وأمر من يحفر قبرها ، فلما بلغوا لحدها حفره بيده ، واضطجع فيه ، وقال : « اللهم اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ، ولقنها حجتها ، ووسع عليها مدخلها » . فقيل يارسول الله ، رأيناك صنعت شيئًا لم تكن تصنعه بأحد مثلها ، فقال : « ألبستها قميصى لتلبس من ثياب الجنة » ، أو قال : هو أمان لها يوم القيامة ، واضطجعت فى قبرها ليوسعه الله عليها ، وتأمن ضغطة القبر ، إنها كانت من أحسن خلق الله صنعًا إلىّ بعد أبى طالب . وروى الحاكم فى المستدرك بسنده عن سعيد بن المسيب عن علىّ ابن الحسين عن أبيه عن جده أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب ؛ قال لما ماتت فاطمة بنت أسد كفنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قميصه ، وصلى عليها ، وكبر عليها سبعين تكبيرة ، ونزل فى قبرها فجعل يومئ فى نواحى القبر كأنه يوسعه ويسوّى عليها ، وخرج من قبرها وعيناه تذرفان ، وحثا فى قبرها ، فقال له عمر بن الخطاب ، يا رسول الله ، رأيتك فعلت على هذه المرأة شيئًا لم تفعله على أحد فقال له : « إن هذه المرأة كانت أمى بعد أمى التى ولدتنى ؛ إن أبا طالب كان يصنع الصنيع ،

وتكون له المأدبة ، وكان يجمعنا على طعامه ، فكانت هذه المرأة تفضل منه كله نصيبنا فأعود فيه » .

زوجاته :

١ ــ فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتزوج عليها حتى توفيت .

٢ ــ أمامة [1] بنت أبي العاص بن الربيع بن عبد العزى ، وأمها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمها السيدة خديجة بنت خويلد ، وقد أوصت السيدة الزهراء الإمام علياً أن يتزوجها بعد وفاتها .

٣ ــ خولة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة .

٤ ــ ليلى بنت مسعود بن خالد .

٥ ــ أم البنين بنت حزام بن خالد .

٦ ــ أم ولد .

---

(١) أوصى ابن الربيع قبل موته بابنته أمامة إلى ابن خاله الزبير بن العوام بن خويلد . وقد زوجها الزبير من الإمام علي ، وظلت أمامة معه حتى قتل ، فكان مشهدها وهي تطيف به وهو مسجى على فراشه يمزق القلوب ويفتت الأكباد حتى لقد قالت أم الهيثم :

أشاب ذؤابتي وأذل ركبي ... أمامة حين فارقت القرينا

تطيف به لحاجتها إليه ... فلما استيأست رفعت رهينا

٧ ـ أسماء بنت عميس .

٨ ـ الصهباء وهى أم حبيب بنت ربيعة .

٩ ـ أم سعيد بنت عروة بن مسعود .

١٠ ـ محياة بنت امرئ القيس .

أولاده[١] :

فى مروج الذهب : يقول المسعودى إن عدد أولاد الإمام خمسة وعشرون . ويقول المفيد فى الإرشاد إنهم سبعة وعشرون ، وهم الحسن والحسين ، وزينب الكبرى ، وأم كلثوم الكبرى ، (وأمهم فاطمة بنت سيد المرسلين الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم) ، ومحمد الأكبر (ابن الحنفية ، وأمه خولة) ، وعبد الله وأبو بكر (وأمهما ليلى) ، والعباس الأكبر ، وعثمان وجعفر الأكبر وعبد الله (وأمهم أم البنين) ، ومحمد الأصغر (وأمه أم ولد) ، ويحيى وعون (وأمهما أسماء بنت عميس) ، وعمر الأكبر ورقية (وأمهما الصهباء) ، ومحمد الأوسط (وأمه أمامة) ، وأم الحسن ورملة الكبرى (وأمهما أم سعيد) ، وأم هانئ وميمونة وزينب الصغرى ورملة الصغرى وأم كلثوم الصغرى وفاطمة ،

---

(١) سمى الإمام من أولاده بأسماء الخلفاء الثلاثة أبو بكر وعمر وعثمان ، كما سنرى فى الفصل الخاص بموقف الإمام على بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأمامة ، وخديجة ، وأم الكرام ، وأم سلمة ، وأم جعفر ، وجمانة ، ونفيسة ، وابنة لم تسم (وأمهم محياة) .

ويقول ابن سعد فى طبقاته : فجميع ولد علىّ بن أبى طالب لصلبه أربعة عشر ذكراً وتسع عشرة امرأة ، وكان الحسن والحسين يعدان أبناء للرسول عليه الصلاة والسلام ، وفى الرياض النضرة للمحب الطبرى أنه كان وافر الحظ من الذرية فبقى منهم بعده كثيرون .

وقد كثّر الله تعالى نسل علىّ وفاطمة عليهما السلام بدعوة النبى صلى الله عليه وسلم لهما ليلة زفافهما بقوله : اللهم أخرج منهما الكثير الطيب .

وفى كتاب « الرياض النضرة » أيضاً ، يقول المحب الطبرى :

روى أبو سعيد فى شرف النبوة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلىّ

« أوتيت ثلاثاً لم يؤتهن أحد ولا أنا أوتيت صهراً مثلى ولم أوت أنا مثلى ، وأوتيت زوجة صديقة مثل ابنتى ، ولم أوت مثلها زوجة . وأوتيت الحسن والحسين من صلبك ولم أوت من صلبى مثلهما . ولكنكم منى وأنا منكم » ... وفى رواية : « أوتيت أربعة . . . والرابعة لولاك ما عرف المؤمنون » . . . إشارة إلى قول الرسول : « من كنت مولاه فعلى مولاه » .

وفى كتاب : « مناقب آل طالب » روى الحديث بطريق آخر « أن النبى قال : يا علىّ لك أشياء ليست لى منها : لك زوجة مثل فاطمة

وليس لى مثلها ، ولك ولدان من صلبك وليس لى مثلهما من صلبى ، ولك مثل خديجة حماة وليس لى مثلها حماة ، ولك صهر مثلى وليس لى صهر مثلى ، ولك أخ مثل جعفر وليس لى مثله فى النسب ، ولك أم مثل فاطمة بنت أسد الهاشمية ، المهاجرة وليس لى مثلها » .

وفى تفسير آية المباهلة ، يقول المفسرون إن المراد بأنفسنا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلىّ رضى الله عنه ، وبنسائنا فاطمة ، وبأبنائنا الحسن والحسين : (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) ، ويقول الرازى فى تفسيره : هذه الآية دالة على أن الحسن والحسين كانا ابنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعد النبى أن يدعو أبناءه فدعا الحسن والحسين . . .

وقد تواتر الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ولداى هذان إمامان قاما أو قعدا » ، وقال : « هما ريحانتاى من الدنيا » ؛ وعن الإمام أحمد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «كل ولد أب ، فإن عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فإنى أنا أبوهما » ، ويقول الإمام علىّ رضى الله عنه فى محمد بن الحنفية : إنه ابنى ، أما الحسن والحسين فإنهما ابنا الرسول .

ومما لاشك فيه أن عليًّا وفاطمة والحسن والحسين هم آل محمد وآل الرسول وآل البيت . ويتحدث الإمام علىّ فى هذا وعلى نعمة الله عليه فيقول :

محمدٌ النبي أخي وصهري ... وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفرٌ الذى يمسي ويضحي ... يطير مع الملائكة ابن أمي
وبنت محمد سكني وعرسي ... مشوب لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ولداي منها ... فأيكم له سهم كسهمي
سبقتكم إلى الإسلام طرًّا ... صغيراً ما بلغت أوان حلمي
وصليت الصلاة وكنت فرداً ... فمن ذا يدعي يومًا كيومي

ويقول الإمام الحسين رضى الله عنه :

أليس رسول الله جدى ووالدى ... أنا البدر إن خلى النجوم خفاء ؟ !

ويكنى الإمام على أبا الحسن وأبا الحسين . وكان الحسن فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوه أبا الحسين والحسين يدعوه أبا الحسن ، ويدعوان رسول الله صلى الله عليه وسلم أباهما . فلما توفى النبى صلى الله عليه وسلم دعوا عليًّا أباهما . وكان يكنى أيضًا بأبى تراب . كنّاه به رسول الله صلى الله عليه وسلم . فى الاستيعاب بسنده قيل لسهل بن سعد إن أمير المدينة يريد أن يبعث إليك لتسبّ عليًّا عند المنبر ، قال : كيف أقول ؟ قال : تقول : أبا تراب . فقال : والله ماسماه بذلك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : وكيف كان ذلك يا أبا العباس ؟ قال دخل علىّ على فاطمة . ثم خرج من عندها فاضطجع فى صحن المسجد فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة . فقال أين ابن عمك . قالت هو ذاك مضطجع فى المسجد . فوجده قد سقط رداؤه عن

ظهره ، وخلص التراب إلى ظهره فجعل يمسح التراب عن ظهره ، ويقول اجلس أبا تراب ، فو الله ماسماه به إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووالله ما كان اسم أحب إليه منه . كما سبق وبينت ذلك تفصيلا .

واقبه أمير المؤمنين والمرتضى وحيدر والوصى والأصلع والأنزع البطين . ويقول ابن عباس : وكان على يتبع فى جميع أمره مرضاة الله ورسوله . فلذلك سمى المرتضى ، أما لقبه الأنزع البطين فلأنه عليه السلام كان ذا صلعة ليس فى رأسه شعر إلا من خلفه — وكان عظيم البطن — وهاتان الصفتان قد كونتا له هذا اللقب . فإذا قيل الأنزع أو الأنزع البطين تبادر إلى الذهن أنه الإمام . وقد وصف محمد بن الحنفية الإمام فقال : «كان ربع القامة ، أزج الحاجبين ، أدعج العينين ، أنجل[١] . كأن وجهه القمر ليلة البدر حسناً وهو إلى السمرة ، أصلع له حفاف من خلفه كأنه إكليل وكأن عنقه إبريق فضة ، وهو أرقب ، ضخم البطن ، أقرى الظهر ، عريض الصدر ، محض المتن ، شثن الكفين ، ضخم الكسور ، لا يبين عضده من ساعده قد أدمجت إدماجاً — عبل الذراعين ، عريض المنكبين ، عظيم المشاشين كمشاش[٢] السبع الضارى ، له لحية قد زانت صدره ، غليظ العضلات — خمش الساقين » .

وقد شاء عمرو بن العاص أن يتلاعب فى أوصافه عليه السلام فلما

---

(١) النجل : سعة العين مع حسنها . يقال رجل أنجل وامرأة نجلاء .

(٢) المشاش : رأس العظم .

كتبت أوصافه عن ثبيت الخادم أخذها عمرو فزم بأنفه وقطعها وكتب: « إن أبا تراب كان شديد الأدمة عظيم البطن خمش الساقين ونحو ذلك » . وما كان الإمام أسمر ولا شديد السمرة وإنما كان يميل إليها كما ترى من صريح عبارة محمد بن الحنفية .

ومما لا شك فيه أن الإمام كان على جانب عظيم من الجمال ، وحسبه أن يشبه بالبدر الساطع . وعن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أراد أن ينظر إلى إبراهيم فى حلمه ، وإلى نوح فى حكمه ، وإلى يوسف فى جماله ، فلينظر إلى على بن أبي طالب » [١].

وكان أبجر ، أى كبير البطن ، يتكفأ فى مشيته على نحو يقارب مشية النبي صلى الله عليه وسلم . وإذا مشى إلى الحرب هرول ثبت الجنان قويًّا ، ما صارع أحداً إلا صرعه .

وكان يتمتع بقوة جسدية بالغة فى المكانة والصلابة والصبر على العوارض والآفات ، ومن قوة تركيبه رضى الله عنه أنه كان لا يبالى الحر والبرد ولا يحفل الطوارئ الجوية فى صيف ولا فى شتاء، فكان يلبس ثياب الصيف فى الشتاء، وثياب الشتاء فى الصيف ، وسئل فى ذلك فقال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلىّ وأنا أرمد العين يوم خيبر ، فقلت : يارسول الله إنى أرمد العين ، فقال : اللهم أذهب عنه الحر والبرد . فما وجدت حرًّا ولا برداً منذ يومئذ . . . » .

---

(١) ذخائر العقبى (ص ٩٤) — وحياة أمير المؤمنين فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم.

وكان بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، وكان غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب ، يعظم أهل الدين ، ويعرف المساكين ، وكان يتضرع إلى الله سبحانه وتعالى ، ويقول : « يادنيا غُرِّى غيرى ألى تعرضت أم إلىّ تشوقت ، هيهات هيهات ؛ قد بتتك ثلاثًا لا رجعة فيها . فعمرك قصير . وخطرك كبير ، وعيشك حقير ، آه آه ؛ من قلة الزاد . وبعد السفر ، ووحشة الطريق . . . » .

ويقول ابن عبد البر فى الاستيعاب : كان علىّ إذا ورد عليه مال لم يبق منه شيئًا إلا قسمه ، ولا يترك فى بيت المال منه إلا ما يعجز عن قسمته فى يومه ذلك ، ولم يكن يستأثر من الفىء بشىء ، ولا يخص به حميمًا ولا قريبًا ، ولا يخص بالولايات إلا أهل الديانات والأمانات ، وإذا بلغه من أحدهم خيانة كتب إليه (قد جاءتكم موعظة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين . وما أنا عليكم بحفيظ) .

ويقول ابن عبد البر : أجمعوا على أنه صلى إلى القبلتين . وهاجر .

وشهد بدراً والحديبية وسائر المشاهد ، وأنه أبلى ببدر وبأحد وبالخندق وبخيبر بلاء عظيماً .

وفى الإصابة : رُبِّى فى حجر النبي صلى الله عليه وسلم ولم يفارقه : وشهد معه المشاهد إلا غزوة تبوك .

على بن أبى طالب ولد مسلماً :

لنستمع أولا إلى ما يقوله ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة فى مناقب الإمام على ، كرم الله وجهه :

اجتمع للإمام على بن أبى طالب من صفات الكمال ومحمود الشمائل والخلال وسناء الحسب وباذخ الشرف مع الفطرة النقية والنفس المرضية ، ما لم يتهيأ لغيره من أفذاذ الرجال .

تحدر من أكرم المناسب ، وانتمى إلى أطيب الأعراق ، فأبوه أبو طالب ، عظيم المشيخة من قريش ، وجده عبد المطلب أمير مكة وسيد البطحاء ، ثم هو قبل ذلك من هامات بنى هاشم وأعيانهم .

وبنو هاشم كانوا كما وصفهم الجاحظ « ملح الأرض » وزينة الدنيا ، وحلى العالم . والسنام الأضخم ، والكاهل الأعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب الوثيق ومعدن الفهم وينبوع العلم .

واختص بقرابته القريبة من الرسول عليه الصلاة والسلام . فكان ابن عمه وزوج ابنته وأحب عترته إليه . كما كان كاتب وحيه وأقرب الناس إلى فصاحته و بلاغته وأحفظهم لقوله وجوامع كلمه . أسلم على يديه صبيًّا قبل أن يمس قلبه عقيدة سابقة أو يخالط عقله شوب من شرك موروث . ولازمه فتيًّا يافعاً فى غدوه ورواحه وسلمه وحربه ، حتى تخلق بأخلاقه واتسم بصفاته . وفقه عنه الدين وتفقه ما نزل به الروح الأمين . فكان من أفقه أصحابه وأقضاهم وأحفظهم وأدعاهم وأدقهم فى الفتيا وأقربهم إلى الصواب . حتى قال فيه عمر : لا بقيت معضلة ليس لها أبو الحسن .

وكانت حياته كلها مفعمة بالأحداث مليئة بجلائل الأمور فعلى عهد الرسول عليه السلام . ناضل المشركين واليهود . فكان فارس الحلبة ومسعر الميدان صليب النبع جميع الفؤاد .

وفى أيام خلافته كانت له أحداث أخرى لقى فيها ما لقى من تفرق الكلمة واختلاف الجماعة وانفصام العروة . مما طوى أضلاعه على الهم والأسى ، ولاع قلبه بالحزن والشجن . وفى كل ما لقى من أحداث وأمور . وما صادف من محن وخطوب بلا الناس وخبرهم وتفطن لمطاوى نفوسهم واستشف ما وراء مظاهرهم ، فكان العالم المجرب الحكيم والناقد الصيرفى الخبير . وكان لطيف الحس نقى الجوهر . وضاء النفس . سليم الذوق .

مستقيم الرأى ، حسن الطريقة ، سريع البديهة حاضر الخاطر ، عارفاً بمهمات الأمور إصداراً وإيراداً .

وما يعنينى فى شرح ابن أبى الحديد قوله: «أسلم على يديه — يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم — قبل أن يمس قلبه عقيدة سابقة أو يخالط عقله شوب من شرك موروث . . .» ، فقد ولد الإمام داخل الكعبة ، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها ، وتربى عند النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه لما أصاب أهل مكة جدب وقحط قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه العباس رضى الله عنه — وكان من أيسر بنى هاشم — : «يا عم إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى ، فانطلق بنا إلى بيته لنخفف من عياله عنه ، فتأخذ أنت رجلا وأنا آخذ رجلا فنكفلهما عنه» ، فقال العباس : أقبل ، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب وحمزة عنده وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم ، فقال : دعوا لى عقيلا وخذوا من شئتم ، وكان عقيل أحب هؤلاء الإخوة إلى أبيه ، فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفراً وأخذ النبي عليه الصلاة والسلام عليًّا ، وكان أصغرهم .

وفى ذلك يقول السيد محسن الأمين :

أتت سنة شهباء أصبح عندها ... أبو طالب قد حل ساحته الفقر
فقالوا دعونا نكفه بعض ولده ... مساعدة فالحر يسنده الحر
خذوا من أردتم إن تركتم بجانبى ... عقيلا فلى فى حبه منكم عذر

لأحمد أعطينا عليّاً وجعفراً   لحمزة والعباس طالب فليدروا

وقد كان على يلازم رسول الله صلى الله عليه وسلم . بل قيل إنه عندما أخذه كان يلي أكثر تربيته ويطهره فى وقت غسله ، ويوجره اللبن عند شربه ، ويحرك مهده عند نومه ، ويناغيه فى يقظته ، ويحمله على صدره ، وكان يحمله دائماً ويطوف به جبال مكة وشعابها وأوديتها كأنه يفعل ذلك ترويحاً له ، وفى ذلك يقول السيد محسن الأمين من قصيدة طويلة :

وربيت فى حجر النبي محمد   فطوبى لمن مِنْ أحمد ضمه حجر
وغذاك بالعلم الإلهى ناشئاً   فلا علم إلا منك قد حاطه خبر
بآدابه أدّبت طفلا ويافعاً   وأكسبك الأخلاق أخلاقه الغر

ويقول ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة — قد ورد فى الكتب الصحاح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجاور فى حراء كل سنة شهراً حتى جاءت السنة التى أكرمه الله فيها بالرسالة فجاور فى حراء شهر رمضان ومعه أهله خديجة وعلى بن أبى طالب وخادم لهم .

ومما لا شك فيه أن خلق على نما أولا على شمائل بيت أبيه أبى طالب ذلك الذى أصغت جدرانه لأول مرة إلى عبادة محمد ، وخرجت الدعوة الإسلامية إلى الوجود ، فإن عليّاً ما كاد يبلغ من عمره حتى ضمه الرسول صلى الله عليه وسلم إليه وآخاه ، وبذلك تربى على فى البيت الذى خرجت منه الدعوة الإسلامية ، وقد أشار على إلى تعهد محمد

إياه بخطبته التى قال فيها : «وقد تعلمون موضعى من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرابة القريبة ، وضعنى فى حجره وأنا وليد يضمنى إلى صدره ويكنفنى فراشه ويمسنى جسده ويشمنى عرقه ، وما وجد لى كذبة فى قول ولا خطلة فى فعل وكنت أتبعه إتباع الفصيل إثر أمه يرفع لى فى كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرنى بالاقتداء به » .

وهذا هو أول الزمن الذى يتأهل الغلام فيه لتلقى بذور الأخلاق الفاضلة . وطالما جاور على محمداً فى خلواته وسار على نهجه فى الانقطاع عن القرشيين المترددين فى ليل من جهالتهم وجمودهم على ما هم عليه من عادات وأخلاق ، وطالما عاش فى ذلك الجو الزكى إلى جوار ابن عمه وهو أثير لديه حبيب إلى قلبه . وإن مثل هذا الجوار وهذا الإخاء لم يظفر به أحد غير على من أصحاب الرسول وتلاميذه ، لقد فتح على بن أبى طالب عينيه على الطريق التى رسمها ابن عمه ، وعرف العبادة أول ما عرفها من صلاته ، ونعم بعطفه وحنانه وإخائه فإذا هو من محمد ما كان محمد من أبى طالب .

وخفق قلب على أول ما خفق بحب ابن عمه ونطق لسانه أول ما نطق بما لقنه إياه من رائع القول ، واكتملت رجولته أول ما اكتملت لمؤازرة النبى المضطهد ، وإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يحبه أنصاره ويحترمه أعداؤه فهل يكون ربيبه وتلميذه وابن عمه على إلا شيئاً من كيانه ، شيئاً كثيراً من كيان عظيم .

وإذا أسلم بعض الوجوه من قريش منذ أول الدعوة احتكاماً للعقل وتخلصاً من الوثنية ، وإذا أسلم كثير من العبيد والأرقاء والمضطهدين طلباً للعدالة التي تتدفق بها رسالة محمد واستنكاراً للجور الذى يلهب ظهورهم بسياطه ، وإذا أسلم قوم بعد انتصار النبي امتثالا للواقع وتزلفاً للمنتصر كما هى الحال بالنسبة لبعض الأمويين — إذا أسلم هؤلاء جميعاً فى ظروف تتفاوت من حيث قيمتها ومعانيها الإنسانية وتتحد فى خضوعها للمنطق أو للواقع الراهن فإن على بن أبى طالب قد ولد مسلماً ، لأنه من معدن الرسول مولداً ونشأة ومن ذاته خلقاً وفطرة ، ثم إن الظرف الذى أعلن فيه عما يكمن فى كيانه من روح الإسلام ومن حقيقته لم يكن شيئاً من ظروف الآخرين ولم يرتبط بموجبات العمر ، لأن إسلام على كان أعمق من ضرورة الارتباط بالظروف، إذ كان جارياً من روحه كما تجرى الأشياء من معادنها والمياه من ينابيعها ، فإن الصبى ما كاد يستطيع التعبير عن خلجات نفسه حتى أدى فرض الصلاة وشهد بالله ورسوله بدون أن يستأذن أو يستشير .

لقد كان أول سجود على لإله محمد . ويقول العلامة تقى الدين أحمد بن على المقريزى « وأما على بن أبى طالب بن عبد المطلب ابن هاشم القرشى فلم يشرك بالله قط .

لقد كان أول من أسلم من الناس بعد خديجة رضى الله عنها .

إن الله تعالى أراد به الخير فجعله فى كفالة ابن عمه سيد المرسلين

صلى الله عليه وسلم ، فعندما أتى رسول الله الوحى وأخبر خديجة رضى الله عنها وصدقت ، كانت هى وعلى بن أبى طالب وزيد بن حارثة حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون معه، وكان صلى الله عليه وسلم يخرج إلى الكعبة أول النهار فيصلى صلاة الضحى وكانت صلاة لا تنكرها قريش ، وكان إذا صلى فى سائر اليوم بعد ذلك قعد على أو زيد رضى الله عنهما يرصدانه» .

ويقول المؤرخ الشهير اليعقوبى فى تأريخه : «وكان أول من أسلم خديجة بنت خويلد من النساء وعلى بن أبى طالب من الرجال — ثم زيد ابن حارثة ثم أبو ذر» ، وذكر أنه روى عن عمرو بن عبسة السلمى أنه قال : «أتيت رسول الله أول ما بعث وبلغنى أمره فقلت : صف لى أمرك ، فوصف لى أمره وما بعثه الله به ، فقلت : هل يتبعك على هذا أحد ، قال : نعم امرأة وصبى وعبد — يريد خديجة بنت خويلد، وعلى بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة » .

كذلك يقول المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل «وكذلك كان على أول رجل أسلم ، ومن بعده أسلم زيد بن حارثة مولى النبى ، وبذلك بقى الإسلام محصوراً فى بيت محمد،فيه وفى زوجه وابن عمه ومولاه . وظل يفكر كيف يدعو قريشاً إليه وهو يعلم ما هى عليه من شدة البأس وبالغ التعلق بعبادة آبائها وأصنامهم » . وروى عن سلمان أنه قال «أول هذه الأمة وروداً على نبيها الحوض أولها إسلاماً :

على بن أبى طالب» — وروى عن ابن عباس أنه قال : لعلى أربع خصال ليست لأحد غيره وذكر منها أنه أول عربى وعجمى صلى مع النبي وقد روى الطبرى فى تاريخه : «أن أول ذكر آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى معه وصدق بما جاء من عند الله على بن أبى طالب عليه السلام» .

ويقول خزيمة بن ثابت الأنصارى — وهو ذو الشهادتين — للإمام حين بويع بالخلافة : «يا أمير المؤمنين ما أصبنا لأمرنا هذا غيرك ولا كان المنقلب إلا إليك — ولئن صدقنا أنفسنا فيك لأنت أقدم الناس إيماناً وأعلم الناس بالله — وأولى المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم — لك ما لهم وليس لهم ما لك» .[1] ؛ ويقول الفضل بن عباس :

وكان ولىّ الأمر بعد محمد ... على وفى كل المواطن صاحبه
وصىّ رسول الله حقًّا وصهره ... وأول من صلى وما ذم جنابه

وعن ابن عباس أنه قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أول من صلى معى على بن أبى طالب» ؛ وقد صلى على مع النبى صلى الله عليه وسلم قبل الناس بسبع سنين كما يفهم ذلك من حديث أبى أيوب الأنصارى ، فإنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الملائكة صلت علىّ وعلى علىّ سبع سنين قبل أن يسلم بشر» ؛ ويكرر الحديث بصيغة أخرى فيقول : «قال رسول الله صلى الله عليه

(١) تاريخ اليعقوبى .

خصائص الإمام علىّ

١ – اختصاصه بلقب الإمام :

حدد علماء الكلام معنى الإمامة فقالوا « الإمامة رئاسة عامة فى أمور الدين والدنيا لشخص إنسانى . . . » ، فالإمام حسب هذا التحديد هو الزعيم العام والرئيس المتبع ، وله السلطة الشاملة على الناس فى جميع شئونهم الدينية والدنيوية . والإمامة ضرورة من ضروريات الحياة لا يمكن الاستغناء عنها بحال من الأحوال ، فيها يقام ما اعوج من نظام الدنيا والدين ، وبها تتحقق العدالة الكبرى التى ينشدها الله فى أرضه ، ومن أهم الأمور الداعية إلى وجود الإمام إيصال الناس إلى عبادة الله ، ونشر أحكامه وتعاليمه ، وتغذية المجتمع بروح الإيمان والتقوى ، ليبتعد الإنسان بذلك عن الشر ، ويتجه إلى الخير ، ويجب على الأمة كافة الانقياد إليه والامتثال لأوامره ليقيم أودها ويلم شعثها ويهديها إلى سواء السبيل .

وللإمام واجبات كثيرة منها : حفظ الدين ، وحراسة الإسلام وصيانته من المستهترين بالقيم والأخلاق ، وتنفيذ الأحكام ، وحماية البلاد الإسلامية ، وإنصاف المظلوم ، والجهاد . . . إلخ .

وهناك شروط لا بد أن تتوافر فى الإمام كالعلم والعدالة والشجاعة والنجدة ، وأخيراً العصمة . وقد عرفت : بأنها لطف من الله يفيضها على أكمل عباده ، وبها يمتنع عن ارتكاب الجرائم والموبقات عمداً وسهواً ، وهذه الأوصاف لم تتوافر إلا فى أئمة أهل البيت حصنة الإسلام وحماته والأدلاء على مرضاة الله وطاعته ، وقد وصفهم الشاعر بقوله :

القريبين من ندى والبعيدين من الجور فى عرى الأحكام
والمصيبين ما أخطأ النـــا س ومرسى قواعد الإسلام
والحماة الكفاة فى الحرب إن لف ضرام وقـــوده بضرام
والغيوث الذين إن أمحل النا س فمأوى حواضن الأيتام
راجحى الوزن كاملى العدل فى السـ ـيرة طُيِّبوا بالأمور الجسام
ساسة لا كمن يرى رعية النا س ســـواء ورعية الأغنام

وقد قال الإمام على: « من نصّب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم » .

وبذلك اختص على بن أبى طالب بين جميع الخلفاء الراشدين بلقب الإمام ، وهذا اللقب إذا أطلق لا ينصرف إلى أحد غيره من بين جميع حكام المسلمين .

وما سبب ذلك ؟ ألم يكن الصديق إماماً كعلى ؟ أوَلم يكن عمر

إماماً كعلى ؟ أوَ لم يكن عثمان إماماً كعلى ؟ أوَ لم يكونوا خلفاء راشدين إذا قصدت الخلافة الراشدة بعد النبوة ؟ بلى ؛ كانوا أئمة مثله وسبقوه فى الإمامة .

ويجيب العلامة الأستاذ العقاد عن هذا السؤال فيقول : « ولكن الإمامة يومئذ كانت وحدها فى ميدان الحكم بغير منازع ولا شريك ، ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم الإمامة ليناضل به علم الدولة الدنيوية ، ولا أن يتحيز بعسكر يقابله عسكر ، وصفة تناوئها صفة ، ولا أن يصبح رمزاً للخلافة يقترن بها ولا يقترن بشىء غيرها ، وكلهم إمام حيث لا اشتباه ولا التباس ، وذلك هو على بن أبى طالب كما لقبه الناس ، وجرى لقبه على الألسنة ، فعرفه به الطفل وهو يسمع أماديحه المنغومة فى الطرقات بغير حاجة إلى تسمية أو تعريف .

وخاصة أخرى من خواص الإمامة ينفرد بها على ولا يجاريه فيها إمام غيره ، هى اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الإسلامية منذ وجدت فى صدر الإسلام ، فهو منشئ هذه الفرق أو قطبها الذى تدور عليه ، وندرت فرقة فى الإسلام لم يكن على معلماً لها منذ نشأتها أو لم يكن موضوعاً لها ومحوراً لمباحثها» .

وزيادة على ما تقدم فالشروط التى بينتها آنفاً والتى يجب أن تتوافر فى الإمام كلها متوافرة فى الإمام على بن أبى طالب وفى مقدمتها تلك الخاصية التى ينفرد بها بحق وهى العلم ، وسأتكلم عن هذه الميزة فيما

بعد ، وأقول هنا : إن عبد الله بن عباس كان تلميذاً للإمام ، وعرف ابن عباس بالتبحر فى العلم حتى وصف بأنه «حبر الأمة وترجمان القرآن» ، ولما سئل ابن عباس : «أين علمك من علم ابن عمك ؟» قال : كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط . وقال له عمر رضى الله عنه : «لا أبقانى الله بأرض لست بها يا أبا الحسن» كما قال : لولا على لهلك عمر .

وقد قال أبو عبيدة رضى الله عنه : ارتجز الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى تسع كلمات ، قطع الأطماع عن الالتحاق بواحدة منهن . ثلاث فى المناجاة ، وثلاث فى العلم ، وثلاث فى الأدب ؛ فأما التى فى المناجاة فهى قوله : كفانى عزًّا أن تكون لى ربًّا ، وكفى بى فخراً أن أكون لك عبداً ، أنت لى كما أحب فوفقنى لما تحب . وأما التى فى العلم فهى قوله : المرء مخبوء تحت لسانه فتكلموا تعرفوا ، ما ضاع امرؤ عرف قدره . وأما التى فى الأدب فهى قوله : انعم على من شئت تكن أميره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره .

وروى أبو الفرج فى كتاب الأغانى : أن ابن عباس سمع قصيدة لعمر بن أبى ربيعة مرة واحدة فحفظها وأعادها ،وما سمعها قط إلا تلك المرة صفحًا (أى مروراً) ثم أنشدها من آخرها إلى أولها مقلوبة ، فقال له بعضهم : ما رأيت أذكى منك قط . فقال ابن عباس : لكننى

ما رأيت قط أذكى من علي بن أبي طالب عليه السلام .

٢ ـ كما بينا نشأ الإمام علي في حجر رسول الله ، وتأدب بآدابه ، وتخلق بأخلاقه ، واهتدى بهداه ، واقتدى به في أقواله وأفعاله ، ولازمه طول حياته ، واستمع إلى الامام علي يقول : « وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره وأنا وليد يضمني إلى صدره ، ويكنفني في فراشه ويمسني جسده ـ إلى أن قال ـ ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه ، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ، ويأمرني بالاقتداء به ، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة .

وفي أسد الغابة ، بسنده عن ابن إسحاق قال : أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر الوحي بالإذن له بالهجرة إلى المدينة حتى إذا اجتمعت قريش فكرت بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فدعا علي ابن أبي طالب فأمره أن يبيت على فراشه ويتسجى ببرد له أخضر ففعل ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على القوم وهم على بابه .
قال ابن إسحاق : وتتابع الناس في الهجرة وكان آخر من قدم المدينة من الناس ، ولم يفتن في دينه علي بن أبي طالب ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخره بمكة وأمره أن يؤدي إلى كل ذي حق حقه ففعل ، ثم لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى هذا يقول أحد الشعراء :

ومواقف لك دون أحمد جاوزت بمقامك التعريف والتحديدا
فعلى الفراش يبيت ليلك والعدى تهدى إليك بوارقاً ورعودا
فرقدت مثلوج الفؤاد كأنما يهدى القراع اسمعك التغريدا
فكفيت ليلته وقمت معارضاً بالنفس لا فشلا ولا رعديدا
واستصبحوا فرأوك دون مرادهم جبلا أشم وفارساً صنديدا
رصدوا الصباح لينفقوا كنز الهدى أو ما دروا كنز الهدى مرصودا

٣ - سبقه إلى الإسلام وعدم سجوده لصنم قط : سبق أن أشرنا بالتفصيل إلى أن على بن أبى طالب والد مسلماً - ويقول ابن أبى الحديد : ما أقول فى رجل سبق الناس إلى الهدى وآمن بالله وعَبَده ، وكل من فى الأرض يعبد الحجر ، ويجحد الخالق ؛ لم يسبقه أحد إلى التوحيد إلا السابق إلى كل خير محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذهب أكثر أهل الحديث إلى أنه عليه السلام أول الناس اتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل الإجماع على أن علياً كان أول من آمن من الأحداث الذين لم يبلغوا الحلم ، وكانت السيدة خديجة رضى الله عنها أولى المؤمنات من النساء ، كما كان أبو بكر أول من آمن من الرجال ، وفى ذلك يقول أمير الشعراء :

ناجاهم ببينـــات ربه فآمنت بنت خويلد به

فقيل فيها أسبق الإنـــاث ‏ ‏ ‏ وفى علىّ أسبق الأحداث
وفى الرجال لأبى بكر يد ‏ ‏ ‏ بالسبق لم يبلغ مداها سيد

وعن زيد بن الأرقم أن على بن أبى طالب أول من أسلم ، وقال ابن إسحاق : أول من آمن بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم من الرجال على بن أبى طالب ، وروى بسنده عن ابن عباس ، قال : « لعلىّ أربع خصال ليست لأحد غيره ، هو أول عربى وعجمى صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى كان لواؤه معه فى كل زحف ؛ وهو الذى صبر معه يوم فر غيره ، وهو الذى غسله وأدخله قبره » .

ولا يكاد يكون هناك خلاف إطلاقـًا فى أن عليـًّا أول من أسلم بعد خديجة رضى الله عنها ، ويؤيد ذلك كل الروايات والأحاديث التى ذكرت عن زيد بن الأرقم ، وابن إسحاق ، وابن عباس ، وسلمان الذى يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم : «أول هذه الأمة وروداً على الحوض أولها إسلامـًا على بن أبى طالب » .

وابن شهاب ، وعبد الله بن محمد بن عقيل ، وقتادة ، عن أنس ابن مالك قال : « استنبئ النبى صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين وصلى علىّ يوم الثلاثاء » .

٤ ـــ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع خاصة أهله وعشيرته فى ابتداء الدعوة إلى الإسلام ، فعرض عليهم الإيمان واستنصرهم على

أهل الكفر والعدوان ، وضمن لهم على ذلك الحظوة فى الدنيا والشرف وثواب الجنان ، فلم يجبه أحد منهم إلا على بن أبى طالب .

٥ ــ أقامه الرسول صلى الله عليه وسلم مقامه يوم الهجرة فى أداء أماناته ورد ودائعه وقضاء ديونه لما علم من أمانته وكفايته وشجاعته فقام بما أمر به .

٦ ــ المؤاخاة بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عبد البر فى الاستيعاب : آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين ، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار ، وقال فى كل واحدة منهما لعلى أنت أخى فى الدنيا والآخرة ، وآخى بينه وبين نفسه ، وروى عن على أنه كان يقول : «أنا عبد الله وأخو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يقولها أحد غيرى إلا كذاب ، آمنت قبل الناس بسبع سنين» ، وفى ذلك من إبانة فضله على الكافة ، والدلالة على أنه لا كفء لرسول الله صلى الله عليه وسلم سواه ، وفى ذلك يقول الشاعر :

تخيرك الهـادى النبى لنفسه ... أخاً حين آخى بينهم فلك الفخر
فهل كان مذ آخاك مثلك فيهم ... وأخطا انتقاء المصطفى ، إنه الهذر

٧ ــ وأنه رضى الله عنه صاحب رايته ، وعن ابن عباس أنه قال : «هو صاحب لوائه فى كل زحف» ، فنى غزوة بدر الكبرى ، وفى غزوة حد كانت الراية ولواء المهاجرين مع على .

٨ ـ أن الإمام علياً كان مؤثراً للاجتهاد معرضاً عن التقليد ما استغنى عنه ، فوافق الخلفاء من قبله فى أمور وخالفهم فى أمور ، وأبى أن يأتم بعملهم فيما يراه وما لا يراه ، وأوصى ابنه الحسن فقال : « اعلم يا بنى أن أحب ما أنت آخذ به إلىّ من وصيتى تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك والأخذ بما مضى عليه الأولون من آبائك والصالحون من أهل بيتك فإنهم لم يدعوا أن نظروا إلى أنفسهم كما أنت ناظر ، وفكروا كما أنت مفكر ، فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك بدون أن تعلم كما علموا فليكن طلبك ذلك بتفهم وتعلم لا بتورط الشبهات وعلق الخصومات ، وابتدئ قبل نظرك فى ذلك بالاستعانة بإلهك والرغبة إليه فى توفيقك وترك كل شائبة أولجتك فى شبهة أو أسلمتك إلى ضلالة ، فإن أيقنت أن قد صفا قلبك فخشع ، وتم رأيك فاجتمع ، وكان همك واحداً ، فانظر فيما فسرت لك .

٩ ـ الشجاعة وامتيازه فيها وتفوقه :

هو الشجاع الذى ما فرّ قط ولا ارتاع من كتيبة ، قال : ابن أبى الحديد فى شرح النهج : أما الشجاعة فإنه أنسى الناس فيها ذكر من كان قبله ، ومحا اسم من يأتى بعده ، ومقاماته فى الحرب مشهورة تضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة .

وكان بجرأته على الموت لا يهاب قرناً من الأقران بالغاً ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت ، واجترأ وهو فتى ناشئ على عمرو بن ودّ فارس

الجزيرة العربية الذى كان يقوّم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه ، وكانت وقعة الخندق فخرج عمرو مقنعاً فى الحديد ينادى جيش المسلمين ، من يبارز ؟ فصاح علىّ : أنا له يا نبى الله ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم و به إشفاق عليه : إنه عمرو ، اجلس ، ثم عاد عمرو ينادى ألا رجل يبرز ؟ وجعل يؤنبهم قائلا : أين جنتكم التى زعمتم أنكم داخلوها إن قتلتم ؟ أفلا تبرزون إلىّ رجلا ؟ فقام على مرة بعد مرة وهو يقول : أنا له يا رسول الله ، ورسول الله يقول له مرة بعد مرة : اجلس ، إنه عمرو ، وهو يجيبه وإن كان عمراً ، حتى أذن له فمشى إليه فرحاً بهذا الإذن الممنوع كأنه الإذن بالخلاص ، ثم نظر إليه عمرو فاستصغره وأنف أن يناجزه وأقبل يسأله : من أنت ؟

قال ولم يزد : أنا على .

قال : ابن عبد مناف ؟

قال : ابن أبى طالب .

قال : يا بن أخى من أعمامك من هو أسن . وإنى أكره أن أهريق دمك .

فقال : لكنى والله لا أكره أن أهريق دمك .

فغضب عمرو وأهوى إليه بسيف كان — كما قال واصفوه — كأنه شعلة نار ، واستقبل علىّ الضربة بدرقته فقدها السيف وأصاب رأسه ، ثم

ضربه عليّ على حبل عاتقه فسقط ونهض ، وسقط ونهض ، وثار الغبار فما انجلى إلا عن عمرو صريعاً وعلى يجأر بالتكبير .

واستمع إلى أخت عمرو بن ود تقول على سبيل التأسى بعد موته :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله　　بكيته أبداً ما دمت فى الأبد
لكن قاتله من لا نظير له　　وكان يدعى أبوه بيضة البلد

وقيل إنه لما دعا معاوية إلى المبارزة ليستريح الناس من الحرب بقتل أحدهما قال له عمرو : لقد أنصفك ، فقال معاوية له : ما غششتنى منذ نصحتنى إلا اليوم ، أتأمرنى بمبارزة أبى الحسن ، وأنت تعلم أنه الشجاع المطرق . أراك طمعت فى إمارة الشام بعدى .

وفى وقعة « بدر » التى بها تمهدت قواعد الدين ، وأذل الله جبابرة المشركين . وقتل فيها رؤساؤهم ، كان الإمام قطب الرحى فى هذه الموقعة . وكذلك كان فى وقعة أحد ، ويوم « حنين » ثبت مع الرسول صلى الله عليه وسلم عندما هرب عنه الناس إلى غير ذلك من غزوات الرسول .

أما بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بعدما بويع بالخلافة أيام الجمل وصفين والنهروان ، فشجاعته كانت مثالية ، ففى يوم الجمل ثبت الفريقان وأشرعوا الرماح بعضهم فى صدور بعض ، وعندما اشتد القتال زحف الإمام نحو الجمل بنفسه فى كتيبة من المهاجرين والأنصار وحوله بنوه ثم حمل ، فغاص فى عسكر الجمل حتى طحن العسكر ،

ثم رجع ، وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته فقال له أصحابه وبنوه : نحن نكفيك ، فلم يجب أحداً منهم ، ولا يرد إليهم بصره ، وظل يزأر زئير الأسد ، ثم حمل حملة ثانية وحده فدخل وسطهم يضربهم بالسيف قدماً قدماً ، والرجال تفرّ من بين يديه ، وتنحاز عنه يمنة ويسرة حتى خضب الأرض بدماء القتلى ثم رجع ، وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته ، فاجتمع عليه أصحابه وناشدوه الله فى نفسه وفى الإسلام ، فقال : «والله ما أريد بما ترون إلا وجه الله والدار الآخرة» ، ثم قال لمحمد : هكذا تصنع يابن الحنفية ، فقال الناس : من الذى يستطيع يا أمير المؤمنين ، وكان فى أوائل أيام «صفين» يسهر الليل كله إلى الصباح يعبئ الكتائب ويؤمر الأمراء ، ويعقد الألوية ، وهو الذى لبس يوم صفين سلاح العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وقتل اللخميين والحميرى الذين لم يكن فى الشام أشهر منهم بالبأس والنجدة .

١٠ ــ الجهاد فى سبيل الله : وهو بحق سيد المجاهدين ، ويكفى وقعة بدر الكبرى التى قتل فيها سبعون من المشركين ،قتل علىٌّ نصفهم .

قال ابن أبى الحديد : أما الجهاد فى سبيل الله فعلوم عند صديقه وعدوه ، وأنه سيد المجاهدين ، وهل الجهاد لأحد من الناس إلا له ، ويقول ابن عبد البر فى الاستيعاب : «أجمعوا على أنه شهد بدراً والحديبية وسائر المشاهد ، وأنه أبلى ببدر وبأحد وبالخندق وبخيبر بلاء عظيماً ، وأنه أغنى فى تلك المشاهد ، وقام فيها المقام الكريم ، كان لواء رسول الله

صلى الله عليه وسلم معه ، ولما قتل مصعب بن عمير يوم أحد ، وكان اللواء بيده دفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علىّ» .

١١ – التورّع عن البغى : كانت شجاعة الإمام من الشجاعات النادرة ، ويزيدها تشريفاً وجلالا أنها ازدانت بأجمل الصفات وهى التورع عن البغى والاستمساك بالمروءة مع الخصم قويّاً أو ضعيفاً على السواء ، فما رفع يده بالسيف قط إلا وقد بسطها قبل ذلك للسلام .

فمن تورعه عن البغى مع قوته البالغة وشجاعته النادرة أنه لم يبدأ أحداً قط بقتال ، وله مندوحة عنه ، وكان يقول لابنه الحسن « لا تدعونّ إلى مبارزة ، فإن دعيت إليها فأجب فإن الداعى إليها باغ ، والباغى مصروع » . وعلم أن جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه ، وقيل له : إنهم خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك فقال : « لا أقاتلهم حتى يقاتلونى وسيفعلون» .

وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللدد فى العداء لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من تارات أصحابه عندهم إلا بمقدار ما استحقوه فى موقف الساعة ، فاتفق فى يوم صفين أن خرج من أصحاب معاوية رجل يسمى كريز بن الصباح الحميرى ، فصاح بين الصفين : من يبارز ؟ فخرج إليه رجل من أصحاب علىّ فقتله ، ووقف عليه ونادى : من يبارز ؟ فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الأول ، ثم نادى : من يبارز ؟ فخرج إليه ثالث، فصنع به صنيعه بصاحبيه ، ثم نادى

رابعة : من يبارز ؟ فأحجم الناس ، ورجع من كان فى الصف الأول إلى الصف الذى يليه ، وخاف الإمام على أنّ يشيع الرعب بين صفوفه ، فخرج إلى ذلك الرجل المدلّ بشجاعته و بأسه ، فصرعه ثم نادى نداءه حتى أتم ثلاثة صنع بهم صنيعه بأصحابه ، ثم قال : « يأيها الناس ، إن الله عزو وجل يقول : (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص) ولولم تبدءونا ما بدأناكم» . ثم رجع إلى مكانه .

١٢ — الحلم والصفح : و يقول ابن أبى الحديد : « وأما الحلم والصفح فكان أحلم الناس عن مذنب ، وأصفحهم عن مسئ ، وقد ظهر صحة ذلك يوم الجمل حيث ظفر بمروان بن الحكم ، وكان أعدى الناس له وأشدهم بغضاً فصفح عنه . وكان عبد الله بن الزبير يشتمه على رؤوس الأشهاد ، وكان عليه السلام يقول : « ما زال الزبير رجلا منا أهل البيت حتى شب ابنه عبد الله» ، فظفر به يوم الجمل فأخذه أسيراً فصفح عنه . وظفر بسعيد بن العاص بعد وقعة الجمل بمكة ، وكان له عدوّاً ، فأعرض عنه ، أما إكرامه لأم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها فقد بعث معها إلى المدينة عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن بالعمائم وقلدهن بالسيوف ، فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأففت وقالت : « هتك سرى برجاله وجنده الذين وكلهم بى» فلما وصلت المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها إنما نحن نسوة . وحاربه أهل البصرة وضربوا وجهه ووجوه أولاده بالسيف

وسبوه ولعنوه ، فلما ظفر بهم رفع السيف عنهم ، ونادى مناديه : ألا يجهز على جريح ، ولا يقتل مستأسر ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ومن تحيز إلى عسكر الإمام فهو آمن . ولم يأخذ من أثقالهم ، ولا سبى ذراريهم ، ولا غنم شيئاً من أموالهم ، ولو شاء أن يفعل كل ذلك لفعل ، ولكنه أبى إلا الصفح والعفو .

١٣ ـ العلم والفصاحة والبلاغة : إمام الفصحاء وسيد البلغاء ، وعن ابن عباس أنه قال : « والله لقد أعطى على بن أبى طالب تسعة أعشار العلم ، وايم الله لقد شارككم أو شاركهم فى العشر العاشر » ، وكفى فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : «أنا مدينة العلم أو مدينة الحكمة وعلى بابها ، فمن أراد العلم فليأته من بابه» .

وروى أبو نعيم الأصفهانى فى حلية الأولياء بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا دار الحكمة وعلى بابها» .

وقد أفاء الله عليه نعمة العلم والحكمة ، فكان أعلم الناس بالسنة وأقضاهم . عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى : « تختصم الناس بسبع ، ولا يحاجك أحد من قريش ، أنت أولهم إيماناً بالله ، وأدناهم بعهد الله ، وأقومهم بأمر الله ، وأقسمهم بالسوية ، وأعدلهم فى الرعية ، وأبصرهم بالقضية ، وأعظمهم عند الله مزية » .

ويقول الإمام : « اسألونى قبل أن تفقدونى ، فوالذى نفسى بيده لا تسألونى فى شىء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدى مائة ، وفضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها» ، وعن المسعودى أنه حفظ الناس عنه أربعمائة ونيفاً وثمانين خطبة يوردها على البديهة ، وقال الشريف الرضى فى خطبة نهج البلاغة «كان أمير المؤمنين رضى الله عنه مشرع الفصاحة وموردها ومنشأ البلاغة ومولدها ، ومنه ظهر مكنونها ، وعنه أخذت قوانينها ، وعلى أمثلته سار كل قائل خطيب وبكلامه استعان كل واعظ بليغ . . .» .

ولما قال ابن أبى محفن لمعاوية : «جئتك من عند أعيا الناس ، قال له : ويحك ، كيف يكون أعيا الناس ، فوالله ما سن الفصاحة لقريش غيره» . ويكفى نهج البلاغة دلالة على أنه لا يجارى فى الفصاحة ولا يبارى فى البلاغة .

ويقول الإمام : «كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع» ، قال الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين : قال على بن أبى طالب: قيمة كل امرئ ما يحسن ، ثم قال فلو لم نقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها كافية شافية ومجزية مغنية ، بل لوجدناها فاضلة على الكفاية وغير مقصرة على الغاية . وقال ابن عائشة : ما أعرف كلمة بعد كلام الله ورسوله أخصر لفظاً ولا أعم نفعاً من قول على «قيمة كل امرئ ما يحسن» . وفى البيان والتبيين قيل لعلى بن أبى طالب

رضى الله تعالى عنه : كم بين السماء إلى الأرض قال دعوة مستجابة ، فقالوا كم بين المشرق إلى المغرب قال مسيرة يوم للشمس .

وفى الاستيعاب بسنده عن سعيد بن المسيب : ما كان أحد من الناس يقول سلونى غير على بن أبى طالب . وعن أبى الطفيل شهدت علياً يخطب وهو يقول : « سلونى فوالله لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم ، وسلونى عن كتاب الله فو الله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم فى سهل أم فى جبل» ، ولا شك أن الإمام كان عنده علم القرآن والتوراة والإنجيل ، يقول ابن أبى الحديد : روى المدائنى قال خطب عليه السلام فقال : لو كسرت لى الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم و بين أهل الإنجيل بإنجيلهم و بين أهل الفرقان بفرقانهم .

١٤ ــ الإمام على أشعر الصحابة :

عن الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين وفضائل بنى هاشم والبلاذرى فى أنساب قريش أن علياً أشعر الصحابة وأفصحهم وأخطبهم وأكتبهم ، وعن تاريخ البلاذرى كان أبو بكر يقول الشعر وعمر يقول الشعر وعثمان يقول الشعر وكان على أشعر الثلاثة ، و يؤيد هذا الشعبى وسعيد بن المسيب.

والذى لا شك فيه أن الإمام كان ينظم الشعر ويحسن النظر فيه ، وكان نقده للشعر نقد عليم بصير يعرف اختلاف مذاهب القول واختلاف وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب .

قال عليه السلام يوم صفين وقد بالغت فى نصره همدان . ويقول ابن أبى الحديد فى شرح النهج إنه من الشعر الذى لا يشك أن قائله الإمام :

لما رأيت الخيل تقرع بالقنـــا ... فوارسها حمر العيون دوامى
وأقبل رهج فى السماء كأنه ... غمامة دجن ملبس بقتام
ونادى ابن هند ذا الكلاع ويحصباً ... وكندة فى لخم وحىّ جذام
فيممت همـــدان الذين هم هم ... إذا ناب أمر جنتى وحسامى
دعوت فلبانى من القوم عصبة ... فوارس من همدان غير لئام
فوارس من همدان ليسوا بعزل ... غداة الوغى من شاكر وشبام
ومن أرحب الشم المطاعين بالقنا ... وفهم وأحياء السبيع وسام
ومن كل حى قد أتتنى فوارس ... ذوو نجدات فى اللقاء كرام
لهمدان أخلاق ودين يزينهم ... وبأس إذا لاقوا وجد خصام

ويقول عليه السلام فى ذم الناس :

المرء فى زمن الإقبال كالشجرة ... وحولها الناس ما دامت بها الثمره
حتى إذا ما عرت من حملها انصرفوا ... عنها عقوقاً وقد كانوا بها بررة
وحاولوا قطعها من بعدما شفقوا ... دهراً عليها من الأرياح والغبره
قلّت مروات أهل الأرض كلهم ... إلا الأقل فليس العشر من عشره
لا تحمدن امرأً حتى تجربه ... فربما لم يوافق خُبْره خَبَره

وقال الإمام يذكر مبيته على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ليلة الهجرة :

وقيت بنفسي خير من وطئ الحصى ... ومن طاف بالبيت العتيق و بالحجر
محمد لما خاف أن يمكروا به ... فوقاه ربي ذو الجلال من المكر
وبت أراعيهم فتى ينشدونني ... وقد وطنت نفسي على القتل والأسر
وبات رسول الله في الغار آمناً ... هناك وفي حفظ الإله وفي ستر
أقام ثلاثاً ثم زمت قلائص ... قلائص يفرين الحصى أينما يفرى

وأورد الطبري في تاريخه ما قاله الإمام بعد رجوعه من أحد، وقد خضب الدم يده إلى كتفه ومعه ذو الفقار فناوله فاطمة عليها السلام وقال خذى هذا السيف فقد صدقني اليوم ، وأنشأ يقول :

أفاطم هاك السيف غير ذميم ... فلست برعديد ولا بمليم
لعمرى لقد قاتلت في حب أحمد ... وطاعة رب بالعباد رحيم
وسيفي بكفي كالشهاب أهزه ... أجذ به من عاتق وصميم
فمازلت حتى فض ربي جموعهم ... وحتى شفينا نفس كل حليم

١٥ ــ معرفة القضاء والفرائض :

عن ابن مسعود : « أن أقضى أهل المدينة على بن أبي طالب » وبسنده عنه : أعلم أهل المدينة بالفرائض على بن أبي طالب ، وعن عمر أنه قال : « على أقضانا » . وروى أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء بسنده عن علي : « بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فقلت

يا رسول الله تبعثني إلى اليمن ويسألونني عن القضاء ولا علم لى به ، قال ادن ، فدنوت فضرب بيده على صدرى ثم قال: اللهم ثبت لسانه ، واهد قلبه ، فلا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ما شككت فى قضاء بين اثنين بعده» .

ودخل ضرار بن ضمرة الكنانى على معاوية . فقال : صف لى عليًّا ، قال اعفنى . قال: لتصفنه قال : أما إذ لا بد من وصفه فإنه كان والله بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، وكان غزير الدمعة طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب ، وكان فينا كأحدنا ، يدنينا إذا أتيناه ، ويجيبنا إذا سألناه ، ويلبّينا إذا دعوناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له ، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويقرب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه — وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه — قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين، فكأنى أسمعه الآن وهو يقول: يا ربنا يا ربنا ، يتضرع إليه ثم يقول: « يا دنيا غرى غيرى، ألى تعرضت أم إلىّ تشوقت؟! هيهات هيهات ! قد بتتك ثلاثا لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، وخطرك

كبير ، وعيشك حقير ، آه آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق !» .

١٦ — زهده :

قال الشريف الرضى فى مقدمة نهج البلاغة فى على رضى الله عنه : « ومن عجائبه التى انفرد بها وأمن المشاركة فيها أن كلامه فى الزهد والمواعظ إذ تأمله المتأمل وخلع من قلبه أنه كلام مثله ، ضمن عظم قدره ، ونفذ أمره ، وأحاط بالرقاب ملكه ، لم يعترضه الشك فى أنه من كلام من لا حظ له فى غير الزهادة ، ولا شغل له بغير العبادة ، وقد قبع فى كسر بيت ، أو انقطع فى سفح جبل ، لا يسمع إلا حسه ولا يرى إلا نفسه» .

وفى أسد الغابة ، بسنده عن عمار بن ياسر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلى بن أبى طالب : يا على ، إن الله عزو وجل قد زينك بزينة لم يتزين العباد بزينة أحب إليه منها : الزهد فى الدنيا ، فجعلك لا تنال من الدنيا شيئاً ، ولا تنال الدنيا منك شيئاً ، ووهب لك حب المساكين ورضوا بك إماماً ورضيت بهم أتباعاً ، فطوبى لمن أحبك وصدق فيك وويل لمن أبغضك وكذب عليك . وقد قال عمر بن عبد العزيز : « أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب» . وقال سفيان : « إن علياً لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة» .

وعن الحسن بن على أنه قال : «لم يترك أبى إلا ثمانمائة درهم أو

سبعمائة درهم فضلت من عطائه كان يعدها لخادم يشتريها لأهله » .
وروى النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال : « دخلت على علىّ عليه السلام فإذا بين يديه لبن حامض آذتنى حموضته وكسر يابسة ، فقلت : يا أمير المؤمنين أتأكل مثل هذا ؟ فقال لى : يا أبا الجنوب ، كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا — وأشار إلى ثيابه — فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به » . وكان وهو أمير المؤمنين يأكل الشعير وتطحنه الزهراء بيديها — وكان يختم على الجراب الذى فيه دقيق الشعير فيقول : « لا أحب أن يدخل بطنى إلا ما أعلم » .

وعن عبد الله بن أبى الهذيل قال : « رأيت علياً خرج وعليه قميص غليظ دارس إذا مد كم قميصه بلغ إلى الظفر ، وإذا أرساه صار إلى نصف الساعد . وفى « أسد الغابة» بسنده عمن رأى على علىّ عليه السلام إزاراً غليظاً قال اشتريته بخمسة دراهم فمن أربحنى فيه درهماً بعته . وفى « حلية الأولياء» عن الأرقم قال : رأيت علياً وهو يبيع سيفاً له فى السوق ، ويقول : من يشترى منى هذا السيف ؟ فوالذى فلق الحبة لطالما كشفت به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو كان عندى ثمن إزار ما بعته .

هذا هو الزهد ، ولم يعرف أحد من الخلفاء أزهد منه فى لذة دنيا أو سبب دولة .

العدالة :

إن زهده وعدله لا يمكن استقصاؤهما، وامتاز الحكم فى عهد الإمام بالمساواة ، فالناس فى الحقوق سواء لا محاباة لقوى ولا إجحاف بضعيف، وقد عمد إلى القطائع التى وزعت قبله على المقربين والرؤساء فانتزعها من القابضين عليها وردها إلى بيت مال المسلمين لتوزيعها بين من يستحقونها على سنة المساواة ، وقال : «والله لو وجدته قد تزوج به النساء ، وملك به الإماء لرددته» . فإن فى العدل سعة ، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق» .

ومن وصاياه لولاته : «أنصفوا الناس من أنفسكم . واصبروا لحوائجهم ، فإنهم خزان الرعية ، ولا تحسموا أحداً عن حاجته ، ولا تحبسوه عن طلبته ، ولا تبيعن الناس فى الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها ولا عبداً . ولا تضربن أحداً سوطاً لمكان درهم» ، ومن وصاياه فى تحصيل الخراج والصدقات «امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخرج بالتحية لهم ثم تقول : عباد الله : أرسلنى إليكم ولى الله وخليفته لآخذ منكم حق الله فى أموالكم ، فهل لله فى أموالكم حق فتؤدوه إلى وليه ؟ فإن قال قائل لا فلا تراجعه . وإن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تخيفه وتوعده أو تعسفه أو ترهقه ، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فإن كان له ماشية

أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه ، فإن أكثرها له . فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ، ولا عنيف به . ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها ولا تسوءن صاحبها فيها . واصدع المال صدعين ثم خيره ، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره . فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء حق الله فى ماله فاقبض حق الله منه . فإن استقالك فأقله» .

أما دستوره فى الولاة والعمال ، فيتبين مما قاله للأشتر النخعى : «انظر فى أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وأثرة ، فإنهم جماع من شعب الجور والخيانة . وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم فى الإسلام . فإنهم أكثر أخلاقاً وأصح أعراضاً وأقل فى المطامع إسرافاً وأبلغ فى عواقب الأمور نظراً ، ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم . وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم . وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك . ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والعيون عليهم فإن تعاهدك فى السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية» .

أما دستوره فى تحصيل الضرائب فيتلخص فيما كان يكتبه إلى واليه : «تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم . ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله . وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب

الخراج لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلا قليلا وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها . وإنما يعوز أهلها إسراف الولاة على الجميع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر» .

وقد بلغ من عظيم عدل الإمام أنه وجد مع المال الذى جاء من أصبهان رغيفاً فقسمه سبعة أجزاء كما قسم المال وجعل على كل جزء جزءاً .

وفى أسد الغابة : بسنده عن رجل من ثقيف قال استعملنى على ابن أبى طالب على مدرج سابور فقال : لا تضربن رجلا سوطاً فى جباية درهم ، ولا تبيعن لهم رزقاً ولا كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها ، ولا تقيمن رجلا قائماً فى طلب درهم ، قلت : يا أمير المؤمنين إذن أرجع إليك كما ذهبت من عندك ، قال : وإن رجعت ويحك إنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو يعنى الفضل . وهو أول من ساوى بين الناس فى العطاء ، وكان يأخذ كأحدهم ،وقصته مع أخيه عقيل — حين طلب منه زيادة فى عطائه فقال له اصبر حتى يخرج عطائى فلم يقبل ، فأبى أن يعطيه أكثر من عطائه — معروفة ، وكذلك خبره مع ولده الحسن حين استقرض شيئاً من عسل بيت المال ومع ابنته حين استعارت عقداً من بيت المال .

القرآن الكريم والإمام عليّ

عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً من الأيام الظهر ، فسأل سائل فى المسجد فلم يعطه أحد شيئاً فرفع السائل يديه إلى السماء وقال : اللهم اشهد أنى سألت فى مسجد نبيك محمد صلى الله عليه وسلم فلم يعطنى أحد شيئاً ، وكان على رضى الله عنه فى الصلاة راكعاً فأومأ إليه بخنصره اليمنى وفيها خاتم ، فأقبل السائل فأخذ الخاتم من خنصره ، وذلك بمرأى من النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه إلى السماء وقال : اللهم إن أخى موسى سألك فقال :

(رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ، واحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ، يَفْقَهُوا قَوْلِي ، واجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي). فأنزلت عليه قرآناً سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا . اللهم وإنى محمد نبيك وصفيك ، اللهم فاشرح لى صدرى ويسرلى أمرى واجعل لى وزيراً من أهلى علياً اشدد به ظهرى . قال أبو ذر رضى الله عنه: فما أتم دعاءه

حتى نزل جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل وقال يا محمد اقرأ :
(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) .

ويروى أن حسان بن ثابت قال :

أبا حسن تفديك نفسى ومهجتى ... وكل بطىء فى الهدى ومسارع
أيذهب سعيي فى مديحك ضائعاً ... وما المدح فى جنب الإله بضائع
فأنت الذى أعطيت إذ كنت راكعاً ... فدتك نفوس القوم يا خير راكع
فأنزل فيك الله خير ولاية ... فثبتها فى محكمات الشرائع

وسبب هذا الشعر ما رواه ابن عباس رضى الله عنهما ، أيضاً فى سبب نزول هذه الآية قال : أقبل عبد الله بن سلام ومعه نفر من قومه ممن قد آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا يا رسول الله إن منازلنا بعيدة ، فلا نجد أحداً يجالسنا أو يخالطنا من دون هذا المسجد ، وإن قومنا لما رأونا قد حدثنا الله ورسوله ، وتركنا دينهم أظهروا العداوة لنا وأقسموا ألا يخالطونا ولا يؤاكلونا ، فشق علينا ، فبينما هم يشكون إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) . وإذا بالمؤذن يؤذن بالصلاة ، صلاة

الظهر ، فخرج رسول الله إلى المسجد والناس يصلون بين راكع وساجد ، وقائم وقاعد ، فإذا مسكين يسأل فدخل الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : أأعطاك أحد شيئًا ؟ قال نعم . قال من ؟ قال ذاك الرجل القائم ، ذاك على بن أبي طالب ! فكبر النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك وقرأ : (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ) . فأنشأ حسان بن ثابت ما ذكرناه ؛ وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان مع على رضى الله عنه أربعة دراهم لا يملك غيرها فتصدق بدرهم ليلا ، وبدرهم نهارًا ، وبدرهم سرًا وبدرهم علانية ، فأنزل الله تعالى : (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً . فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

وروى أنه لما نزلت (وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) . قال الرسول عليه الصلاة والسلام : سألت الله أن يجعلها أذنك يا على ، ففعل ، فكان علىّ رضى الله عنه يقول : ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم كلاماً إلا وعيته وحفظته ولم أنسه .

وفى تفسير الطبرى : حدثنى عبد الله بن رستم ، سمعت بريدة

يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلى : « يا على إن الله أمرنى أن أدنياك » . وذكر مثله . وروى الطبرى فى تفسيره أيضاً ، قال حدثنا على بن سهل ، حدثنا الوليد بن مسلم عن على بن حوشب ، سمعت مكحولا يقول : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) ، ثم التفت إلى على فقال : سألت الله أن يجعلها أذنك ، قال على : فما سمعت شيئاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنسيته .

وفى حلية الأولياء بسنده عن عمر بن على بن أبى طالب ، عن أبيه على عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا على « إن الله أمرنى أن أدنيك وأعلمك لتعى » وأنزلت هذه الآية : (وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) ، فأنت أذن واعية لعلمى .

ونقل الإمام أبو إسحق الثعلبى رحمه الله فى تفسيره أن سفيان ابن عيينة رحمه الله تعالى سئل عن قوله تعالى :

(سَأَلَ سائِلٌ بِعَذَابٍ واقِعٍ) ، فيمن نزلت ؟ فقال للسائل ، لقد سألتنى عن مسألة لم يسألنى عنها أحد قبلك ، حدثنى أبى عن جعفر ابن محمد ، عن آبائه رضى الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان « بغدير خم » نادى الناس فاجتمعوا فأخذ بيد على رضى الله عنه وقال : « من كنت مولاه فعلى مولاه » ، فشاع ذلك فطار فى البلاد وبلغ ذلك الحرث بن النعمان الفهرى ، فأتى رسول الله صلى الله عليه

وسلم على ناقة له فأناخ راحلته ونزل عنها، وقال يا محمد: «أمرتنا عن الله عز وجل : أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقبلنا منك ، وأمرتنا أن نصوم رمضان فقبلنا ، وأمرتنا بالحج فقبلنا ، ثم لم ترض بهذا حتى رفعت ابن عمك تفضله علينا ، فقلت، "من كنت مولاه فعلى مولاه" ، فهذا شيء منك أم من الله عز وجل ؟ » . فقال النبي صلى الله عليه وسلم: « والذى لا إله إلا هو إن هذا من الله عز وجل» فولى الحرث ابن النعمان يريد راحلته وهو يقول : « اللهم إن كان ما يقول محمد حقًّا فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم»، فما وصل إلى راحلته حتى رماه الله عز وجل بحجر سقط على هامته فخرج من دبره فقتله، فأنزل الله عز وجل : (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ . لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ . مِنَ اللهِ ذِى الْمَعَارِجِ) .

أحاديث الرسول عن الإمام على

أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام عن الإمام على — وبخاصة فى فضله ومحبته — كثيرة ومتواترة ، وعن الصديق رضى الله عنه فى حديثه المشهور الذى سمى حديث الخيمة قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خيم خيمة وهو يتكئ على قوس عربية ، وفى الخيمة على وفاطمة والحسن والحسين ، فقال : « يا معشر المسلمين ؛ أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة ، حرب لمن حاربهم ، ولى لمن والاهم ، لا يحبهم إلا سعيد الجد طيب المولد ، ولا يبغضهم إلا شقى الجد ردىء الولادة » .

فى سبق إسلام على كرم الله وجهه :

بينت فيما سبق بما لا يدع مجالاً للشك أن الإمام أول من أسلم ، فتقدمه فى الإسلام من الأمور الواضحة لمن رجع إلى السنة النبوية وإلى أقوال الصحابة .

الترمذى بسنده عن أنس بن مالك : قال بُعث النبى صلى الله عليه وسلم ، يوم الاثنين وصلى على يوم الثلاثاء . وعن أبى رافع مولى النبى صلى الله عليه وسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صليت أنا أول يوم الاثنين ، وصلت خديجة آخر يوم الاثنين ،

وصلى علىّ يوم الثلاثاء من الغد ، وصلينا مستخفين قبل أن يصلى معنا أحد سبع سنين وأشهراً» .

وعن عمرو بن ميمون عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أول من أسلم من الناس بعد خديجة على بن أبى طالب ،ويقول أحد الشعراء فى صفين :

أنت الإمام الذى نرجو بطاعته　　يوم النشور من الرحمن غفرانا
أوضحت من ديننا ما كان مشتبهاً　　جزاك ربك منا فيه إحسانا
نفسى الفداء لأولى الناس كلهم　　بعد النبى على الخير مولانا
أخى النبى ومولى المؤمنين معاً　　وأولى الناس تصديقاً وإيمانا

وابن المغازلى بسنده عن عبد الرحمن مولى أبى أيوب الأنصارى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صلت الملائكة علىّ وعلى علىّ سبع سنين ، وذلك أنه لم يصل معى أحد غيره . وعن سلمان موفق ابن أحمد الثعلبى بسنده عن عفيف الكندى ، قال : كنت تاجراً فقدمت مكة أيام الحج فنزلت فى دار العباس بن عبد المطلب ، فبينما أنا والعباس إذ جاء رجل شاب استقبل الكعبة ، وجاءه غلام فقام عن يمينه ، وجاءت امرأة فقامت خلفه، فركعوا وسجدوا ، ثم رفعوا رؤوسهم فقلت : يا عباس أمر عظيم ، فقال : أمر عظيم ، هذا محمد ابن أخى يقول إن الله بعثه رسولا وإن كنوز كسرى وقيصر ستفتح على يدى من آمن به ، وهذه زوجته خديجة بنت خويلد ، وهذا الغلام

ابن أخي عليّ بن أبي طالب ، وعن ابن مسعود قال أول شيء علمته من أمر النبي صلى الله عليه وسلم أني قدمت من مكة فنزلت دار العباس ابن عبد المطلب ، فبينما نحن عنده إذ أقبل رجل من باب الصفا ، ومعه صبي وامرأة ، فاستلم الحجر ثم استلمه الغلام ثم المرأة ، ثم طافوا بالبيت سبعاً ، فقلنا يا عباس إن هذا الدين لم نعرفه فيكم قال هذا ابن أخي محمد ، والمرأة زوجته خديجة بنت خويلد، والغلام علي بن أبي طالب . ما على وجه الأرض أحد يعبد الله بهذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة .

النظر إلى وجه الإمام عبادة :

عن أبي سعيد الخدري ،عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: النظر إلى علي عبادة . وقال ابن الأثير في النهاية في حديث عمران بن حصين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : النظر إلى وجه عليّ عبادة، وقيل معناه أن علياً كان إذا برز قال الناس لاإله إلا الله ما أشرف هذا الفتى ، لا إله إلا الله ما أعلم هذا الفتى ، لا إله إلا الله ما أكرم هذا الفتى ،أي ما أتقى ، لا إله إلا الله ما أشجع هذا الفتى ، فكانت رؤيته تحملهم على كلمة التوحيد .

فصاحته ودرايته :

عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن عوف ، يا عبد الرحمن ؛ أنتم أصحابى ، وعلى بن أبى طالب منى أنا من علىّ ، فمن قاسه بغيره فقد جفانى ، ومن جفانى آذانى ، ومن آذانى فعليه لعنة ربى ، يا عبد الرحمن إن الله أنزل علىّ كتاباً مبيناً ، أمرنى أن أبين للناس ما نزل إليهم ما خلا على بن أبى طالب فإنه لا يحتج إلى بيان لأن الله تعالى جعل فصاحته ودرايته كدرايتى ، ولو كان الحلم رجلا لكان عليّاً ، ولو كان العقل رجلا لكان حسناً ، ولو كان السخاء رجلا لكان حسيناً ، ولو كان الحسن شخصاً لكان فاطمة بل هى أعظم ، إن فاطمة ابنتى خير أهل الأرض عنصراً وشرفاً وكرماً .

وذكر اليعقوبى فى الجزء الثانى من تاريخه أن النبى خرج ليلا بعد رجوعه من حجة الوداع منصرفاً إلى المدينة ، فصار إلى موضع بالقرب من الجحفة يقال له : « غديرخم » لثمانى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة ، فقام خطيباً ، وأخذ بيد على بن أبى طالب وقال : « من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه» . وجاء فى التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى أن عمر بن الخطاب لقى عليّاً بعد ذلك فقال له : « هنيئاً لك يابن أبى طالب ، أصبحت مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة » ، وذكر أبو تمام الطائى هذا اليوم فى قصيدة قال فيها :

ويوم الدوح دوح غدير خمّ أبان له الولاية لو أطيعا
ولم أر مثل ذاك اليوم يوماً ولم أر مثله حقّاً أضيعا

قال الرسول : إن الإمام عليًّا أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين . روى أبو نعيم الأصفهانى فى حلية الأولياء بسنده ، عن أنس فى حديث ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أنس ، أول من يدخل عليك من هذا الباب أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين . . . قال أنس : قلت : اللهم اجعله رجلا من الأنصار ، وكتمته، إذ جاء علىّ ، فقال : من هذا يا أنس ؟ فقلت : علىّ ، فقام مستبشراً فاعتنقه ، ثم جعل يمسح عرق وجهه بوجهه ، ويمسح عرق علىّ بوجهه ، قال على : يا رسول الله ، لقد رأيتك صنعت شيئاً ما صنعت بى من قبل ، قال : وما يمنعنى ، وأنت تؤدى عنى وتسمعهم صوتى ، وتبين لهم ما اختلفوا فيه بعدى ؟

وروى الحاكم فى المستدرك ، وصححه بسنده عن أسعد بن زرارة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوحى إلىّ فى علىّ ثلاث : أنه سيد المسلمين ، وإمام المتقين ، وقائد الغر المحجلين » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلق عليه سيد العرب . وعن السيدة عائشة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ادعوا لى سيد العرب » فقلت : يا رسول الله ، ألست سيد العرب ؟ قال : « أنا سيد ولد آدم ، وعلىّ سيد العرب » .

وعن جابر بن عبد الله سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بصبع على بن أبى طالب ، وهو يقول : « هذا أمير البررة ، قاتل الفجرة ، منصور من نصره ، مخذول من خذله» .

النبي كان يشعر بنوع من الإخاء الإمام على :

لا يختلف الرواة والمحدثون أن النبي صلى الله عليه وسلم طالما ردد هذه العبارة وهو ينظر إلى على : « هذا أخى» ، وجاء فى الحديث عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى محفل من أصحابه : « إن تنظروا إلى آدم فى علمه ، ونوح فى همه ، وإبراهيم فى خلقه ، وموسى فى مناجاته ، وعيسى فى سنه ، ومحمد فى هديه وعلمه ، فانظروا إلى هذا المقبل» ، فتطاول الناس بأعناقهم ، فإذا هو علىّ ابن أبى طالب . وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب : « حبك إيمان ، وبغضك نفاق ، وأول ن يدخل الجنة محبك ، وأول من يدخل النار مبغضك » . وأخرج لترمذى عن ابن عمر قال : آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ، جاء على تدمع عيناه ، فقال : يا رسول الله آخيت بين أصحابك لم تؤاخ بينى وبين أحد ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أنت أخى ، الدنيا والآخرة » . وفى رواية أخرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم ال : « أنت أخى وصاحبى» . ويقول ابن عباس فى ذلك : « لعلى

أربع خصال ليست لأحد غيره . هو أول عربي وعجمي صلى مع رسول الله ، وهو الذى كان لواؤه معه فى كل زحف ، وهو الذى صبر معه يوم فر منه غيره ، وهو الذى غسله وأدخله قبره»[١] . وهذه الخصال والمزايا هى التى تفرض له هذه المكانة فيختاره النبي صلى الله عليه وسلم صاحباً وأخاً .

حب الرسول للإمام :

ومهما يختلف الرواة فى تأويل الأحاديث التى ذكرناها فالذى يسعك أن تجزم به من وراء اختلافهم أن علياً كان أحب الناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، إن لم يكن أحبهم إليه على الإطلاق . لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يغمر بالحب كل من أحاط به من الغرباء والأقربين ، فأى عجب أن يخص بالحب من بينهم إنساناً كان ابن عمه الذى كفله وحماه ، وكان ربيبه الذى أوشك أن يتبناه ، وكان زوج ابنته العزيزة عنده ، وكان بديله فى الفراش ليلة الهجرة التى همّ المشركون فيها بقتل من يبيت فى فراشه ، وكان نصيره الذى أبلى أحسن البلاء فى جميع غزواته ، وتلميذه الذى علم من فقه الدين ما لم يعلمه ناشئ فى سنه .

حب النبي صلى الله عليه وسلم للإمام حقيقة لا حاجة بها إلى تأويل

---

(١) الاستيعاب .

الرواة ، ولا إلى تفسير النصوص ، لأنها حقيقة طبيعية أو حقيقة بديهية قائمة من وراء كل خلاف ، ومما لا خلاف فيه كذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان لا يكتفى بحبه إياه ، بل كان يسره ويرضيه أن يحببه إلى الناس ، وكان يسوؤه ويغضبه أن يسمع من يكرهه ويجفوه[١] .

بعث الرسول عليه الصلاة والسلام الإمام فى سرية ليقبض الخمس فاصطفى منه سبية ، واتفق أربعة من شهود السرية أن يبلغوا ذلك رسول الله ، وكان المسلمون إذا قدموا من سفر بدءوا بالرسول عليه الصلاة والسلام ، فسلموا عليه وأبلغوه ما عندهم ، ثم انصرفوا إلى رحالهم ، فقام أحد الأربعة ، فحدث الرسول ما رأى ، فأعرض عنه ، وظن صحابه أنه لم يسمعه ، فتناوبوا الحديث واحداً بعد واحد فى معنى كلامه ، فلما فرغ الرابع من حديثه أقبل عليه رسول الله وقد تغير وجهه ، قال : « ما تريدون من على ؟ ما تريدون من على ؟ ما تريدون من على ؟ على منى وأنا منه ، وهو ولىّ كل مؤمن بعدى» .

وقال لأحدهم فى روايات أخرى : أتبغض علياً ؟ قال : نعم ، قال : لا تبغضه ، فإن له الخمس أكثر من ذلك ، أى أكثر من السبية التى اصطفاها . . . لا تبغضه وإن كنت تحبه فازدد له حباً .

وبعث رسول الله الإمام إلى اليمن فسأله جماعة من أتباعه أن يركبهم إبل الصدقة ليريحوا إبلهم ، فأبى ، فشكوه إلى رسول الله بعد رجعتهم ،

---

(١) عبقرية الإمام : للمرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد .

وتولى شكايته سعد بن مالك الشهيد ، فقال : يا رسول الله ؛ لقينا من على من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق . . . ومضى يعدّد ما لقيه ، حتى إذا كان فى وسط كلامه ضرب رسول الله على فخذه وهتف به : « يا سعد بن مالك بن الشهيد ، بعض قولك لأخيك على ؛ فوالله لقد علمت أنه جيش فى سبيل الله » . وشكا بعض الناس مثل هذه الشكوى فقام رسول الله فيهم خطيباً يقول لهم : « أيها الناس لا تشكوا علياً ، فوالله إنه لجيش فى ذات الله » .

إن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يحب علياً ويحببه إلى الناس .

سئلت السيدة عائشة : « أى الناس أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : فاطمة . فقيل من الرجال ، قالت زوجها ، إن كان ما علمت صوّاماً قوّاماً » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى على فجاء ، فقال له : « أنت سيد فى الدنيا وسيد فى الآخرة ، من أحبك فقد أحبنى ، وحبيبك حبيبى ، وحبيبى حبيب الله ، وعدوك عدوى ، وعدوى عدو الله ، طوبى لمن أحبك والويل لمن أبغضك » .

وعن عمار بن ياسر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يا على ، طوبى لمن أحبك وصدق فيك ، والويل لمن أبغضك وكذب فيك » .

وعن أنس بن مالك قال : « والله الذى لا إله إلا هو لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : عنوان صحيفة المؤمن من حب على بن أبى طالب » .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو اجتمع الناس على حب على بن أبى طالب لما خلق الله عز وجل النار» .

وعن أبى رافع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن على : « من أبغضه فقد أبغضنى ، ومن أبغضنى فقد أبغض الله ، ومن أحبه فقد أحبنى ، ومن أحبنى فقد أحب الله » .

ويقول الإمام عليه السلام : « مرضت فعادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل وأنا مضطجع ، فأتى إلى جنبى ، فسجانى بثوبه ، فلما رآنى قد ضعفت قام إلى المسجد يصلى ، فلما قضى صلاته جاء فرفع الثوب عنى ثم قال : قم يا على ، فقد برئت ، فقمت فكأنى ما اشتكيت فقال ما سألت ربى شيئاً إلا أعطانى وما سألت الله شيئاً إلا سألت لك » وهذا الحديث يبين لنا منتهى العطف وقصارى الحب .

الرسول كان يهتم بتدريب الإمام وكفالته :

كان النبى صلى الله عليه وسلم يحب علياً كما رأيت حباً عظيماً ، كما ذكرت كان أحب الناس إليه ، ويقول الأستاذ العقاد : إنه كان يمهد له سبيل الخلافة فى وقت من الأوقات ، ولكن على أن تختاره الناس

طواعية وحبًّا، لا أن يكون اختياره حقًّا من حقوق العصبية الهاشمية ، فإنه عليه السلام قد اتقى هذه العصبية جهد اتقائه ولم يحذ من خطر على الدين أشد من حذره أن يحسبه الناس سبيلا إلى الملك والدولة فى بنى هاشم ، وقد حرم نفسه الشريفة حظوظ الدنيا ، وأقصى معظم بنى هاشم عن الولاية والعمالة ، لينفى هذه الظنة ، ويدع الحكم للناس يختارون من يرضونه له بالرأى والمشيئة ، فالتزم فى التمهيد للإمام وسائل ملموحة لا تتعدى التدريب والكفالة ، فأرسله فى سرية إلى فدك لغزو قبيلة بنى سعد اليهودية ، وأرسله إلى اليمن للدعوة إلى الإسلام ، وأرسله إلى منى ليقرأ على الناس سورة براءة ويبين لهم حكم الدين فى حج المشركين وزيارة بيت الله ، وأقامه على المدينة حين خرج المسلمون إلى غزوة تبوك .

موقف الإمام على بعد وفاة الرسول

عندما توفى الرسول صلى الله عليه وسلم ذهل الناس ، وكانوا بين مصدق ومكذب ، حتى إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه صاح فى القوم : من قال إن محمداً قد مات ضربت عنقه ، إنه يكلم ربه كما فعل أخوه موسى من قبل . أما الصديق فكان حكيماً فقد قال : « يأيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، وتلا قوله تعالى : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفإِنْ مَات أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ) .

أما الإمام علىّ ومعه لفيف كبير من بنى هاشم وغيرهم ، فكانوا بجانب الجدث الشريف .

قال المفيد : ولم يحضر دفنه أكثر الناس لما جرى بين المهاجرين والأنصار من التشاجر فى أمر الخلافة ، وفات كثيراً منهم الصلاة عليه لذلك .

وفى هذا الوقت قال العباس لعلى : امدد يدك أبايعك ، فيقول الناس عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله ، فلا يختلف عليك اثنان ، فأجابه على ولم يرفع بصره عن الجثمان الكريم : لنا برسول الله يا عم شغل . وعكف على تجهيز الرسول وتكفينه لا يأبه بشيء من أمور الدنيا ولا تخرجه عما هو فيه دعوة القوم ليحضر مشاورتهم فى شأن الخليفة ولا فيمن يكون الخليفة .

ونترك الإمام عليًّا رضى الله عنه ومشغوليته فى تجهيز الرسول لنرى أن الناس انقسموا بعد وفاة الرسول إلى عدة أحزاب : حزب سعد ابن عبادة رئيس الخزرج ، حزب الشيخين وهم جل المهاجرين ، حزب علىّ وهم بنو هاشم ومعهم قليل من المهاجرين منهم الزبير وكثير من الأنصار ، ويقول الطبرى : إن أكثرهم أرادوا البيعة لعلى . ونضيف إلى هذه الأحزاب الثلاثة حزب عثمان من بنى أمية ، وحزب سعد ابن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف من بنى زهرة .

ومن رأى الإمام على أن ترشيح سعد بن عبادة جرأ الناس . ولا يبعد أن يكون سعد لما رأى تصميم المهاجرين على عدم إعطاء الحق لأهله طلبه لنفسه . ويقول ابن قتيبة فى روايته : إن سعداً قال لابنه قيس : « إنى لا أستطيع أن أسمع الناس كلامى لمرضى ، ولكن تلق منى قولى فأسمعهم » ، ففعل ، وذكر فضل الأنصار ونصرتهم الدين وإيواءهم الرسول ، وأنهم أحق الناس بهذا الأمر .

ويقول الطبرى : إنه لما بلغ أبا بكر أن الأنصار اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة ليبايعوا سعد بن عبادة جاء ومعه عمر وأبو عبيدة بن الجراح ، فقال الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ، فقال أبو بكر : منا الأمراء ومنكم الوزراء .

ويقول ابن قتيبة : فقام الحباب بن المنذر فقال : يا معشر الأنصار ، املكوا على أيديكم فإنما الناس فى فيئكم وظلالكم ، ولن يجير مجير على خلافكم ، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم ، أنتم أهل العز والثروة والعدد والنجدة ، وإنما ينظر الناس ما تصنعون ، فلا تختلفوا ، فيفسد عليكم رأيكم ، أنتم أهل الإيواء والنصرة ، وإليكم كانت الهجرة ، ولكم فى السابقين الأولين مثل ما لهم ، وأنتم أصحاب الدار والإيمان من قبلهم ، والله ما عبدوا الله علانية إلا فى بلادكم ، ولا جمعت الصلاة إلا فى مساجدكم ، ولا دانت العرب للإسلام إلا بأسيافكم ، فأنتم أعظم الناس نصيباً فى هذا الأمر ، وإن أبى القوم فنا أمير ومنهم أمير .

واشتد الخلاف ، فقام أبو عبيدة وقال : يا معشر الأنصار أنتم أول من نصر وآوى ، فلا تكونوا أول من يبدل ويغير . واشتدت المناقشة واشترك فيها بشير بن سعد (وهو والد النعمان بن بشير) ، وعمر ، وأبو عبيدة ، وأبو بكر . وأخيراً انتهت الأزمة كما يقول الطبرى : « فقال أبو بكر : هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا ، فقالا : لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، ابسط يدك نبايعك . وبذلك تمت

البيعة للصديق ، وبايعه جميع المسلمين ما عدا بنى هاشم ، أو على الأحرى العباس وأولاده وعلى الذى لم يبرح دار الرسول حتى وسده مثواه الأخير ، وهو يبكي ويقول : « إن الصبر جميل إلا عنك يا رسول الله ، وإن الجزع لقبيح إلا عليك ، وإن المصاب بك لجليل وإنه قبلك وبعدك لجلل » .

وانصرف علىّ غاضباً من الصورة التى تمت بها البيعة ، لأنه كان يعتقد أنه أحق بها من غيره ، وجاءه أبو بكر يحف به عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح ، ودعاه إلى البيعة فأبى ، وخرج الزبير بسيفه .

وقال عمر : عليكم بالرجل فخذوه ، فأخذوا منه السيف .

فقال له : ابن عم رسول الله وختنه على ابنته يريد أن يشق عصا المسلمين .

وقال العباس : ما أحد أولى بمقام رسول الله منه .

قال على : أنا أحق بهذا الأمر منكم ، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لى . أخذتم هذا الأمر من الأنصار ، واحتججتم عليه بالقرابة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وتأخذونه منا أهل البيت غصباً ، ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم ، لما كان محمد منكم ، فأعطوكم المقادة ، وسلموا إليكم الإمارة ، فإذا احتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار ، نحن أولى برسول الله حياً وميتاً ، فأنصفونا إن كنتم تؤمنون وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون .

عمر : إنك لست متروكاً حتى تبايع .

على : احلب حلباً لك شطره وشد له اليوم يردده عليك غداً .

أبو عبيدة : يابن عم ، إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك ، وأشد احتمالا واستطلاعاً ، فسلم لأبى بكر هذا الأمر . فإنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق ، فى فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك .

على الله الله يا معشر المهاجرين ؛ لا تخرجوا سلطان محمد فى العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم ، وتدفعوا أهله عن مقامه فى الناس وحقه ، فو الله يا معشر المهاجرين انحن أحق الناس به لأنا أهل البيت ونحن أحق بهذا الأمر منكم فاعتذر إليه أبو بكر بخوف الفتنة لو أخر . ثم أشرف على الناس وقال أيها الناس ، هذا على بن أبى طالب لا بيعة لى فى عنقه ، وهو بالخيار من أمره ، ألا وأنتم بالخيار جميعاً فى بيعتكم . فإن رأيتم لها غيرى فأنا أول من يبايعه . فلما سمع ذلك الإمام على زال ما كان قد داخله وصغت نفسه فقال : « أجل ، لا نرى غيرك امدد يدك » . فبايعه هو والنفر الذين كانوا معه .

وهناك رواية ذكرها اليعقوبى وذكرها غيره من المؤرخين ، هى أن جماعة من المهاجرين والأنصار اجتمعوا مع على بن أبى طالب

فى دار فاطمة بنت رسول الله يدعون إلى مبايعته ، وبينهم خالد بن سعيد يقول : « فوالله ما فى الناس أحد أولى بمقام محمد منك » ، وبلغ أبا بكر وعمر اجتماعهم بدار السيدة الزهراء ، فأتيا فى جماعة حتى هجموا الدار ، وخرج علىٌّ ومعه السيف . فلقيه عمر فصارعه فصرعه . وكسر سيفه ، ودخلوا الدار ، فخرجت فاطمة رضى الله عنها وقالت « لتخرجن أو لأكشفن شعرى ولأعجنّ إلى الله » ، فخرجوا وخرج من كان فى الدار . وأقام القوم أياماً . ثم جعل الواحد بعد الواحد يبايع ، ولم يبايع على إلا بعد وفاة فاطمة أى بعد ستة أشهر . وقيل فى رواية إنه بايع بعد أربعين يوماً .

وروى الطبرى فى تاريخه قال « أتى عمر بن الخطاب منزل على وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين . فقال والله لأحرقن عليكم أو لتخرجن إلى البيعة ، فخرج عليه الزبير مصلتاً بالسيف فعثر . فسقط السيف من يده فوثبوا عليه فأخذوه

وفى رواية أخرى أن عمر قال لعلى : إن لم تبايع أبا بكر لأحرقن دارك . قال على : أو تحرقها وفيها ابنة رسول الله ؟ قال أحرقها وفيها ابنة رسول الله . وفى ذلك يقول شاعر النيل حافظ إبراهيم :

وقولة لعلى قالهـــا عمر — أكرم بسامعها أنعم بملقيها
حرقت دارك لا أبقى عليك بها — إن لم تبايع وبنت المصطفى فيها
ما كان غير أبى حفص يفوه بها — أمام فارس عدنان وحاميها

فاذكرهما وترحم عند ذكرهما أعاظم ألهوا فى الكون تأليها

هذا هو المشهور عن موقف على بن أبى طالب من بيعة أبى بكر ، وينكر بعض المؤرخين هذا المشهور من تخلف بنى هاشم أو غيرهم من المهاجرين ، ويذكرون أن أبا بكر بويع بعد السقيفة بالإجماع . ويروى الطبرى حديثاً بإسناده أن سعيد بن زيد سئل : أشهدت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قيل : فمتى بويع أبو بكر ، قال : يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا فى جماعة ، قيل : أخالف عليه أحد ؟ قال لا ، إلا مرتد أو من قد كاد أن يرتد . لولا أن الله عز وجل ينقذهم من الأنصار ، قيل : فهل قعد أحد من المهاجرين قال : لا ، تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم .

وفى رواية أن على بن أبى طالب كان فى بيته إذ جاءه من أنبأه أن أبا بكر قد جلس للبيعة فخرج فى قميص له ما عليه إزار ولا رداء عجلا كراهية أن يبطئ عنها حتى بايعه ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتحلله ولزم مجلسه .

وهناك رواية أخرى تقول إن الصديق صعد المنبر عقب البيعة فنظر فى وجوه القوم فلم ير الزبير فدعا به فجاء ؛ فقال له : ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحواريه ، أردت أن تشق عصا المسلمين . فقال :

لا تثريب يا خليفة رسول الله . فقام فبايعه . ثم نظر فى وجوه القوم فلم ير عليًّا فدعا به فجاء . فقال له : ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته ، أردت أن تشق عصا المسلمين . فقال : لا تثريب يا خليفة رسول الله ، فقام فبايعه .

ورواية أخرى أنه بعد وفاة السيدة الزهراء بستة أشهر أرسل الإمام إلى أبى بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد ، وتلقاه وعنده بنو هاشم فقال : « إنه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر إنكار افضيلتك ، ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك ، ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقًّا فاستبددتم به علينا » .

والذى لا شك فيه أن الإمام كان يرى أنه أحق بالخلافة من سابقيه ، وأنه لم يزل مدفوعاً عن حقه هذا منذ انتقل النبى عليه السلام إلى الرفيق الأعلى .

ومع هذا اليقين الراسخ عنده فى حقه وحق غيره نرجع إلى سيرته وأحاديثه فنرى ولا ريب أنها أقل ما تشعر به النفس الإنسانية فى هذه الحالة من النفرة ، والنقمة ، ولا نجد فى خطبه ومساجلاته التى ذكر فيها أبو بكر وعمر وعثمان كلمة تستغرب من مثله أو يتجاوز بها حد الحجة التى تنهض بحقه ، بل الغريب أنه لزم هذا الحد ولم يجاوزه إلى جمحة غضب تفلت معها بوادر اللسان ، ولو جاوزه لكان عاذروه أصدق من لائميه .

وقد أعان الخلفاء الثلاثة برأيه وعمله ، وجاملهم مجاملة كريمة بمسلكه ومقاله ، ولم يبد منه قط ما ينم على كراهية وضغن مكتوم ، ولكنه كان يأنف أن ينكر هذه الكراهية إذا رمى بها كما يأنف العزيز الكريم ، وفى ذلك يقول لمعاوية : « ذكرت إبطائى عن الخلفاء وحسدى إياهم والبغى عليهم ، فأما البغى فمعاذ الله أن يكون ، وأما الكراهة لهم فو الله ما أعتذر للناس من ذلك » .

وأولى أن يقال إن دلائل وفائه فى حياتهم وبعد ذهابهم كانت أظهر من دلائل جفائه ، فإنه احتضن ابن أبى بكر محمداً أو كفله بالرعاية ، ورشحه للولاية حتى حسب عليه ، وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله ، وقد سمى ثلاثة من أبنائه بأسماء الخلفاء الذين سبقوه ، وهم أبو بكر وعمر وعثمان .

بقى أن نقول إن بعض المؤرخين قد أحصى على الإمام أن الخلافة قد تأخرت نيفاً وعشرين سنة ، فلم يخلف النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يخلف أبا بكر وعمر . ويسارع العلامة الأستاذ عباس العقاد فى الإجابة عن هذا بأن نرجع إلى العوائق التى حالت بينه وبين الخلافة قبل وصولها إليه ، لنعلم منها العائق الذى كان فى أيدى الحوادث والعائق الذى كان فى يديه أو كانت له قدرة معقولة عايه .

فكما رأيت أن الإمام أنكر إجحافاً أصابه فى تخطيه بالبيعة إلى غيره بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه كان يرى أن قرابته

من النبي مزية ترشحه للخلافة بعده ، لأنها فرع من النبوة على اعتقاده ، ومما لا شك فيه أن شعوره هذا طبيعي فى النفس الإنسانية كيفما كان حظها من الزهد والقناعة ، لأن تخطيه مع هذه المزية التى ترشحه للبيعة ، يشبه أن يكون قدحاً فى مزاياه الأخرى من علم وشجاعة ، وسابقة جهاد ، وعفة عن المطامع ، أو يشبه أن يكون كراهة له وممالأة على الغض من قدره ، ولم يزل من غرائز النفوس أن يسوءها القدح فيها ، والحط من مزاياها ، ومواجهتها بالنفرة والكراهة ، إلا أن الخلافة الإسلامية مسألة عالمية لا توزن بميزان واحد ، ولا يؤتم فيها برأى واحد ولا بحق واحد ، وقد يضحى فى سبيلها بالعظيم والعظماء الكثيرين إذا تعارضت الحقوق وتشعبت الآراء ، ويشاء القدر أن تكون المزية الأولى فى ميزان علىّ هى العائق الأول فى سائر الموازين ، ومنها ميزان النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد كان عليه السلام يأبى أن يثير العصبيات فى قريش وفى القبائل العربية عامة ، لعلمه بخطر هذه العصبية على الدعوة الجديدة ، وكراهته أن يصور الإسلام للعرب كأنه سيادة هاشمية تتوارثها عنه عصبة هاشم دون العصب من سائر العرب والمسلمين ، وقد رضى فى سبيل هذا المقصد الحكيم أن يجعل بيت أبى سفيان صنواً للكعبة فى أمان اللاجئين إليه ، وأصهر إلى أبى سفيان ، وندب ابنه معاوية للكتابة له بين النخبة المختارة من كاتبيه ، وربما حسن لديه أن تؤول الخلافة إلى على بعده إذا شاء المسلمون ذلك ، ولكن على

أن تكون خلافته اختياراً مرضياً ، كاختيار غيره من أنصاره ، وأصحابه ، ويستوى منهم القريب والبعيد . وقد بينت ذلك سابقاً .

أما العائق الثانى فيرى بعض المؤرخين أن قريشاً كانت تحقد على الإمام وتنحيه عن الخلافة لعلة أخرى تقترن بها العصبية التى أوقعت التنافس بين بيوتها وبنى هاشم ، فقد بطش الإمام بنفر من جلة البيوت القرشية فى حروب المسلمين والمشركين ، وقتل من أعلام بنى أمية وحدهم عتبة بن ربيعة جد معاوية[١] ، والوليد بن عتبة خاله ، وحنظلة أخاه ، وجميعهم من قتلاه فى يوم بدر عدا من قتلهم فى الوقائع والغزوات الأخرى ، فحفظ أقاربهم له هذه الترات بعد دخولهم فى الإسلام ، وزادهم حقداً عليه أنهم لا يملكون الثأر منه لقتلاهم من الكفار ، وكانت حاله بعد تلك المدة كما قال ابن أبى الحديد : «كأنها حالة لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة ابن عمه من إظهار ما فى النفوس ، وهيجان ما فى القلوب ، حتى الأخلاف من قريش والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا وقائعه وفتكاته فى أسلافهم وآبائهم ، فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله » .

وقد علم الإمام هذا من قريش عندما يئس من مودتها وابتلى بالصريح

---

(١) وفى ذلك قال الإمام لمعاوية : « وعندى السيف الذى أعضضت به أخاك وخالك وجدك يوم بدر» . وقيل إن الإمام قتل ببدر ٣٥ رجلا من المشركين ، ومنهم العاص بن سعيد بن العاص الأموى .

والدخيل من كيدها فقال : « مالى ولقريش ؟ أما والله لقد قتلتهم كافرين ولأقتلنهم مفتونين ، والله لأبقرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته ، فقل لقريش فلتضج ضجيجها » .

أما الذين سبقوا الإمام إلى الخلافة فهم : أبو بكر وعمر وعثمان ، وهم من شيوخ الصحابة ، فإذا خرجت العصبية الهاشمية من مجال الترجيح كانوا هم أقرب الناس إلى أن يختارهم المسلمون ، وذلك للسن ، فعند وفاة الرسول صلى الله عليه وعلم كانت سن الإمام لا تتجاوز الثلاثين ، وإن كان فارق السن قد تقارب بعد موت الفاروق ، فقد بلغ الإمام الخامسة والأربعين ، ولكن ما كاد الإمام يبلغ هذه السن حتى بدأت المطامع الدنيوية تزداد ، واعتقد الطامعون أن فى لين عثمان بعض الأمل وفضلوا هذا على شدة الإمام ، وعسر حسابه ، وزيادة على ذلك بقيت الجفوة بينه وبين قريش على حالها ، لم يكفكف منها تقادم العهد ، كما قال ابن أبى الحديد .

هذه هى العوائق التى صادفته بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهل كان الإمام مستطيعاً أن يخلف أحداً بعد وفاة الرسول بعمل من جهده وسعى من تدبيره ، فأعياه السعى والتدبير ، فلم يكن الإمام مسئولا عن نظرة العصبية التى نظرت بها قريش إلى السيادة الهاشمية ، كذلك هو غير مسئول عن سنه التى تأخرت به عن الوصول إلى الخلافة ، ولو كان فى زماننا هذا لكانت عقبة السن ميزة تؤهله لتولى الخلافة .

بيعة الإمام علىّ

فى أواخر عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وعندما ساءت الحالة ، جمع الخليفة بعض وزرائه للتشاور فى إصلاح الحال ، ولم يكن الإمام على رضى الله عنه بين المدعوين ، بل كان المدعوون إلى الاجتماع من مخالفيه وهم : معاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن أبى سرح وعبد الله بن عامر ، وهم الولاة الذين شكاهم على وجمهرة الصحابة ، قال لهم الخليفة الثالث : « إن لكل امرئ وزراء ونصحاء ، وإنكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى ، وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا إلى أن أعزل عمالى ، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون ، فاجتهدوا رأيكم وأشيروا علىّ » .

وكان رأيهم جميعاً رأياً فيه الغرض والمصلحة الشخصية . ولننظر إلى المحاورة التى دارت ، وإلى التناقض فى كلام عمرو بن العاص كنموذج لما كان يجرى فى هذا الاجتماع .

قال عمرو بن العاص وهو بين السخط على ولاية فاتها ، والطمع فى ولاية يرجوها : « أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون ، فاعتزم

أن تعدل ، فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل ، فإن أبيت فاعتزم عزماً وامض قدماً » .

ثم اسمع إلى قوله بعد أن تفرق المجتمعون وانفرد بالخليفة وحده ، وقال : « والله يا أمير المؤمنين لأنت أعز على من ذلك ، ولكنى علمت أنه سيبلغ الناس قول كل رجل منا فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا ، فأقود إليك خيراً ، وأدفع عنك شراً . . » .

هذا هو جو الاجتماع الذى عقد عند الخليفة ، وهؤلاء هم الوزراء ، ومن ورائهم مروان بن الحكم ، وهو كفيل بأن يمنع كل ناصح أمين عن الخليفة ، وفى مقدمتهم الإمام على رضى الله عنه .

وتطورت الحالة من سيئ إلى أسوأ ، وكانت ثورة ، وكان الثوار قد وفدوا إلى المدينة المنورة من مصر والكوفة والبصرة ، وبلغ السيل الزبى ، كما قال عثمان رضى الله عنه ، فكتب إلى علىّ يذكر له ذلك ويقول : « إن أمر الناس ارتفع فى شأنى فوق قدره ، وزعموا أنهم لا يرجعون دون دمى ، طمع فىّ من لا يدفع عن نفسه .

فإن كنت مأكولا فكن خير آكلى وإلا فأدركنى ولما أمزق »

وانتهت الثورة على الخليفة الثالث رضى الله عنه بمقتله ، ولم يرحمه الثوار ، وحاصروه فى داره أربعين يوماً ، ولن نتعرض فى هذه العجالة إلى الأسباب التى أدت إلى قتله ، ولكن الثوار لم يذكروا له أياديه البيضاء

على الإسلام والمسلمين ، ولم يذكروا له أن جيوشه صانت هيبة الدولة الإسلامية بعد مقتل الفاروق عمر ، ولم يذكروا له أنه جمع المصحف الشريف على ترتيبه الحالى .

وعندما نقل الخبر إلى المسجد ، وفيه كان على جالساً فى نحو عشرة من المصلحين راعه منظر القادم وسأله : ويحك ! ما وراءك ؟ قال : والله لقد فرغ من الرجل ، فصاح به : تبًّا لكم آخر الدهر ! وأسرع إلى دار الخليفة المقتول فلطم الحسن وضرب الحسين وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وجعل يسأل ولديه : كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب ؟ فأجاب طلحة : لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن ، لو دفع مروان ما قتل ، ولكنها الفتنة ، وكان من رأى الإمام على أن يقاتل دفاعاً عن الخليفة المحصور . واستأذن أمير المؤمنين عثمان فى القتال ولكنه رفض خشية أن تقوم بين المسلمين حرب أهلية ، فآثر أن يضحى بنفسه ولا يكون سبباً فى حرب شعواء . واجتمع المهاجرون والأنصار ، ومعهم الثوار وبقية الجماهير ، ومن بينهم طلحة والزبير ، فهرعوا إلى الإمام على وهو معتزل فى داره ، فأحاطوا به من كل جانب ، وقالوا له : « يا أبا الحسن إن هذا الرجل قد قتل ، ولا بد للناس من إمام ، ولا نجد اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك ، لا أقدم سابقة ، ولا أقرب قرابة من رسول الله ، فقال الإمام : لا حاجة لى فى أمركم ، فمن اخترتم رضيت به ، ولا تريدونى ، فإنى لكم وزيراً خير لكم منى

أميراً . فقالوا : والله لا نعلم أحداً أحق بها منك ، وما نختار غيرك . فقال الإمام : دعونى والتمسوا غيرى » . ثم أعرب لهم عن السر فى توقفه فى قبول الخلافة قائلا : « أيها الناس ، إنا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان لا تقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول » . وقال أيضاً : « إنى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، وإن تركتمونى فإنما أنا كأحدكم . ألا وإنى من أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه » ويصف أمير المؤمنين على ابن أبى طالب إصرار المجتمعين على بيعته وإقبالهم عليه بقوله « فما راعنى إلا والناس كعرف الضبع[1] ينثالون على من كل جانب . حتى لقد وطئ الحسنان وشق عطفاى[2] مجتمعين حولى كربيضة الغنم »[3]

وأخيراً قال لهم : « إن بيعتى لا تكون سراً ، ولكن ائتوا إلى المسجد ، فمن شاء أن يبايعنى بايعنى» . وخرج إلى المسجد فبايعه الناس ، وكان أول من بايعه طلحة بن عبد الله ، فنظر إليه رجل يعتاف يقال له حبيب بن ذؤيب فقال : « إنا لله وإنا إليه راجعون ! أول يد بايعت يد شلاء ، لا يتم هذا الأمر» . وسرعان ما نكث بها العهد ، ثم الزبير ، ثم بقية الناس من المهاجرين والأنصار

---

(١) عرف الضبع : الشعر الكثير الذى يكون على عنق الضبع ، يضرب به المثل فى الكثرة والازدحام .

(٢) شق عطفاى : المراد به خدش جانبيه من كثرة زحام الناس عليه من أجل البيعة .

(٣) ربيضة الغنم الطائفة الرابضة من الغنم .

والرواة مختلفون فى بيعة الإمام بعد قتل الخليفة ، فقوم يقولون إن عليًّا بويع إثر قتل عثمان مباشرة ، وقيل إن المدينة ظلت أياماً وليس للناس فيها خليفة . وإنما يدبر أمورهم فيها الغافقى بن حرب ، أحد زعماء الثورة ، على أنه قد تمت البيعة للإمام فى المدينة بعد مقتل عثمان بخمسة أيام فى رواية . وبثمانية أيام فى روايات أخرى .

وقد عمت المسرة جميع المسلمين ، وقد وصف الإمام مدى سرور الناس ببيعته بقوله «وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياى أن ابتهج بها الصغير ، وهدج إليها الكبير . وتحامل نحوها العليل ، وحسرت إليها الكعاب» .

والخلاصة أن البيعة جاءت إلى أمير المؤمنين منقادة راغمة ، ولم يكن غيره يصلح لها . ولذلك كان كرم الله وجهه صادقاً كل الصدق حين قال : «إن العامة لم تبايعنى لسلطان غالب ولا لعرض حاضر» . ومن العجيب أن يتهم معاوية الإمام عليًّا بقتل عثمان رضى الله عنه وقد بذل كل جهد مستطاع فى نصرته وحمايته ، حتى إنه عهد إلى ولديه الحسن والحسين أن يقفا مدافعين عنه بسيفهما مع أنه كان يضن بهما خشية أن ينقطع بموتهما نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأرض ، ولم يحرك معاوية ساكناً فى نصرة عثمان عليه السلام ، وكان معاوية متمكناً فى ولايته بالمال والرجال ، وكان حاضراً الاجتماع الذى عقده أمير المؤمنين عثمان من وزرائه ومستشاريه للتفكير فى طلب الثوار .

حـروب الإمـام علىّ

المأسـاة الأولى

حرب الجمل :

جاء فى شرح النهج أنه لما قتل سيدنا عثمان رضى الله عنه كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بمكة ، ووصلها خبر قتله وهى بسرف ، فلم تشك فى أن طلحة هو صاحب الأمر ، وقالت : « بعداً لعثمان وسحقاً ! إيه ذا الأصبع ! إيه أبا شبل ! إيه يا بن عم ! لكأنى أنظر إلى أصبعه وهو يبايع له ، حثُّوا الإبل ودعدعوها » .

وفى قول آخر أن السيدة أم المؤمنين لما بلغها قتل الخليفة وهى بسكة أقبلت مسرعة وهى تقول ! إيه ذا الأصبع !لله أبوك ! أما إنهم وجدوا طلحة لها كفئاً . فلما انتهت إلى سرف استقبلها عبيد بن أبى سلمة الليثى ، فقالت له : ما عندك ؟ قال : قتل عثمان ، قالت : ثم ماذا ؟ قال : ثم حارت بهم الأمور إلى خير محار ، بايعوا عليًّا . فقالت : لوددت أن السماء انطبقت على الأرض إن تم هذا ، ويحك ! انظر ماذا تقول ، قال : هو ما قلت لك يا أم المؤمنين ، قيل : فولولت . فقال لها : ما شأنك يا أم المؤمنين ، والله ما أعرف بين لابتيها أحداً أولى بها منه ،

ولا أحق ، ولا أرى له نظيراً فى جميع حالاته ، فلماذا تكرهين ولايته ؟ قال : فما ردت علىّ جواباً .

ويقول الطبرى فيما رواه بسنده وذكره ابن الأثير أيضاً : « فلما كانت أم المؤمنين بسرف لقيها رجل من أخوالها من بنى ليث ، يقال له عبيد بن أبى سلمة ، فسألته ، فقال : قتل عثمان وبقوا ثمانياً قالت : ثم صنعوا ماذا ؟ قال أخذها أهل المدينة بالاجتماع ، فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز ، اجتمعوا على بيعة علىّ ، فقالت : ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك . ردونى ردونى . فانصرفت إلى مكة وهى تقول : قتل والله عثمان مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه . فقال لها : ولم والله ؟ إن أول من أمال حرفه لأنت ، ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد كفر ! قالت : إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولى الأخير خير من قولى الأول . وقيل إن ابن أم كلاب قال :

فمنك البداء ومنك الغير ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا إنه قد كفر
فهبنا أطعناك فى قتله وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ولم تنكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرإ يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب أثوابها وما من وفى مثل من قد غدر

ودخلت مكة وقصدت الحجر فسترت فيه ، فاجتمع الناس حولها ، فقالت :

« أيها الناس ، إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة ، اجتمعوا على هذا الرجل المتقول ظلماً بالأمس ، ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه ، وقد استعمله أمثالهم قبله . ومواضع من الحمى حماها لهم فتابعهم ونزع لهم عنها فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً بادوا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام وأخذوا المال الحرام ، والله لأصبع من عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ، ووالله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه ، إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء » .

فقال عبد الله بن عامر الحضرمى — وكان عامل عثمان على مكة — هأنذا أول طالب . فكان أول مجيب ، وتبعه بنو أمية على ذلك . وروى الطبرى عن عبيد بن عمر القرشى قال : قدم عليها فى مكة رجل يقال له أخضر ، فقالت ما صنع الناس ؟ فقال قتل عثمان المصريين! قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون . أيقتل قوماً جاءوا يطلبون الحق وينكرون الظلم ، والله لا نرضى بهذا .

وطلب طلحة والزبير من على أن يوليهما المصرين البصرة والكوفة ، فقال : بل تقيمان معى ، فإنى لا أستغنى عن رأيكما ، وقيل استشار ابن عباس فلم يشر به ، قال ابن أبى الحديد : فاستأذناه فى العمرة ، فقال لهما : ما العمرة تريدان ، وإنما تريدان الغدرة ونكث البيعة ،

فحلفا بالله ما الخلاف عليه ولا نكث البيعة يريدان ، وما رأيهما غير العمرة ؛ قال : فأعيدا البيعة لى ثانية . فأعاداها بأشد ما يكون من الإيمان والمواثيق ، فأذن لهما ، فلما خرجا قال : والله لا ترونهما إلا فى فتنة يقتلان فيها ! قالوا : يا أمير المؤمنين فر بردهما عليك . قال ليقضى الله أمراً كان مفعولا .

وقدم طلحة والزبير من المدينة ، فلقيا عائشة فقالت : ما وراءكما ؟ نقالا : إنا تحملنا هراباً من المدينة من غوغاء وأعراب ، وفارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلا ، ولا يمنعون أنفسهم ، فأمرتهم عائشة بالخروج إلى المدينة ، فقالوا : نأتى الشام ، فقال ابن عامر قد كفاكم الشام معاوية ، فأتوا البصرة ، فإن لى بها صنائع ولهم فى طلحة هوى .

وعن المفيد فى كتاب الاختصاص « لما صممت عائشة على الخروج إلى البصرة أتت أم سلمة ، وكانت بمكة ، فقالت : يابنة أبى بكر ، كنت كبيرة أمهات المؤمنين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قمأ فى بيتك ، وكان يقسم لنا فى بيتك ، وكان ينزل عليه الوحى فى بيتك . . لقد زرتنى وما كنت زوارة . . . قالت : إن ابنى وابن أختى (عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبى بكر) أخبرانى أن الرجل قتل مظلوماً ، وأن با لبصرة

مائة ألف سيف يطاوعون ، فهل لك أن أخرج أنا وأنت لعل الله يصلح بنا بين فئتين متناجزتين ، أو قالت متناحرتين ؟

فقالت أم سلمة : لو ذكرتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً فى على لنهشت بها نهش الرقشاء المطرقة ذات الحبب (الخبث) ، أتذكرين إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرع بين نسائه إذا أراد سفراً ، فأقرع بينهن ، فخرج سهمى وسهمك ، فبينا نحن معه ، وهو هابط من قديد ومعه علىّ يحدثه ، فذهبت لتهجمى عليه ، فقلت لك : رسول الله معه ابن عمه ، ولعل له إليه حاجة ، فعصيتنى ، ورجعت باكية ، فسألتك ، فقالت : إنك هجمت عليهما ، فقلت له : يا على إنما لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم من تسعة أيام ، وقد شغلته عنى ، فأخبرتنى أنه قال لك : أتبغضينه ؟ فما يبغضه أحد من أهلى ولا من أمتى إلا خرج من الإيمان ! أتذكرين هذا يا عائشة ؟ قالت : نعم ، قالت : ويوم أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم سفراً وأنا أحش له حشيشاً ، فقال « ليت شعرى ! أيتكنّ صاحبة الجمل الأدبب[1] ، تنبحها كلاب الحوأب ؟ » ، فرفعت يدى من الحشيش ، وقلت : أعوذ بالله أن أكونها فقال : « والله لا بد لإحداكن أن تكونها اتقى الله يا حميراء أن تكونيها » . أتذكرين هذا يا عائشة ؟ !

---

(١) الأدبب : الكثير وبر الوجه . وفك الإدغام لمناسبة الحوأب .

قالت نعم .

قالت : ويوم تبدّلنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلبست ثيابى ، ولبست ثيابك ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس إلى جنبك ، فقال : « أتظنين يا حميراء أنى لا أعرفك ؟ ! أما إن لأمتى منك يوماً مرًّا ، أو يوماً أحمر » . أتذكرين هذا يا عائشة ؟ قالت : نعم .

قالت : ويوم كنت أنا وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء أبوك وصاحبه يستأذنان فدخلنا الخدر ، فقالا : « يا رسول الله ، إنا لا ندرى قدر مقامك فينا ، فلو جعلت لنا إنساناً نأتيه بعدك » .

قال : أما إنى أعرف مكانه ، وأعلم موضعه ، ولو أخبرتكم به لتفرقتم عنه كما تفرقت بنو إسرائيل عن عيسى بن مريم .

فلما خرجا خرجت إليه أنا وأنت ، وكنت جريئة عليه ، فقلت : من كنت جاعلا لهم ؟ فقال : خاصف النعل . وكان على بن أبى طالب يصلح نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تخرقت ، ويغسل ثوبه إذا اتسخ ؛ فقلت : ما أرى إلا عليًّا . فقال: هو ذاك أتذكرين هذا يا عائشة ؟ قالت نعم . ما أقبلنى لوعظك ، وأسمعنى لقولك ! فإن أخرج فنى غير حرج ، وإن أقعد فنى غير بأس .

فخرج رسولها فنادى فى الناس : من أراد أن يخرج فإن أم المؤمنين

غير خارجة . فدخل عليها عبد الله بن الزبير فنفث فى أذنها ، وفتلها فى الذروة والغارب فخرج رسولها ينادى : من أراد أن يسير فليسر فإن أم المؤمنين خارجة ، فلما كان من ندمها أنشأت أم سلمة تقول[١]:

لو كان معتصماً من زلة أحد　　كانت لعائشة الرتبى على الناس
كم سنة لرسول الله ذاكرة　　وتلو آى من القرآن مدراس
قد ينزع الله من قوم عقولهم　　حتى يكون الذى يقضى على الناس
فيرحم الله أم المؤمنين لقد　　كادت تبدل إيحاشاً بإيناس

فقالت لها عائشة : « شتمتنى يا أخت » .

فقالت لها أم سلمة : « ولكن الفتنة إذا أقبلت غطت على البصيرة، وإذا أدبرت أبصرها العاقل والجاهل »[٢].

وطلبوا من حفصة المسير معهم إلى البصرة فأجابتهم، فمنعها أخوها عبد الله بن عمر ، وجهزهم يعلى بن أمية بستمائة بعير وستمائة ألف درهم كانت معه ، وجهزهم ابن عامر بمال كبير .

ويقول ابن الأثير :

وناد مناديها أن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة، فمن

---

(١) روى الطبرسى فى الاحتجاج محاورة أم سلمة مع أم المؤمنين بطريق آخر ، كما أورد الصادق عليه السلام الأبيات بتفاوت .

(٢) أورد ابن أبى الحديد فى شرح النهج هذه المحاورة .

أراد إعزاز الإسلام وقتال المحلين والطلب بثأر عثمان، وليس له مركب وجهاز فليأت ، فحملوا ستمائة على ستمائة بعير . وأعطى يعلى بن أمية عائشة جملاً اسمه عسكر اشتراه بثمانين ديناراً فركبته ، وساروا فى ستمائة ، وقيل تسعمائة ، وقيل ألف من أهل المدينة ومكة ، ولحقهم الناس ، فكانوا فى ثلاثة آلاف رجل ، ومعهم أبان والوليد ابنا عثمان ومروان ابن الحكم وسائر بنى أمية . ويقول الطبرى :

وأمّرت على الصلاة عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ، فكان يصلى بهم فى الطريق وبالبصرة حتى قتل . قال : فتركت الطريق ليلة ، ثم أتوا البصرة فى عام خصيب وتمثلت :

دعى بلادَ جموع الظلم إذ صلُحت فيها المياهُ وسيرى سيرَ مذعورِ
تخيرى النبت فارعى ثَم ظاهرةً وبطن واد من الضمّار ممطور

وروى الطبرى بسنده عن المغيرة بن الأخنس ، قال : لقى سعيد بن العاص مروان بن الحكم وأصحابه بذات عرق ، فقال : أين تذهبون وثأركم على أعجاز الإبل ؟ قال ابن الأثير : يعنى عائشة طلحة والزبير . اقتلوهم ثم ارجعوا إلى منازلكم ، لا تقتلوا أنفسكم ، قالوا: بل نسير فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً . وإلى ذلك يشير مهيار :

وللقتيـــل يلزمون دمـــه وفيهم القاتل غير من قتل

فخلا سعيد بطلحة والزبير فقال : إن ظفرتما فلمن تجعلان الأمر ؟ قالا : لأحدنا ، أينا اختاره الناس ، قال : بل اجعلوه لولد عثمان ،

فإنكم خرجتم تطلبون بدمه ، قالا : ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم ، قال : فلا أرانى أسعى لأخرجها من بنى عبد مناف ، فرجع ورجع معه جماعة . يقول الطبرى : وتبعها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق ، فبكوا على الإسلام ، فلم ير يوم كان أكثر باكياً وباكية من ذلك اليوم ، فكان يسمى يوم النحيب .

وفى المفيد : أنه لما بلغ عليًّا عليه السلام نكث طلحة والزبير بيعته ، واجتماعهما مع عائشة على التأليب عليه ، خطب بالمدينة فقال : « أما بعد فإن الله بعث محمداً للناس كافة ، وجعله رحمة للعالمين ، فصدع بما أمر به ، وبلغ رسالات ربه ، فلمّ به الصدع ، ورتق به الفتق ، وآمن به السبل ، وحقن به الدماء ، وألف به بين ذوى الإحن والعداوة والوغر فى الصدور والضغائن الراسخة فى القلوب ، ثم قبضه الله إليه حميداً ، وكان من بعده ما كان من التنازع فى الإمرة ، فتولى أبو بكر ، وبعده عمر ، ثم تولى عثمان ، فلما كان من أمره ما عرفتموه أتيتمونى فقلتم : بايعنا ، فقلت : لا أفعل ، فقلتم : بلى ، فقلت : لا ، وقبضت يدى فبسطتموها ، ونازعتكم فجذبتموها حتى تداككتم علىّ تداكّ الإبل الهيم على حياضها يوم وردها ، حتى ظننت أنكم قاتلى ، وأن بعضكم قاتل بعضاً ، فبسطت يدى فبايعتمونى مختارين ، وبايعنى فى أولكم طلحة والزبير طائعين غير مكرهين ، ثم لم يلبثا أن استأذنانى فى العمرة ، والله يعلم أنهما أرادا الغدرة ، فجددت عليهما العهد فى

لطاعة وألا يبغيا الأمة الغوائل فعاهدانى ، ثم لم يفيا لى . ونكثا بيعتى ، نقضا عهدى ، فعجباً لهما من انقيادهما لأبى بكر وعمر وخلافهما لى ، لست بدون أحد الرجلين ، ولو شئت أن أقول لقلت ، اللهم احكم عليهما بما صنعا فى حقى وصغرا من أمرى .

وفى شرح النهج أن علياً خطب — لما سار الزبير وطلحة من مكة معهما عائشة يريدون البصرة — فقال « أيها الناس إن عائشة سارت لى البصرة ومعها طلحة والزبير ، وكل منهما يرى الأمر له دون صاحبه ، ما طلحة فابن عمها ، وأما الزبير فختنها ، والله لو ظفروا بما أرادوا — ن ينالوا ذلك أبداً — ليضربن أحدهما عنق صاحبه بعد تنازع فيهما لديد . والله إن راكبة الجمل الأحمر ما تقطع عقبة ولا تحل عقدة لا فى معصية الله وسخطه حتى تورد نفسها ومن معها موارد الهلكة ، ى والله ، ليقتلن ثلثهم ، وليهربن ثلثهم ، وليتوبن ثلثهم ، وإنها التى بحها كلاب الحوأب ، وإنهما ليعلمان أنهما مخطئان ، ورب عالم له جهله ومعه علمه لا ينفعه ، حسبنا الله ونعم الوكيل . فقد قامت تنة ، فيها الفئة الباغية ، أين المحتسبون ؟ أين المؤمنون ؟ مالى ولقريش ! ا والله لقد قتلتهم كافرين ، ولأقتلنهم مفتونين . وما لنا إلى عائشة ، ذنب إلا أنا أدخلناها فى حيزنا ، والله لأبقرن الباطل حتى يظهر حق من خاصرته ، فقل لقريش فلتضج ضجيجها . ثم نزل .

قال ابن الأثير : ولما بلغ علياً خروجهم إلى العراق وعاوجوه أهل

المدينة فخطبهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله ، فانصروا الله ينصركم ويصلح لكم أمركم ، فتثاقلوا ، فلما رأى زياد بن حنظلة تثاقلهم قال له : من تثاقل عنك فإنا نخف معك فنقاتل دونك .

وقالت أم سلمة : يا أمير المؤمنين ، لولا أن أعصى الله ، وأنك لا تقبله منى ، لخرجت معك ، وهذا ابنى عمرو ، وهو والله أعز على من نفسى يخرج معك ، ويشهد مشاهدك ، فخرج معه ولم يزل معه ، واستعمله على البحرين . واستخلف عليٌّ على المدينة تمام بن العباس ، وقيل سهل بن حنيف ، وعلى مكة قُثم بن العباس ، وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخففين فى سبعمائة رجل ، وهو يرجو أن يدركهم فيردهم قبل وصولهم إلى البصرة ، أو يوقع بهم . وسار من المدينة إلى الربذة ، فأتاه الخبر بأنهم سبقوه .

وقال المفيد : لما نزل أمير المؤمنين عليه السلام « الربذة » قال : أما بعد فإن الله بعث محمداً وليس فى العرب أحد يقرأ كتاباً ولا يدعى نبوة ، فساق الناس إلى منجاتهم ، أما والله ما زلت فى ساقتها ما غيرت ولا بدلت ولا خنت ، حتى تولت بحذافيرها . مالى ولقريش . أما والله لقد قاتلتهم كافرين ، ولأقاتلنهم مفتونين ، وإن مسيرى هذا عن عهد إلى فيه ، أما والله لأبقرن الباطل حتى يخرج الحق من خاصرته ! ما تنقم منا قريش إلا أن الله اختارنا عليهم ، فأدخلناهم فى حيزنا .

وأرسل على عليه السلام إلى المدينة فأتاه ما يريد من دابة وسلاح :
وأتاه وهو بالربذة جماعة من طيئ . فقيل له : هذه جماعة قد أتتك ، منهم من يريد الخروج معك ، ومنهم من يريد التسليم عليك . قال : جزى الله كليهما خيراً . وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ثم سار من الربذة وعلى مقدمته أبو ليلى بن عمر بن الجراح ، والراية مع محمد بن الحنفية ، وعلى الميمنة عبد الله بن العباس ، وعلى الميسرة عمر بن أبي سلمة ، وعلىّ على ناقة حمراء يقود فرساً كميتاً حتى نزل بفيد ، فأتته أسد وطيئ ، فعرضوا عليه أنفسهم فقال الزموا قراركم . فى المهاجرين كفاية .

أول شهادة زور فى الإسلام

وسارت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ومن معها حتى مروا بماء يدعى الحوأب ، فنبحتهم كلابه ، فقالوا : أى ماء هذا ؟ قيل : هذا ماء الحوأب ، فصرخت عائشة بأعلى صوتها ، ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته . ثم قالت : « أنا والله صاحبة كلاب الحوأب » وقالت : ردونى . وأناخت وأناخوا حولها يوماً وليلة . فقال لها عبد الله بن الزبير : إنه كذب وجاءوا لها بأربعين رجلا ، وقيل بخمسين من الأعراب رشوهم . فشهدوا أن هذا ليس بماء الحوأب . وكانت أول شهادة زور أقيمت فى الإسلام . وسارت أم المؤمنين فى طريقها

روى الحكم فى المستدرك عن أم سلمة قالت : ذكر النبى صلى الله عليه وسلم خروج بعض أمهات المؤمنين ، فضحكت السيدة عائشة ، فقال انظرى يا حميراء ألا تكونى أنت .

وعن قيس بن أبى حازم : لما بلغت أم المؤمنين بعض ديار بنى عامر نبحت عليها الكلاب . فقالت : أى ماء هذا ؟

قالوا : الحوأب .

قالت : ما أظننى إلا راجعة .

فقال الزبير : لا تقدمى ويراك الناس ويصلح الله ذات بينهم .

قالت : ما أظننى إلا راجعة ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كيف بإحداكن إذا نبحتها كلاب الحوأب !

ويقول الطبرى : ولم يزل بها عبد الله بن الزبير وهى تمتنع ، فقال لها : النجاء النجاء! قد أدرككم على بن أبى طالب . فارتحلوا نحو البصرة ، فلما كانوا قريباً منها أرسلت عبد الله بن عامر بن كريز إلى البصرة وأقامت بالحفير ، ولما بلغ ذلك عثمان بن حنيف أمير البصرة من قبل الإمام أرسل إليها عمران بن حصين وأبا الأسود الدؤلى ، فانتهيا إليها بالحفير ، فأذنت لهما فدخلا وسلما ، وسألاها عن مسيرها ، فقالت : ما مثلى يغطى لبنيه الخبر ، إن الغوغاء ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدثوا فيه ، وأووا المحدثين فاستوجبوا

لعنة الله ولعنة رسوله ، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا عذر ، فسفكوا الدم الحرام ، وأنهبوا المال الحرام ، وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ، فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء وما الناس فيه وراءنا ، وما ينبغى لهم من إصلاح هذه القصة . وقرأت :

« لا خير فى كثير من نجواهم . . . . » ، فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ومنكر ننهاكم عنه ، فخرجا من عندها وأتيا طلحة فقالا : ما أقدمكم ؟

قال : الطلب بدم عثمان .

قالا : ألم تبايع عليًّا ؟ !

قال : بلى ، والسيف على عنقى .

وأتيا الزبير ، فقالا له مثل ذلك فأجابهما بمثل قول طلحة .

ورجعا إلى عثمان ، ونادى مناديها بالرحيل ، فدخلا على عثمان فقال أبو الأسود :

يابن حنيف قد أتيت فانفر   وطاعن القوم وجالد واصبر

وابرز لهم مستلئماً وشمّر

ويقول أبو مخنف : لما انتهت عائشة وطلحة والزبير إلى حفر أبى موسى قريباً من البصرة أرسل عثمان بن حنيف عامل علىّ على البصرة

إلى القوم أبا الأسود الدؤلى يعلم له علمهم ، فجاء حتى دخل على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها – ودارت بينهما المحاورة الآتية ، فسألها عن مسيرها .

السيدة عائشة : أطلب بدم عثمان .

أبو الأسود إنه ليس بالبصرة من قتلة عثمان أحد .

السيدة عائشة : صدقت ، ولكنهم مع على بن أبى طالب بالمدينة ، وجئت أستنهض أهل البصرة لقتاله ، أنغضب لكم من سوط عثمان ، ولا نغضب لعثمان من سيوفكم ؟ !

أبو الأسود ما أنت من السوط والسيف ، إنما أنت حبيس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمرك أن تقرّى فى بيتك ، وتتلى كتاب ربك ، وليس على النساء قتال ، ولا لهن الطلب بالدماء ، وإن علياً لأولى بعثمان منك ، وأمس رحماً ، فإنهما ابنا عبد مناف .

السيدة عائشة : لست منصرفة حتى أمضى لما قدمت له ، أفتظن يا أبا الأسود أن أحداً يقدم على قتالى ؟

أبو الأسود : أما والله لنقاتلن قتالا أهونه الشدائد .

ودارت محاورة أخرى بين أبى الأسود والزبير وطلحة ، وتكلمت أم المؤمنين فحمدت الله وقالت : كان الناس يتجنون على عثمان ويزرون

على عماله ، ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم ، فننظر فى ذلك فنجده براً تقياً وفياً ، ونجدهم فجرة غدرة كذبة ، فلما قووا كاثروه واقتحموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام بلا عذر إلا أن مما ينبغى لا ينبغى لكم غيره : أخذ قتلة عثمان وإقامة كتاب الله . وقرأت : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب . .) الآية . . . فافترق أصحاب ابن حنيف فرقتين : فرقة قالت : صدقت وبرّت ، وقال آخرون : كذبتم ، والله ما نعرف ما جئتم به . فتحاثوا وتحاصبوا ، فلما رأت عائشة ذلك انحدرت ومال بعض أصحاب ابن حنيف إلى عائشة وبقى بعضهم معه .

قال الطبرى وابن الأثير : وأقبل جارية بن قدامة السعدى فقال : يا أم المؤمنين ، والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح ، إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة ، فهتكت سترك ، وأبحت حرمتك ، إنه من رأى قتالك يرى قتلك ، إن كنت أتيتنا طائعة فارجعى إلى منزلك ، وإن كنت أتيتنا مكرهة فاستعينى بالناس .

ويقول الطبرى : كتبت أم المؤمنين لما قدمت البصرة إلى زيد ابن صوحان بالكوفة : « من عائشة أم المؤمنين حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان ، أما بعد فإذا أتاك كتابى هذا فأقدم فانصرنا على أمرنا هذا ، فإن لم تفعل فخذّل الناس

عن علىّ» . فكتب زيد بن صوحان إلى عائشة : «أما بعد فأنا ابنك الخالص إن اعتزلت هذا الأمر ورجعت إلى بيتك ، وإلا فأنا أول من ينابذك» . قال زيد بن صوحان : رحم الله أم المؤمنين ! أمِرت أن تلزم بيتها ، وأمرنا أن نقاتل ، فتركت ما أمرت به وأمرتنا به ، وصنعت ما أمرنا به ، ونهتنا عنه .

ويقول الطبرى أيضاً : إنه لما قدمت عائشة ومن معها البصرة قال لهم عثمان بن حنيف : ما نقمتم على صاحبكم ؟ فقالوا : لم نره أولى بها منا ، وقد صنع ما صنع ، قال : فإن الرجل أمرنى ، فأكتب إليه فأعلمه ما جئتم له على أن أصلى أنا بالناس حتى يأتينا كتابه ، فوقفوا عنه . فكتب فلم يلبث إلا يومين أو ثلاثة حتى وثبوا على عثمان عند مدينة الرزق فظفروا به ، وأرادوا قتله ، ثم خشوا غضب الأنصار فنتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه وضربوه وحبسوه ، وأصبح طلحة والزبير بعد أخذ ابن حنيف وبيت المال والحرس فى أيديهما ، فجعلوا على بيت المال عبد الرحمن بن أبى بكر ، وقام طلحة والزبير خطيبين فقالا : يأهل البصرة توبة لحوبة ، إنما أردنا أن نستعتب أمير المؤمنين عثمان فغلب السفهاء الحلماء فقتلوه ، فقال الناس لطلحة : يا أبا محمد قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا ، فقال الزبير هل جاءكم منى كتاب فى شأنه ، ثم ذكر قتل عثمان وأظهر عيب على ، فقام إليه رجل من القيس فقال : يا معشر المهاجرين ، أنتم أول من أجاب رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، فكان لكم بذلك فضل ، ثم دخل الناس في الإسلام كما دخلتم ، فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بايعتم رجلا منكم ، فرضينا وسلمنا ولم تستأمرونا فى شىء ، ثم مات ، واستخلف عليكم رجلا فلم تشاورونا ، فرضينا وسلمنا ، فلما توفى جعل أمركم إلى ستة فاخترتم عثمان عن غير مشورتنا ، ثم أنكرتم منه شيئاً فقتلتموه عن غير مشورة منا ، ثم بايعتم علياً عن مشورة منا ، فما الذى نقمتم عليه فنقاتله ؟ هل استأثر بفىء ، أو عمل بغير الحق ، أو أتى شيئاً تنكرونه ، فنكون معكم عليه ؟ فهموا بقتل الرجل فمنعته عشيرته ، فلما كان الغد وثبوا عليه وعلى من معه وقتلوا منهم سبعين ، وبلغ حكيم ابن جبلة ما صنع بعثمان بن حنيف فقال : أخاف الله إن لم أنصره ، فجاء فى جماعة من عبد القيس وبكر بن وائل ، وطلب حكيم من عبد الله بن الزبير الإفراج عن عثمان بن حنيف — فرفض ابن الزبير قائلا : « لا نخلى سبيل عثمان بن حنيف حتى نخلع علياً » — فقال حكيم اللهم إنك حكم عدل فاشهد ، وقال لأصحابه إنى لست فى شك من قتال هؤلاء ، ونادى أصحاب عائشة من لم يكن من قتلة عثمان فليكفف عنا ، فإنا لا نريد إلا قتلة عثمان . فأنشب حكيم القتال ولم يرع للمنادى ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، ومع حكيم ثلاثة قواد ، فكان حكيم بحيال طلحة ، وذريح بحيال الزبير ، وابن المحرش بحيال عبد الرحمن بن عتاب ، وحرقوص بن زهير بحيال عبد الرحمن

الحارث بن هشام ، فزحف طاحة لحكيم وهو فى ثلثمائة رجل ، وجعل حكيم يضرب بالسيف ويقول :

أضربهم باليابس ضرب غلام عابس

من الحياة آيس فى الغرفات نافس

فضرب رجل ساق حكيم فقطعها ، فأخذ حكيم ساقه فرماه بها فأصاب عنقه فصرعه ووقذه ، ثم حبا إليه فقتله، واتكأ عليه وقال :

يا فخذ لن تراعى إن معى ذراعى أحمى بها كراعى

وقال :

أقول لما جد بى زماعى للرجل يا رجلى لن تراعى

إن معى من نجدة ذراعى

وقال :

ليس على أن أموت عار والعار فى الناس هو الفرار

والمجد لا يفضحه الدمار

وقتل حكيم ، وقتل معه ابنا الأشرف وأبو الرعل بن جبلة . وقيل إن الذى قتل حكيماً يزيد بن الأسحم الحدانى ، لأن حكيماً وجد قتيلا بين يزيد بن الأسحم وأخيه كعب بن الأسحم ، وهما مقتولان .

وكتبت أم المؤمنين عائشة إلى أهل الكوفة تطلب منهم أن يثبطوا

الناس عن على ، وتحثهم على طلب قتلة عثمان ، ومما ذكرته فى كتابها : « أقيموا كتاب الله بإقامة ما فيه ، قدمنا البصرة فدعوناهم إلى إقامة كتاب الله فأجابنا الصالحون ، واستقبلنا من لا خير فيه بالسلاح ، وعزم عليهم عثمان بن حنيف والزبير إلى أهل الشام يخبرونهم بذلك ويحثونهم على النهوض ، فكان أن قاتلونى حتّى منعنى الله عز وجل بالصالحين ، واحتجوا بأشياء فاصطلحنا عليها ، فخافوا وغدروا وخانوا وحشروا . وكتبت إلى رجال بأسمائهم « أن ثبطوا الناس عن هؤلاء القوم ونصرتهم ، واجلسوا فى بيوتكم ، فإن هؤلاء لم يرضوا بما صنعوا بعثمان بن عفان ، وفرقوا بين جماعة الأمة » وخالفوا الكتاب والسنة ، حتّى شهدوا علينا بالكفر ، فأنكر ذلك الصالحون وقالوا : ما رضيتم أن قتلتم الإمام حتّى خرجتم على زوجة نبيكم أن أمرتكم بالحق لتقتلوها وأصحاب رسول الله وأئمة المسلمين ، فكان ذلك الدأب ستة وعشرين يوماً ندعوهم إلى الحق ، فغدروا وخانوا ، فغادرونى فى الغاس ليقتلونى ، والذى يحاربهم غيرى ، فلم يبرحوا حتّى بلغوا سدة بيتى ، فوجدوا نفراً على الباب فدارت عليهم الرحى » .

وكتبت إلى أهل اليمامة وأهل المدينة ، وكانت هذه الوقعة لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ست وثلاثين ، وبايع أهل البصرة طلحة والزبير ، فقال الزبير : ألا ألف فارس أسير بهم إلى على أقتله بياتاً أو صباحاً قبل أن يصل إلينا ؟ فلم يجبه أحد ، فقال : إن هذه للفتنة

بنا إلى عسكر على ، فخرجا فى عبد القيس وبكر بن وائل ، فعدلوا إلى عسكر على ، وأقاموا ثلاثة أيام لم يكن بينهم قتال ، فكان يرسل على إليهم يكلمهم ويدعوهم ، وكان نزولهم فى النصف من جمادى الآخرة سنة ٣٦ (١)

وفى مروج الذهب : كان مسير الإمام إلى البصرة سنه ٣٦ ، وفيها كانت وقعة الجمل ، وذلك فى يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى منها . ويؤيد ذلك الطبرى وابن الأثير وإن كان المسعودى يقول إن الوقعة كانت قبل ذلك التاريخ بخمسة أيام .

وكان جنود عائشة رضى الله عنها ثلاثين ألفاً وعسكر الإمام عشرين ألفاً ، وافترق أهل البصرة ثلاث فرق ، فرقة مع الإمام وفرقة مع أم المؤمنين وفرقة اعتزلوا .

وفى المفيد أن الإمام علياً رضى الله عنه قال لأصحابه يحرضهم على القتال : « عباد الله ، انهضوا إلى هؤلاء القوم منشرحة صدوركم بقتالهم ، فإنهم نكثوا بيعتى ، وأخرجوا ابن حنيف عاملى بعد الضرب المبرح والعقوبة الشديدة ، وقتلوا السبابجة ، وقتلوا حكيم بن جبلة العبدى ، وقتلوا رجالا صالحين ، ثم تتبعوا منهم من يجنى ، يأخذونهم فى كل حائط وتحت كل رابية ، ثم يأتون بهم فيضربون رقابهم ، قاتلهم الله

(١) الطبرى وابن الأثير .

أنى يؤفكون ، انهضوا إليهم وكونوا أشداء عليهم والقوهم صابرين محتسبين تعلمون أنكم منازلوهم ومقاتلوهم ، وقد وطنتم أنفسكم على الطعن والضرب ومبارزة الأقران ، وأى امرئ منكم أحس من نفسه رباطة جأش عند اللقاء ، ورأى من أحد من إخوانه فشلا فليذب عن أخيه الذى فضل عليه كما يذب عن نفسه ، فلو شاء الله لجعله مثله .

وخطب الإمام عليه السلام لما توقف الجمعان فقال : « لا تقاتلوا القوم حتى يبدءوكم فإنكم بحمد الله على حجة ، وكفوا عنهم حتى يبدءوكم حجة أخرى ، وإذا قاتلتموهم فلا تجهزوا على جريح ، وإذا هزمتموهم فلا تتبعوا مدبراً ، ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل ، وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً . ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف القول والأنفس والعقول ، لقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات ، وإن كان الرجل ليتناول المرأة بالهراوة والجريدة فيعير بها وعقبه من بعده » .

وروى الحاكم فى المستدرك بسنده عن أبى بكر . قال : عصمنى الله بشىء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما هلك كسرى قال : مَن استخلفوا ؟ قالوا ابنته . فقال : لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة . فلما قدمت عائشة ذكرت قوله صلى الله عليه وسلم فعصمنى الله به.

وروى أيضاً أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها كانت خطيبة

القوم وهم لها تبع ، فلما تراءى الجمعان خرج الزبير على فرس عليه السلاح فقيل لعلى هذا الزبير . فقال : أما إنه أحرى الرجلين إن ذكر بالله أن يذكر .

وخرج طلحة فخرج إليهما علىٌّ فدنا منهما حتى اختلفت أعناق دوابهم .

قال على : لعمرى لقد أعددتما سلاحاً وخيلا ورجالا ، إن كنتما أعددتما عند الله عذراً فاتقيا الله سبحانه ولا تكونا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، ألم أكن أخاكما فى دينكما تحرمان دمى وأحرم دماءكما ؟ ! فهل من حدث أحل لكما دمى ؟ !

قال طلحة : ألبت الناس على عثمان .

قال على : (يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهم اللهُ دِينَهُم الْحقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحقُّ الْمُبِين) . يا طلحة تطلب بدم عثمان ، فلعن الله قتلة عثمان ، يا طلحة جئت بعرس رسول الله صلى الله عليه وسلم تقاتل بها وخبأت عرسك ، أما بايعتنى ؟ !

قال : بايعتك والسيف على عنقى .

قال الطبرى :

وقال على للزبير أتطلب منى دم عثمان وأنت قتلته ؟ ! سلط الله على أشدنا عليه اليوم ما يكره ، يا زبير أتذكر يوم مررت مع

رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى غنم فنظر إلى فضحك وضحكت إليه ، فقلت : لا يدع ابن أبى طالب زهوه ! فقال لك : صه ، إنه ليس به زهو ، ولتقاتلنه وأنت له ظالم .

فقال : اللهم نعم ! ولو ذكرت ما سرت مسيرى هذا ، والله لا أقاتلك أبداً ورجع الزبير إلى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فقال لها : ما كنت فى موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمرى غير موطنى هذا . قالت فما تريد أن تصنع ؟ قال أريد أن أدعهم وأذهب ، فقال له ابنه عبد الله : جمعت بين هذين العسكرين حتى إذا حدد بعضهم لبعض أردت أن تتركهم وتذهب لكأنك خشيت رايات ابن أبى طالب . وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد ، وأن تحتها الموت الأحمر فجبنت . فأحفظه دمك وقال : إنى حلفت ألا أقاتله ، قال : كفر عن يمينك وقاتله . فأعتق غلامه مكحولا . فقال عبد الرحمن بن سليمان التميمى :

لم أر كاليوم أخا إخوان أعجب من مكفِّر الأيمان
بالعتق فى معصية الرحمن

ترك الزبير الحرب ولم يحارب مع على وتوجه إلى وادى السباع قاصداً المدينة . وقتله ابن جرموز وأخذ فرسه وخاتمه وسلاحه .

ويقول ابن أبى الحديد فى شرح النهج : قيل إن ابن جرموز دخل

على الإمام وأخبره بقتل الزبير ، فدعا بالسيف فهزه فقال : سيف طالما كشف الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وفى رواية أخرى — أنه قال له : أنت قتلته ؟ ! قال نعم ، قال والله ما كان ابن صفية جباناً ولا لئيماً . وقال ابن جرموز : الجائزة يا أمير المومنين . فقال : أما إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بشر قاتل ابن صفية بالنار .

وروى أبو مخنف : أنه لما تزاحم الناس يوم الجمل قال الإمام على عليه السلام لأصحابه : « لا يرمين رجل منكم بسهم ، ولا يطعن أحدكم فيهم برمح حتى يبدءوكم بالقتال وبالقتل » .

فرمى أصحاب الجمل عسكر الإمام بالنبل رمياً شديداً متتابعاً ، فضج إليه أصحابه وقالوا : عقرتنا سهامهم يا أمير المؤمنين . وجىء إليه برجل فقيل له : هذا فلان قد قتل . فقال : اللهم اشهد ، ثم قال : اعذروا إلى القوم ، فأتى برجل آخر فقيل : وهذا قد قتل ، فقال اللهم اشهد ، اعذروا إلى القوم . ثم أقبل عبد الله بن ورقاء الخزاعى وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل أخاه عبد الرحمن قد أصابه سهم فقتله ، فقال يا أمير المؤمنين ، هذا أخى قد قتل ، فاسترجع على عليه السلام ، ودعا بدرع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات الفضول فلبسها ، فتدلت على بطنه ، فرفعها بيده ، وقال لبعض أهله فحزم وسطه بعمامة ، وتقلد ذا الفقار ، ودفع

إلى ابنه محمد راية رسول الله السوداء وتعرف بالعقاب ، قال للحسن والحسين عليهما السلام «إنما دفعت الراية إلى أخيكما وتركتكما لمكانكما من رسول الله صلى الله عليه وسلم» . ثم طاف الإمام على أصحابه وهو يقرأ :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ) . ثم قال أفرغ الله علينا وعليكم الصبر ، وأعز لنا ولكم النصر ، وكان لنا ولكم ظهيراً في كل أمر . ثم رفع مصحفاً بيده فقال : «من يأخذ هذا المصحف فيدعوهم إلى ما فيه وله الجنة» . فقام غلام شاب اسمه مسلم عليه قباء أبيض ، فقال : أنا آخذه ، فنظر إليه الإمام وقال : «يا فتى إن أخذته فإن يدك اليمنى تقطع ، فتأخذه بيدك اليسرى فتقطع ، ثم تضرب بالسيف حتى تقتل» . وبعد محاورة بين الإمام والغلام نادى الغلام : هذا كتاب الله بيننا وبينكم . فضربه رجل فقطع يده اليمنى ، فتناوله باليسرى ، فضربه أخرى فقطع يده اليسرى ، فاحتضنه ، وضربوه بأسيافهم حتى قتل . فقالت أم ذريح العبدية فى ذلك :

يا رب إن مسلماً أتاهم   بمصحف أرسله مولاهم
للعدل والإيمان قد دعاهم   يتلو كتاب الله لا يخشاهم

فخضبوا من دمه ظباهم   وأمهم واقفة تراهم
تأمرهم بالغى لا تنهاهم

ويروى الطبرى هذه القصة فيقول «أخذ على مصحفاً يوم الجمل ، فطاف به فى أصحابه وقال : من يأخذ هذا المصحف يدعوهم إلى ما فيه وهو مقتول ، فقام إليه فتى من أهل الكوفة عليه قباء أبيض اسمه مسلم بن عبد الله ، فقال : أنا ، فأعرض عنه ، ثم أعاده ثانياً فقال الفتى : أنا ، فأعرض عنه ثم أعاده الثالثة فقال : أنا ، فدفعه إليه ، فدعاهم فقطعوا يده اليمنى ، فأخذه بيده اليسرى فدعاهم ، فقطعوا يده اليسرى ، فأخذه بصدره وبأسنانه والدماء تسيل منه فقتل ، فكان أول قتيل بين يدى أمير المؤمنين وأم المؤمنين ، فقال على : الآن حل قتالهم ، وقالت أم الفتى ترثيه :

لا هُمَّ إن مسلماً دعاهمُ   يتلو كتاب الله لا يخشاهم
وأمهم قائمة تراهم   يأتمرون الغَىَّ لا تنهاهمُ
قد خضبت من علَقٍ لحاهم

واقتتل الناس ، وركبت عائشة الجمل [1] المسمى عسكراً ، وكان الجمل لواء أهل البصرة ، وقالت أم المؤمنين : «أما بعد ، فإنا كنا نقمنا على عثمان ضرب السوط ، وإمرة الفتيان ، وموقع السحابة

---

(١) اشترى هذا الجمل يعلى بن أمية فى مكة بمائتى دينار .

المحمية ، ألا وإنكم استعتبتموه ، فلما مصصتموه كما يماص الثوب الرخيص عدوتم عليه فارتكبتم منه دماً حراماً ، وايم الله إن كان لأحصنكم فرجاً وأتقاكم لله » .

وأخذ قاضى البصرة «كعب بن سور» بخطام الجمل ، وأخذ يقول :

يا أمنا عائش لا تراعى   كل بنيك بطل المصاع
ينعى ابن عفان إليك ناعى   كعب بن سور كاشف القناع
فارضى نبصر السيد المطاع   والأزد فيهم كرم الطباع

وقتل كعب وكان أول قتيل بين يدى أم المؤمنين من أهل البصرة والكوفة ، واقتتلوا إلى آخر النهار وانهزم عسكر عائشة .

ويقول الطبرى : ضرب محمد بن الحنفية يد رجل من الأزد فقطعها فنادى يا معشر الأزد فروا ، واستحر القتل فى الأزد فنادوا : نحن على دين على بن أبى طالب . وأقبل المنهزمون يريدون البصرة ، فلما رأوا الخيل أحافت بالجمل عادوا إلى الحرب .

أما طلحة فيقول ابن الأثير إن مروان ابن الحكم هو الذى رماه بسهم ومات طلحة فى دار خربة فى البصرة .

وحرضت أم المؤمنين الناس ، وكانت راية على عليه السلام يوم الجمل مع ولده محمد بن الحنفية . ويقول ابن أبى الحديد إن الإمام

دفع إلى محمد الراية يوم الجمل وقد استوت الصفوف . وقال له احمل . فتوقف قليلا ، فقال له : احمل . فقال : يا أمير المؤمنين ، أما ترى السهام كأنها شآبيب المطر ؟ فدفع فى صدره وقال : أدركك عرق من أمك . ثم أخذ الراية فهزها ثم قال :

اطعن بها طعن أبيك تحمد   لا خير فى الحرب إذا لم توقد
بالمشرفى والقنا المسدد

ثم حمل وحمل الناس خلفه فطحن عسكر البصرة .

وقيل لمحمد لم يغرر بك أبوك فى الحرب ولا يغرر بالحسن والحسين؟ فقال : « إنهما عيناه وأنا يمينه فهو يدفع عن عينيه بيمينه » .

وتسلم محمد الراية ومعه خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين وكثير من أهل بدر ، فحمل حملات كثيرة أزل بها القوم عن مواقفهم وأبلى بلاء حسناً .

ويقول خزيمة بن ثابت فى ذلك :

محمد ما فى عودك اليوم وصمة   ولا كنت فى الحرب الضروس معردا
أبوك الذى لم يركب الخيل مثله   على وسماك النبى محمدا
فلو كان حقاً من أبيك خليفة   لكنت ولكن ذاك مالا يرى أبدا
وأنت بحمد الله أطول غالب   لساناً وأنداها بما ملكت يدا
وأقربها من كل خير تريده   قريش وأوفاها بما قال موعدا

وأطعنهم صدر الكمى برمحه ... وأكساهم للهام عضباً مهندا
سوى أخويك السيدين كلاهما ... إمام الورى والداعيان إلى الهدى
أبى الله أن يعطى عدوك مقعداً ... من الأرض أوفى اللوح مرقى ومصعدا

نهاية معركة الجمل :

اختلف المؤرخون فى المدة الفاصلة التى انتهت فيها المعركة ، فقد ذكر الطبرى أن الوقعة كانت يوم الخميس ، والمسعودى يقول إن وقعة الجمل كانت وقعة واحدة فى يوم واحد . وبعض المؤرخين يقول إن الوقعة استمرت ثلاثة أيام . على أنه يمكن الجمع بأن الوقعة العظمى الفاصلة كانت فى يوم واحد وغيرها كان مناوشات .

ويهمنا أن نذكر أنه فى اليوم الثالث برز عبد الله بن الزبير ودعا إلى المبارزة فبرز إليه الأشتر ، فقالت أم المؤمنين : من برز إلى عبد الله ؟ قيل : الأشتر ، فقالت : واثكل أسماء ! وكان الأشتر طاوياً ثلاثة أيام ، وكانت هذه عادته فى الحرب . فضرب الأشتر عبد الله على رأسه ، فجرحه جرحاً شديداً، وضربه عبد الله ضربة خفيفة واعتنق كل واحد منهما صاحبه . وسقطا إلى الأرض يعتركان ، فقال ابن الزبير

اقتلونى ومالكاً ... واقتلوا مالكاً معى

فلو يعلمون من مالك لقتلوه . وإنما كان يعرف بالأشتر ، فحمل أصحاب على وعائشة فخلصوهما ودخل الأشتر على أم المؤمنين بعد

حرب الجمل ، فقالت : أنت الذى صنعت بابن أختى ما صنعت ؟ قال : نعم ، ولولا أنى كنت طاوياً ثلاثة أيام لأرحت أمة محمد منه ! قالت : أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لا يحل دم مسلم إلا بأحد أمور ثلاثة : كفر بعد إيمان ، أو زنى بعد إحصان ، أوقتل نفس بغير حق» . فقال على بعض هذه الثلاثة قاتلناه يا أم المؤمنين ، والله خاننى سيفى قبلها وقد أقسمت ألا يصحبنى بعدها . وفى ذلك يقول :

أعائش لولا أننى كنت طاوياً ثلاثاً لألفيت ابن أختك هالكا
غداة ينادى والرماح تنوشه كوقع الصياصى اقتلونى ومالكا
فلم يعرفوه إذ دعاهم وغمه خدب عليه فى العجاجة باركا
فنجاه منى أكله وشبابه وأنى شيخ لم أكن متماسكا
وقالت على أى الخصال صرعته بقتل أتى أم ردة لا أبالكا
أم المحصن الزانى الذى حل قتله فقلت لها لا بد من بعض ذلكا

وفى الساعة الفاصلة من المعركة زحف الإمام نحو الجمل بنفسه فى كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار ، وحوله بنوه الحسن والحسين ومحمد . ودفع الراية إلى محمد وقال : « أقدم بها حتى تركزها فى عين الجمل ولا تقفن دونه » . فتقدم محمد فرشقته السهام. فقال لأصحابه : رويداً حتى تنفد سهامهم . فلم يبق إلا رشقة أو رشقتان . فأنفذ على إليه يحثه ويأمره بالمناجزة . فلما أبطأ عليه جاء بنفسه من خلفه فوضع

يده اليسرى على منكبه الأيمن وقال له : « أقدم لا أم لك ! » فكان محمد إذا ذكر ذلك يبكي ويقول لكأني أجد ريح نفسه في قفاي . والله لا أنسى ذلك أبداً . ثم أدركت علياً رقة على ولده فتناول الراية منه بيده اليسرى وذو الفقار مشهور في اليمنى ، ثم حمل فغاص في عسكر الجمل ، ثم رجع وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته فقال له أصحابه وبنوه والأشتر وعمار : نحن نكفيك يا أمير المؤمنين فلم يجب أحداً منهم ، ولا رد إليهم بصره ، وظل يزأر زئير الأسد حتى فرق من حوله ، وإنه لطامح ببصره نحو عسكر البصرة ، لا يبصر من حوله ولا يرد حواراً ، ثم دفع الراية إلى محمد ، ثم حمل حملة ثانية وحده ، فدخل وسطهم فضربهم بالسيف قدماً قدماً ، والرجال تفر من بين يديه وتنحاز عنه حتى خضب الأرض بدماء القتلى ، ثم رجع وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته ، وناشده أصحابه الله في نفسه وفي الإسلام ، وقالوا إنك إن تصب يذهب الدين ، فأمسك ، ونحن نكفيك ، فقال : « والله ما أريد بما ترون إلا وجه الله والدار الآخرة » .

ثم قال لمحمد : « هكذا تصنع يابن الحنفية » .

فقال الناس : من يستطيع ما تستطيعه يا أمير المؤمنين ؟ !

وعن المدائني والواقدي : نادى الإمام عليه السلام : اعقروا الجمل ؛ فإنه إن عقر تفرقوا عنه . وفي رواية : حتى لقد صرخ عليّ بأعلى صوته : ويلكم ! اعقروا الجمل فإنه شيطان ، ثم قال : اعقروه وإلا فنيت

العرب ، ولا يزال السيف قائماً حتى يهوى هذا البعير إلى الأرض .

روى أبو مخنف قال : لما رأى الإمام أن الموت عند الجمل ، وأنه ما دام قائماً فالحرب لا تطفأ ، وضع سيفه على عاتقه وعطف نحوه ، وأمر أصحابه بذلك ، وسقط الجمل ، فكانت الهزيمة ، وفرت الرجال عنه كما يطير الجراد فى الريح الشديدة الهبوب .

وجاء محمد بن أبى بكر ومعه عمار بن ياسر فاحتملا الهودج ووضعاه ، وأدخل محمد يده فقالت أم المؤمنين : من هذا ؟

قال : أخوك محمد .

فقالت : مذمم .

قال : يا أخية هل أصابك شىء ؟

قالت : ما أنت من ذاك ؟

قال : فمن إذاً ؟ الضُّلاّل ؟ !

قالت : بل الهداة .

وأمر الإمام نفراً من أصحابه أن يحملوا الهودج من بين القتلى ، وإنه كالقنفد لما فيه من السهام ، وأمر أخاها محمد بن أبى بكر أن يضرب عليها قبة ، فلما كان الليل أدخلها البصرة فأنزلها فى دار عبد الله ابن خلف الخزاعى ، وكان الإمام يقول فى ذلك اليوم بعد الفراغ من القتال .

إليك أشكو عجرى وبجرى ومعشراً غَشَّوْا علَىَّ بصرِى
قتلت منهم مضراً بمضرى شفيت نفسى وقتلت معشرى

ع الإمام بعد المعركة :

عن ابن أبى الحديد أن الإمام ركب بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الشهباء ، وكانت باقية عنده ، وسار فى القتلى يستعرضهم .

ويقول المفيد : ومن كلامه عند طوافه على القتلى : « هذه قريش ؛ جدعت أنفى ، وشفيت نفسى ، لقد تقدمت إليكم أحذركم عض لسيف ولكنه الحين وسوء المصرع ، وأعوذ بالله من سوء المصرع .

ثم مر على معبد بن المقداد ، فقال : رحم الله أبا هذا لو كان حيًّا لكان رأيه أحسن من رأى هذا . ، فقال عمار بن ياسر : « الحمد الله الذى أوقعه وجعل خده الأسفل » .

ومر بعبد الله بن ربيعة بن دراج ، فقال : هذا البائس ما كان أخرجه أدين أم نصر لعثمان ؟ ! والله ما كان رأى عثمان فيه ولا فى أبيه بحسن .

ثم مر بكعب بن سور ، فقال : هذا الذى خرج علينا فى عنقه المصحف يزعم أنه ناصر أمه يدعو الناس إلى ما فيه ، ثم استفتح فخاب كل جبار عنيد ، أما إنه دعا الله أن يقتلنى فقتله الله . أجلسوا كعب بن سور فأجلس ، فقال له أمير المؤمنين : « يا كعب لقد وجدت

ما وعدنى ربى حقًّا ، فهل وجدت ما وعدك ربك حقًّا . ثم قال : أضجعوه ، فأضجعوه .

ويقول المفيد : مر على طلحة فقال هذا الناكث بيعتى والمنشئ الفتنة فى الأمة . والمجلب علىّ . والداعى إلى قتلى وقتل عترتى ، أجلسو طلحة ، فأجلس فقال له : « يا طلحة قد وجدت ما وعدنى ربّى حقًّا . فهل وجدت ما وعدك ربك حقًّا » ، أضجعوا طلحة ، وسار ، فقال له بعض من كان معه : يا أمير المؤمنين أتكلم كعباً وطلحة بعد قتلهما ؟ ! فقال أما والله لقد سمعا كلامى كما سمع أهل القليب كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر .

قال ابن أبى الحديد : مر الإمام بعبد الرحمن بن عتاب ، فقال : أجلسوه ، فأجلس ، فقال : هذا يعسوب قريش ، هذا لباب المحض من عبد مناف ، ثم قال شفيت نفسى وقتلت معشرى إلى الله أشكو عجرى وبجرى . قتلت الصناديد من بنى عبد مناف ، وأفلتنى الأعيا من بنى جمح ، فقال له قائل : لشد ما أطريت هذا الفتى منذ اليوم يا أمير المؤمنين .

وأقام الإمام عليه السلام بظاهر البصرة ثلاثاً ، وأذن للناس فى دفن موتاهم ، فخرجوا إليهم فدفنوهم .

وفى مروج الذهب : خرجت امرأة من عبد القيس تطوف بالقتلى

ـم الجمل ، فوجدت ابنين لها قد قتلا ، وقد كان قتل زوجها وأخوان
ا فيمن قتل قبل مجىء على البصرة فأنشأت تقول :

شهدت الحروب فشيبننى   فلم أر يوماً كيوم الجمل
أضر على مؤمن فتنة   وأقتله لشجاع بطل
فليت الظعينة فى بيتها   وليتك عسكر لم ترتحل

عدد قتلى المعركة

كانت القتلى خمسة عشر ألفاً ، قتل من أهل البصرة فى المعركة لأولى خمسة آلاف ، وفى المعركة الثانية مثلها ، وقتل من أهل الكوفة خمسة آلاف . وقيل كان جميع القتلى عشرة آلاف ، نصفهم من صحاب على ، ونصفهم من أصحاب عائشة . وقيل إنه قد قتل من سبة ألف رجل ، وقتل من بنى عدى حول الجمل سبعون .

الإمام فى مسجد البصرة

بعد الوقعة بثلاثة أيام دخل الإمام البصرة وتوجه إلى المسجد فصلى . يقول المفيد : إن الإمام حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، إن الله ذو رحمة واسعة ، ومغفرة دائمة ، وعفو جم ، وعقاب أليم ، ضى أن رحمته ومغفرته وعفوه لأهل طاعته من خلقه ، وبرحمته اهتدى لمهتدون ، وقضى أن نقمته وسطوته وعقابه على أهل معصيته من خلقه ،

وبعد الهدى والبينات ما ضل الضالون ، فما ظنكم يا أهل البصرة وقد نكثتم بيعتى وظاهرتم علىّ عدوى .

فقام إليه رجل فقال نظن خيراً . ونراك قد ظهرت وقدرت . فإن عاقبت فقد اجترمنا ، وإن عفوت فالعفو أحب إلى الله تعالى . فقال : قد عفوت عنكم ، فإياكم والفتنة ، فإنكم أول الرعية نكث البيعة وشق عصا هذه الأمة .

ثم جلس للناس فبايعوه ويقول الطبرى إنه لما فرغ أمير المؤمنين من بيعة أهل البصرة نظر فى بيت المال فإذا فيه ستمائة ألف وزيادة فقسمها على من شهد معه فأصاب كل رجل منهم خمسمائة .

ويقول ابن أبى الحديد — عن أبى الأسود الدؤلى : قال لما ظهر على عليه السلام يوم الجمل دخل بيت المال بالبصرة فى أناس من المهاجرين والأنصار وأنا معهم ، فلما رأى كثرة ما فيه قال : « غرى غيرى » مراراً ، ثم نظر إلى المال وصعد فيه بصره وصوب ، وقال : اقسموه بين أصحابى خمسمائة خمسمائة ، فقسم بينهم فلا والذى بعث محمداً بالحق ما نقص درهماً إلا زاد درهماً ، كأنه كان يعرف مبلغه ومقداره ، كان ستة آلاف ألف درهم ، أى ستة ملايين ، والناس اثنى عشر ألفاً .

ويقول ابن أبى الحديد اتفقت الرواة كلها على أنه عليه السلام قبض ما وجد فى عسكر الجمل من سلاح ودابة ومملوك ومتاع وعروض

نسمه بين أصحابه . وأنهم قالوا له : اقسم بيننا أهل البصرة فاجعلهم
نيقاً . فقال : لا . فقالوا : كيف تحل لنا دماءهم وتحرم علينا سبيهم ؟ !
نال : كيف يحل لكم ذرية ضعيفة فى دار هجرة وإسلام ، أما ما
جاب به القوم فى معسكرهم عليكم فهو لكم مغنم ، وأما ما دارت
ليه الدور وأغلقت عليه الأبواب فهو لأهله .

قال المفيد ثم كتب بالفتح إلى أهل الكوفة رسالة الإمام إلى
ل الكوفة : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله على بن أبى طالب
ير المؤمنين إلى أهل الكوفة ، سلام عليكم ، فإنى أحمد إليكم الله
ى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن الله حكم عدل لا يغير ما بقوم
ى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما
من دونه من وال . أخبركم عنا وعمن سرنا إليه من جموع أهل البصرة ،
ن تأشب إليهم من قريش وغيرهم مع طلحة والزبير ونكثهم صفقة
انهم ، فنهضت من المدينة حين انتهى إلى خبر من سار إليها وجماعتهم ،
فعلوا بعاملى عثمان بن حنيف حتى قدمت ذا قار ، فبعثت الحسن
على وعمار بن ياسر وقيس بن سعد ، فاستنفرتكم بحق الله وحق
رل الله صلى الله عليه وسلم وحقى ، فأقبل إلى إخوانكم سراعاً حتى
موا على ، فسرت بهم حتى نزلت ظهر البصرة ، فأعذرت بالدعاء ،
ت بالحجة ، وأقلت العثرة والزلة من أهل الردة من قريش وغيرهم ،
تتبتهم من نكثهم بيعتى وعهد الله عليهم ، فأبوا إلا قتالى وقتال من

معي والتمادى فى الغى ، فناهضتهم بالجهاد فقتل الله من قتل منهم ناكثاً ، وولى من ولى إلى مصرهم ، وقتل طلحة والزبير وخذلوا وأدبروا ، وتقطعت بهم الأسباب ، فلما رأوا ما حل بهم سألونى العفو عنهم فقبلت منهم ، وغمدت السيف عنهم ، وأجريت الحق والسنة فيهم واستعملت عبد الله بن عباس على البصرة ، وأنا سائر إلى الكوفة إن شاء الله تعالى ، وقد بعثت إليكم زحر بن قيس الجعفى لتسألوه فيخبركم عنا وعنهم ، وردهم الحق علينا ، ورد الله لهم ، وهم كارهون ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الإمام عليّ والسيدة عائشة

يقول الطبرى : توجه الإمام على إلى أم المؤمنين على بغلته ، فلما
ى إلى دار عبد الله بن خلف وجد النساء يبكين على عبد الله وعثمان
ن خلف ، وكان عبد الله قتل مع عائشة وعثمان قتل مع على ، وكانت
فية بنت الحارث تبكى ، فلما رأته قالت له : يا على ، يا قاتل
حبة يا مفرق الجمع ، أيتم الله منك بنيك كما أيتمت ولد عبد الله
. فلم يرد عليها شيئاً .

ودخل على عائشة رضى الله عنها فسلم عليها وقعد عندها . وفى
ية — أنه لم يسمع أحد من قول عليّ شيئاً إلا أن عائشة كانت امرأة
ية الصوت ، قالوا فسمعنا كهيئة لمعاذير إنى لم أفعل ، ثم قال :
تنا صفية ، أما إنى لم أرها منذ كانت جارية ، فلما خرج على
دت عليه القول فكف بغلته وقال : أما لهممت ، وأشار إلى الأبواب
الدار أن افتح هذا الباب واقتل من فيه . وكان بعض الجرحى
لجأوا إلى أم المؤمنين ومن بينهم مروان بن الحكم فى حجرة ومعه
اعة ، وعبد الله بن الزبير فى حجرة ومعه جماعة وآخرون فى حجرة ،
بر على بمكانهم عندها فتغافل عنهم ، فسكتت ، فخرج عليّ ،

فقال رجل من الأزد : « والله لا تغلبنا هذه السيدة » . فغضب الإمام وقال : « صه لا تهتكن ستراً ولا تدخلن داراً ولا تهيجن امرأة بأذى ، وإن شتمن أعراضكم وسفهن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف . ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات وإن الرجل ليكافئن المرأة ويتناولها بالضرب فيعير بها عقبه من بعده ، فلا يبلغنى عن أحد عرض لامرأة فأنكل به شرار الناس .

ويقول ابن أبى الحديد . فى شرح النهج : بعث الإمام رضى الله عنه بعد وقعة الجمل عبد الله بن عباس إلى أم المؤمنين يرجوها بتعجيل الرحيل وقلة العرجة ، ويقول ابن عباس : فأتيتها وهى فى قصر بنى خلف فى جانب البصرة ، فطلبت الإذن عليها ، فلم تأذن ، فدخلت من غير إذن ، فإذا بيت قفار لم يعدّ لى فيه مجلس ، فإذا هى من وراء ستر فضربت ببصرى فإذا فى جانب البيت رحل عليه طنفسة ، فمددت الطنفسة فجلست عليها ، فقالت من وراء الستر : يابن عباس أخطأت السنة . دخلت بغير إذن ، وجلست على وسادتنا بغير إذننا ، فقال لها ابن عباس : نحن أولى بالسنة منك ، ونحن علمنا السنة ، وإنما بيتك الذى خلفك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت منه ، فإذ رجعت إلى بيتك لم ندخله إلا بإذنك ، ولم نجلس على وسادتك إلا بأمرك إن أمير المؤمنين على بن أبى طالب يطلب منك الرحيل إلى المدينة وقلة العرجة .

قالت : وأين أمير المؤمنين ذاك عمر بن الخطاب ؟ !

قال : وهذا على بن أبى طالب .

قالت : أبيت أبيت .

قال : أما والله إن كان إباؤك فيه إلا قصير المدة عظيم التبعة ظاهر الشؤم بين النكد ، وما كان إباؤك فيه إلا حلب شاة حتى صرت ما تأمرين ولا تنهين ولا ترفعين ولا تضعين، وما كنت إلا كما قال أخو بنى أسد :

ما زال إهداء القصائد بيننا شتم الصديق وكثرة الألقاب
حتى تركت كأن صوتك بينهم فى كل مجمعة طنين ذباب

قالت : إنى معجلة الرحيل إلى بلادى والله ما من بلد أبغض إلى من بلد أنتم فيه .

قال : ولم ذاك وقد جعلناك للمؤمنين أماً ؟

قالت : يابن عباس تمنون على برسول الله .

ودار حوار بين ابن عباس والسيدة عائشة رضى الله عنها ، وتوجه ابن عباس وذكر ما دار بينه وبين أم المؤمنين ، فقال له الإمام « ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » .

عودة أم المؤمنين :

روى الطبرى : أن عمار بن ياسر قال للسيدة عائشة رضى الله عنها ، حين فرغ القوم ، يا أم المؤمنين ، ما أبعد هذا المسير من العهد الذى عهد إليك ! وجهز الإمام علىّ أم المؤمنين بكل شىء ينبغى لها من مركب أو زاد أو متاع ، وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام ، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات ، وأرسل معها أخاها محمداً وكان ذلك فى يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦ .

ويقول المسعودى : إنه وكل بأم المؤمنين نساء ملثمات أركبهن الخيل . وعن هشام الكلبى أنه بعث معها أخاها عبد الرحمن فى ثلاثين رجلا وعشرين امرأة ألبسهن العمائم وقلدهن السيوف ، وقال : لا تَتَعَرَّفْن إنكن نسوة ، وتلثمن ، ولا يقرب منها رجل ، فلما وصلت إلى المدينة عرفتها أنهن نسوة .

وفى كامل المبرد قال عمرو بن العاص لعائشة : « لوددت أنك كنت قتلت يوم الجمل » .

فقالت : ولم ؟ لا أبالك !

فقال : كنت تموتين بأجلك ، وتدخلين الجنة ، ونجعلك أكبر التشنيع على علىّ .

لماذا خرجت أم المؤمنين :

عندما تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم، من جويرية، بنى لها منزلها إلى جانب منازل نسائه فى جوار المسجد ، وأصبحت بذلك من أمهات المسلمين ، وبينما هو فى شغله بها كان قوم قد بدءوا حديث الإفك المشهور ، ويقولون إن الرسول استشار علياً وأسامة بن زيد ، فأما أسامة فنفى كل ما نسب إلى أم المؤمنين على أنه الكذب والباطل، وأما على فقال : « يارسول الله إن النساء كثير » وفى رواية أخرى : « يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء غيرها كثير » . ثم أشار باستجواب جارية عائشة لعلها تصدقه ، ودعيت الجارية وقيل إن علياً ضربها ضرباً موجعاً وهو يقول : « أصدق رسول الله » ، والجارية تقول : « والله ما أعلم إلاخيراً » وتنفى عن عائشة قالة السوء ، ثم كان أن نزل الوحى على الرسول صلى الله عليه وسلم ونادى الرسول الكريم وقال : أبشرى ياعائشة قد أنزل الله براءتك ــ قالت عائشة : « الحمد لله » .

يقول الله سبحانه وتعالى : (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ . بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

هل كان رأى على « إن النساء كثير » هو السبب ؟ وهل وصل أم المؤمنين هذا الرأى ؟ أغلب الظن أنها علمت بهذا الرأى كما سنرى بعد قليل .

والذى لا شك فيه أن أم المؤمنين كانت لا تميل إلى الإمام على ، فعندما قتل عثمان كانت السيدة عائشة فى مكة ، وفى طريقها إلى المدينة عرفت بمقتل الخليفة . وقال لها فريق من الناس إن طلحة قد بويع فأظهرت بذلك ابتهاجاً فقد كان طلحة مثلها تَيْمِيًّا ، ولكنها لقيت فى طريقها من أنبأها بحقيقة الأمر ، وبأن عليًّا هو الذى تمت له البيعة فى المدينة ، فضاقت بذلك ضيقاً شديداً ، وأعلنت أنها كانت تؤثر انطباق السماء على الأرض قبل أن ترى عليًّا وقد أصبح للمسلمين إماماً ، ثم قالت لمن معها ردونى . فرجعوا بها أدراجهم إلى مكة [١].

ويقول أستاذنا عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين : إنه كان معروفاً أن عائشة رحمها الله لم تكن تحب عليًّا ولا تهواه ، بل كان معروفاً أنها كانت تجد عليه موجدة شديدة منذ حديث الإفك ، حين أراد على أن يواسى النبى صلى الله عليه وسلم فأشار عليه بأن يطلقها وقال له: « إن النساء غيرها كثير » . وكان ذلك قبل أن ينزل الله براءتها فى القرآن.

فلم تنس لعلى قوله ذاك . وكانت عائشة شخصية من أقوى الشخصيات التى عرفها تاريخ المسلمين فى ذلك العهد لم تكن رقيقة كأبيها ، وإنما كانت شديدة كعمر على احتفاظ منها بكثير مما ورثت العرب عن جاهليتها ، فكانت تحفظ الشعر وتكثر من حفظه وإنشاده . والتمثل به ، حتى إنها رأت أباها وهو يحتضر فتمثلت قول الشاعر :

---

(١) الفتنة الكبرى لعميد الأدب العربى الدكتور طه حسين .

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى   إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

وسمعها خليفة رسول الله أبوها فقال لها كالمنكر عليها « بخ بخ يا أم المؤمنين ! هلا تلوت قول الله عزّ وجلّ :

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ) .

وكانت من أشد نساء النبي إنكاراً على عثمان ، لم تتحرج أن تصيح به من وراء سترها وهو على المنبر حين عاب عبد الله بن مسعود فأسرف فى عيبه ، ولم تكن تتحفظ من الاعتراض على كثير من أعمال عثمان ومن سيرة عماله ، حتى ظن كثير من الناس أنها كانت من المحرضين على الثورة به .

ويعتقد الأستاذ العميد أن أم المؤمنين عائشة كانت تنكر على علىّ مرين آخرين : أحدهما لم يكن لعلى فيه خيرة ، فقد تزوج فاطمة بنت رسول الله ورزق منها الحسن والحسين ، فكان أبا الذرية الباقية للنبي ، لم يتح لها هى الولد من رسول الله مع أنه قد أتيح لمارية القبطية أم إبراهيم فى أواخر أيام النبي فكان هذا العقم يؤذيها فى نفسها بعض الشيء لا سيما أنها كانت أحب نساء النبي إلى النبي .

أما الأمر الآخر فهو أن علياً قد تزوج أسماء الخثعمية بعد وفاة أبى بكر رحمه الله ، وأسماء الخثعمية هى أم محمد بن أبى بكر الذى نشأ فى حجر على . .

ويقول المرحوم الأستاذ عباس العقاد : إنه لما بويع على فى المدينة لم تكن السيدة عائشة من أنصاره ولا مع الباقين على الحيدة بينه وبين خصومه ، ولعلها لم تنس بعد نصيحته للنبي عليه الصلاة والسلام فى مسألة الإفك التى قيل إنه أشار فيها بتطليقها ، فخرجت إلى البصرة مع المطالبين بثأر عثمان . .

أما السيدة الدكتورة زاهية قدورة[١] فترى أن بين الإمام على والسيدة عائشة خصومة ترجع إلى أسباب كثيرة منها :

١ – كانت عائشة أول زوجة بنى بها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاة السيدة خديجة رضى الله عنها أم فاطمة ، ولقيت منه دلالاً وحباً ، فأثار ذلك فى نفس فاطمة الزهراء زوجة الإمام على الألم والامتعاض ، ولا شك أن ذلك انتقل بواسطتها إلى الإمام على ، وكانت السيدة عائشة تشعر بهذا التوتر فى العلاقات بينها وبين فاطمة ، ثم بالتالى مع على ، ولم يكن الأمر يخلو من دعاة السوء الذين ينقلون الكلام من جهة إلى أخرى فتزداد العلاقات توتراً فتجد فاطمة من زوجها ملجأ تشكو إليه وتجد عائشة فى أبيها مرجعاً تتألم لديه .

٢ – إلى جانب هذا العامل سبب يماثله ذلك أن الرسول صلى الله عليه

---

(١) السيدة الدكتورة زاهية قدورة هى رئيسة قسم التاريخ وعميدة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعة اللبنانية .

يسلم كان يحب فاطمة حبًّا شديداً وقد وضعها فى مقام مريم[1] بنت عمران ، فقال فيها (سيدة نساء العالمين) وإنها عديلة مريم بنت عمران — قال فيها أيضًا : (يؤذينى ما يؤذيها ويغضبنى ما يغضبها وإنها بضعة نى يريبنى ما رابها) .

ولا شك أن ذلك يثير فى نفس عائشة ألمًا فقد كانت تود ألا يشاركها ، منزلتها أحد وألا يفوقها شخص فى مكانتها .

٣ — وقد كان (لحديث الإفك) أبعد الأثر وأعمقه فى نفس عائشة حقدت على كل الذين اتهموها وكان الإمام منهم حتى إنه أشار على النبى ملى الله عليه وسلم بتطليقها قائلا : (والنساء سواها كثير) ، قبل أن يجرى الأمر تحقيق عادل — فى حين أنه وقف موقفًا يختلف كل الاختلاف ن هذا الموقف يوم اتهمت مارية القبطية بالتهمة التى اتهمت بها ائشة فى (حديث الإفك) فإنه اهتم ببراءتها حتى أثبت ذلك — فكان قف الإمام سببًا فى أن يثير فى نفس عائشة ألمًا وحقداً وكان فى رأيها انبًا العدل والحق لأنه كان بكيلين مختلفين .

٤ — وزاد الأمر تعقداً ما نقل لعائشة عن على وفاطمة أيام محنتها لديث الإفك من أنهما أظهرا شماتة سرًّا وقد ردت عليها يوم نزلت براءتها ، عند الله وهو ما يفعله المتهم ضد الذين اتهموه وآذوه إذا ما برأه القضاء مدل .

---

(١) بينت ذلك تفصيلا فى الجزء الأول من أهل البيت (فاطمة الزهراء)

وإذا كان الأمر كذلك فلا شك أن يؤذيها تقريب الرسول لعلى، يدفعها فى ذلك الحسد والغيرة وقد كان يسوء علياً وفاطمة ما تلقاه عائشة من حب الرسول وما يلقاه أبوها أيضًا من تفضيل وإكرام .

٥ ــ وقد لعبت العوامل النفسية دورها العظيم فى هذا الخلاف فلم ترزق عائشة أولاداً وقد كان الرسول يحب أن يرزق أولاداً ــ ورزقت فاطمة البنين والبنات ــ وكان الرسول يحبهم حباً جماً حتى إنه تبناهم وكان يسميهم أولاده ، فيثير ذلك فى نفس الزوجة التى لم يرزقها الله بالولد الغيرة الشديدة .

٦ ــ اختار الرسول صلى الله عليه وسلم فى مرضه الأخير بيت عائشة يمرض فيه وكان ذلك سبباً تفخر به فى اختيارها وتفضيلها ، وكانت بقية الزوجات ترجو أن تنال هذا الشرف ــ وكانت فاطمة وعلى يرجوان أن ينالهما فخر إقامة الرسول عندهما ليخدماه ــ فالفخر الذى نالته عائشة بهذا الاختيار قابله حقد عليها ممن فشل فى تحقيق هذا الذى كان يرجوه .

٧ ــ وقد كانت خلافة أبى بكر سبباً فى إثارة عاملين مختلفين عند عائشة من جهة وعند فاطمة وعلى من جهة أخرى ــ أما عائشة فقد زهت بما أصابها من خير فهى زوجة حبيبة الله من ناحية وهى ابنة خليفة رسول الله من ناحية أخرى، وبالنسبة لعلى وفاطمة كانت مبايعة أبى بكر خيبة أمل وصدمة لهما ــ ذلك أن علياً كان يظن أنه لن ينازعه أحد فى هذا الأمر ، وقد قال له عمه : (وقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم امدد يدك

أبايعك ؛ فيقول الناس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بايع ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يختلف عليك اثنان – قال : (يا عم وهل يطمع فيها طامع غيرى !) – ولما تم الأمر لأبى بكر تلكأ على فى بيعته وكانت فاطمة خلال ذلك تناضل فى سبيل على وتجادل فى خلافة أبى بكر وكان على وأنصاره يذيعون أن النبى أوصى لعلى فكانت عائشة ترد (متى أوصى إليه فقد كنت مسندته إلى صدرى ؟ أو قالت فى حجرى – فدعا بالطست فلقد انخنث فى حجرى وما شعرت أنه مات فتى أوصى إليه ؟) .

لا شك أن أمراً كهذا لا يمكن أن يمر دون أن يزرع فى النفوس – عند الفريقين – جفاء وقد زاد الأمر حدة حين أوصى أبو بكر لعمر ؛ فكان ذلك عاملاً جديداً فى نفس علىّ على أبى بكر وأثار شماتة فى نفس عائشة وجدت لها رد الفعل الكافى فى نفس الإمام على .

٨ – اتهام على لعائشة فى أنها دبرت أمر إمامة أبى بكر الصلاة فى مرض الرسول فنسب الإمام علىّ للسيدة عائشة أنها أمرت بلالاً مولى أبيها أن يأمره فليصل بالناس لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى قال : ليصل بهم أحدهم ولم يعين ؛ وكانت صلاة الصبح فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى آخر رمق يتهادى بين على والفضل بن عباس حتى قام فى المحراب ثم دخل فمات ارتفاع الضحى ؛ فجعل يوم صلاته حجة فى صرف الأمر إليه وقال أيكم يطيب نفساً

أن يتقدم قدمين قدمهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة ولم يحملوا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة لصرفه عنها بل لمحافظته على الصلاة مهما أمكن فبويع على هذه النكتة التى اتهمها على عليه السلام على أنها ابتدأت منها، وكان الإمام يذكر هذا لأصحابه فى خلواته كثيراً ويقول : «إنه لم يقل صلى الله عليه وسلم إنكن لصويحبات يوسف إلا إنكاراً لهذه الحال وغضباً منها لأنها وحفصة تبادرتا إلى تعيين أبويهما وأنه استدركها بخروجه وصرفه عن المحراب» — هذه هى رواية الشيعة أما رواية السيدة عائشة رضى الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم أصر على أن يؤم أبو بكر الصلاة — وهذا اختلاف جوهرى له أثر فى مجرى الأمور حتى تغلبت كما يظهر فى ذلك الوقت رواية عائشة فبايع المسلمون أبا بكر لما ثبت عندهم تقديم الرسول له .

٩ — وقد ظهرت نقدة عائشة على الإمام حينما توفيت السيدة فاطمة الزهراء — فيروى أن نساء الرسول صلى الله عليه وسلم ذهبن يعزين فى وفاة الزهراء إلا عائشة، فإنها لم تذهب وادعت المرض وأنه نقل عن لسانها لعلى كلام يدل على السرور، ولا شك فى أن ذلك اتهام أملاه ما بينهما من أسباب الحقد؛ ولا نظن أنها كانت تتأخر عن أداء هذا الواجب الضرورى لو لم تكن مريضة حقاً

هذه هى الأسباب التى ظهرت فى شكل خصومة انتهت بسفك كثير من الدماء فى موقعة الجمل .

ويقول الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود : « لقد زود الماضي السيدة عائشة بذخر من البغض ، ادخرته لابن أبي طالب منذ الساعة التي شهدته فيها لا يقف إلى جانبها حين حاكت حولها الألسن الباغية حديث الإفك ، وهي أيضاً مشبوبة الغيرة ككل حواء ، لا تستطيع أن تحرر قلبها من سلطانها القاهر ، وكأية أنثى كان صدرها يجيش بعواطف أمومة مختزنة تنتظر أن يعينها الزمن على إطلاقها لتحبو بها صغيراً تسعد به ، فلم يسعفها القدر بتحقيق حلمها الجميل وبقيت طوال الأعوام التي عاشتها زوجاً عاقراً ، لا تستطيع أن توثق الزوجية برباط من البنوة ؛ ا كم ودت لو دفعت إلى محمد طفلا من دمها ومن صلبه يضفي عليه فيض حنانه ، وتعيش هي على مدى الأحقاب في ذراريه ، ولكنها نعمة حرمتها فأحزنها الحرمان ، وما أحسبها إلا كانت تشعر بشيء في صدرها يشبه الحسرة وهي تنقل بصرها فترى زوجها الحبيب يهب رعايته فتاته الزهراء ، ويواليها عطفاً كانت تود عائشة لو أولاه طفلة تمتزج في عروقها دماء الزوجين ، غير أن خديجة نعمت دونها بهذه الميزة ، وعاشت في ذرية محمد بعد الموت إلى نهاية الأبد . خديجة الزوج الأولى التي عاشرت رسول الله ربع قرن لم تغضبه خلاله مرة ، وتزوجها وهو شاب وهي في طريقها إلى الكهولة ، فلم يجمع بينها وبين زوجة أخرى ، ولم تسعده امرأة بعدها بمثل ما أسعدته ، خديجة هذه تنال من حب محمد ما لم تستطع عائشة نواله ، وإن كانت فتاة حلوة صغيرة السن ؟ وتهبه من الولد وهي عجوز ما عجزت

عنه الجميلة . الصغيرة ، وتبقى على الدوام ماثلة فى خاطره بعد موتها ، لأنها لم تبرح أبداً قلبه ، وما أكثر ما سمعت عائشة رسول الله يذكرها أمامها بعبارات إعزاز ، كانت تشعر معها أن هذه الغائبة عن وجه الدنيا تستأثر دونها بأكبر نصيب من حب زوجها العظيم . . ولندع عائشة تفصح بلسانها عن شعورها الحقيقى إذ تقول : " ما غرت على أحد من نساء النبى ما غرت على خديجة . . وما رأيتها ، ولكن كان النبى يكثر ذكرها . وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ، ثم يبعثها فى صدائق خديجة ، فربما قلت له كأنه لم يكن فى الدنيا إلا خديجة . . فيقول إنها كانت . . وكانت . . وكان لى منها ولد " ، فهى باقية وإن ذهبت . . تعيش اليوم فى خاطر محمد كما عاشت بالأمس فى دنياه ، وتكاد تملأ عليه آفاق فكره لا يشغله عنها وجود عائشة ولا حسنها ولا صباها ، باقية أبداً فى الزهراء الرقيقة وفى الحب الأبوى الكريم الذى يفيض به قلب رسول الله ، باقية أيضًا فى خلجات نفس عائشة بقاء شعور الغيرة العجيب الذى لاينى يراودها فى كل لحظة ، وهل آلم على نفس الزوج الصغيرة من إحساسها بالخوف من امرأة ماتت . . . وضعفها أمام شبح يطل على بيتها من خلل الماضى ، ويلقى ظلالاً قاتمة على سعادتها الزوجية . . . الزمن لم يستطع أن يشفيها من هذا الخوف أو يحجب عنها صورة ضرتها الخطرة وراء ستر النسيان . . . بل قد حالف خديجة ومضى يعيدها إلى الحياة مرات ومرات ، ويكررها فى حفدتها كما كررها فى بناتها

وأولادها . فإذا هى صور شتى تطالع عائشة كل يوم وتطوف عليها بيتها فتملأ سمعها وبصرها بعد أن كانت صورة واحدة لشبح يعيش فى وهم الذهن . فأى خليط من المشاعر ، كان يجتاح نفسها كلما ألقت العين على محمد وهو يداعب حفدته ويوليهم حنان قلبه الرحيب ، أهى الغيرة على الزوج الأولى التى صارت اليوم فى أشخاصهم حقيقة تتجدد بعد أن قاربت أن تكون ذكرى . أم الحسرة على حرمانها الولد الذى حلمت أن يكون نسلاً لها من رسول الله تعيش خلاله على مدى الزمن السيار . أم الحقد على غريمها ابن أبى طالب وقد تفرد وحده بنقل سلالة زوجها الحبيب إلى الأحقاب ؟ !

كانت أنثى كأية أنثى : تسمع لوحى قلبها وتلبى نداءه . فما خالفت طبيعة المرأة حين غارت وحين ملكتها الحسرة ، وحين حقدت ، فإن هى إلا واعيتها التى تكلمت — برغمها — وتحركت ودفعتها إلى موقفها العدائى للإمام . وإذا نطقت الواعية فلها الكلمة المسموعة . وضاع صوت العقل الهادئ الخفيض فى ضوضاء المشاعر الصخابة .

وعن علاقة الإمام على بالسيدة أم المؤمنين يقول[1] سعيد الأفغانى : إنه إذا رجعنا ثلاثين سنة قبل مبايعة على بالخلافة نجد ثمة نقطة التحول التى فرضت على عائشة اتجاهها الذى اتجهته مع على . ولم تستطع الإفلات منه ولا من عاطفتها العنيفة التى لم يخفف تتابع الأيام والسنين

---

(١) عائشة والسياسة (سعيد الأفغانى)

من حزنها ، فالثابت أنه لم يجتمع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم على شيء اجتماعهن على الغيرة الشديدة من السيدة عائشة ، لما خصها النبي صلى الله عليه وسلم من محبة إذ حلت من قلبه فى المنزلة التى لا تسامى ، والغيرة بين الضرائر أمر فطرى مألوف قل أن تتنزه عنه امرأة ، وكان على وزوجه السيدة فاطمة بنت الرسول يحاولان حمل الرسول صلى الله عليه وسلم على التخفيف من حبه لعائشة ، ويسفران لبقية أزواجه بما يرضيهن ويغضب عائشة ، وأظن أن مثل هذه السفارة مما لا تغفره أنثى البتة .

ذكر الرواة أن الغيرة اشتعلت يوماً فى صدر أم سلمة لمشهد لمست فيه شدة حب النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة ، فأخذتها الغيرة وجعلت تسب عائشة وجعل النبي صلى الله عليه وسلم ينهاها فتأبى ، وعاين النبي غلياناً فى صدر عائشة على هذا العدوان ، فرأى من الحكمة أن ينفس عنه بالقصاص العادل ، فأمر عائشة بسبها كما سبتها ؛ فانطلقت أم سلمة إلى على وفاطمة — وكانا يخصانها بعطف ورعاية ، وبقيت أم سلمة فى حزب على حتى ماتت فقالت : إن عائشة سبتها « وقالت لكم وقالت لكم » . فكره ذلك على وقال لفاطمة : اذهبى إلى النبي فقولى « إن عائشة قالت لنا وقالت لنا . . . » . فأتته فذكرت ذلك له ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنها حبة أبيك ورب الكعبة » .

وكأن هذا الدرس لم يرق لعلى ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم :

« أما كفاك الآن : قالت لنا عائشة وقالت لنا ، حتى أتتك فاطمة فقلت لها : إنها حبة أبيك ورب الكعبة ؟»[١] . ولعل مثل هذه السفارة قد تكرر فحفظت عائشة ذلك كله لعلى وفاطمة .

وينبغي ألا ننسى ونحن نذكر ما يقع مثله عادة بين الأحماء أن نشير إلى أمر آخر مهم كانت السيدة عائشة نفسها هى التى تغار ، ذلك أنها على شدة حظوتها عند الرسول صلى الله عليه وسلم وكثرة محبتها له لم ترزق منه الولد ، وكان عليه الصلاة والسلام كبير الشغف والفرح بأولاد بنته فاطمة كثير الرعاية لهم والحدب عليهم ، وكانت تشهد عائشة من مباسطته لهم العجب العجاب فتشتعل الغيرة فى صدرها من الحسن والحسين وتمتد حتى تغار من أبويهما على وفاطمة ، وهذا — وإن كان مبعثه الفطرة ومستفيضاً فى كل الأسر — مما لا يجوز إهماله عند محاولتنا الرجوع فى الخصومة بينهما إلى آثارها البعيدة الأولى .

ولئن كان من القريب الممكن أن نعتذر لعلى فى هذه البوادر التى يكون مثلها فى كل أسرة والتى رددنا أمرها إلى ما يكون عادة بين الأحماء ، إن الذى لا نستطيع الاعتذار له هو موقف على من عائشة فى حادث الإفك — لقد وقف منها على — مع علمه ببراءتها — موقفاً غاية فى القسوة . أفصح أبلغ إفصاح عما فى نفسه نحوها من تأثر ، وإن مع عائشة الحق كل الحق فى ألا تنسى له تلك البادرة التى كادت

---

(١) السمط الثمين .

تعصف بروحها عصفاً لولا أن لطف الله فأنزل براءتها تتلى فى القرآن حتى يوم الناس هذا .

روّج المنافقون والموتورون من اليهود من أهل المدينة أمر الإفك شفاء لما يمزق قلوبهم من غيظ على نصرة الإسلام ودخول المدينة فى حكمه ، وتحمل الرسول أذيتهم بصبر بالغ وحكمة واسعة ، ولم يكن يخفى عليه طهر عائشة وبراءتها ونيات المرجفين ، لكنه أمل أن ينزل الله عليه فى أمرهم وحياً فلما استبطأ الوحى دعا على بن أبى طالب وأسامة بن زيد يستأمرهما فى فراق أهله فأتيا ، فأما أسامة فأثنى خيراً وأشار على رسول الله بالذى يعلم من براءة أهله ، فقال : « يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيراً » . وهذا الجواب هو الجواب الوحيد الذى توحى به البديهة والروية معاً ، لكن علياً ذهب مذهباً آخر إذ أشار على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطلق عائشة فقال له : « لم يضيق الله عليك والنساء غيرها كثير . واسأل الجارية تصدقك » . ولم يكتف بذلك بل قام إلى الجارية فضربها[1] ضرباً شديداً وهو يقول : « أصدقى رسول الله » ، فتقول الجارية : « والله ما أعلم إلا خيراً » ، ولعل علياً ظن هذا الرأى خيراً للرسول مهما جر على عائشة من سوء وظلم ، ولكن إنعام النظر يوحى بأن رأى على لو عمل به لأعقب عواقب جد وخيمة ، تحطيم حياة عائشة البريئة وفجيعة قلب النبى بأحب الناس إليه وحزنه

---

(١) الطبرى .

طول حياته كلما ذكر هذا الحادث ، وأين لأحد أن ينساه ؟ الحق
ن من لطف الله بالنبى وآله أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يأخذ
رأى الإمام عليه السلام ، وإن مثل هذا الموقف لا ينسى ولا ينتزع
ثره من القلب مهما جاهد المرء نفسه ، ولم تنس عائشة — مع كل
جهودها المبذولة فى كبح عاطفتها — بادرة علىّ هذه حتّى واراها التّراب ،
لقد تفاقم فى نفسها أثره مع السنين ووجهها — من حيث لا تشعر —
جهة كان فيها للمسلمين أذى بالغ وهى ترى أن فيها الخير لهم كل
لخير ، نعم لقد كانت الأيام لا تزيده إلا نمواً فى نفسها حتى رأيناها
ندفعة بقوة لا تغالب نحو حرب الجمل بعد ثلاثين سنة من هذا
لحادث .

ويقول ابن أبى الحديد كما جاء فى شرح نهج البلاغة[1] : لما خرجت
سيدة عائشة رضى الله عنها على علىّ فى خلافته جعلت أم سلمة تذكرها
هذا الحادث وتقول : « أتذكرين يوم أقبل عليه السلام ونحن معه —
تى إذا هبط من قديد ذات الشمال خلا بعلىّ يناجيه فأطال ، فأردت
ن تهجمى عليهما ، فنهيتك فعصيتنى ، فهجمت عليهما فما لبثت
ن رجعت باكية فقلت : ما شأنك ؟ فقالت : إنى هجمت عليهما
هما يتناجيان . فقلت لعلى : ليس لى من رسول الله إلا يوم من تسعة
ام . أفما تدعنى يابن أبى طالب ويومى ؟ فأقبل رسول الله صلى الله

---

(١) يتشكك كثير من الكتاب فى صحة هذا القول .

عليه وسلم عليّ وهو غضبان محمر الوجه فقال : ارجعي وراءك ، والله لا يبغضه أحد من أهل بيتي ولا من غيرهم من الناس إلا وهو خارج من الإيمان ، فرجعت نادمة ساخطة ؟

قالت : نعم — أذكر لك . . .

كذلك لما بويع أبوها أبو بكر الصديق قيل إن الإمام علياً امتنع هو وبنو هاشم حتى إذا انقضت على البيعة ستة أشهر وماتت السيدة فاطمة أقبل يبايع[١] ، ومن طبيعة الأشياء أن تضطغن عائشة على من تخلف عن بيعة أبيها ورأى أنه أحق بالخلافة منه وألا تطيب له نفسها بخير .

وقد كتبنا في الجزء الأول من أهل البيت قصة « فدك » بالتفصيل وقلنا إنه لما قبض الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام وآل الأمر إلى أبي بكر الصديق جاءت فاطمة تطلب من أبي بكر ميراثها . فاعتذر أبو بكر واختلف علي وفاطمة مع الخليفة وكان ذلك موضع استياء من السيدة عائشة .

وهناك إشارات عارضة ، فعن عطاء بن يسار قال : جاء رجل فوقع في عليّ وفي عمار رضي الله عنهما عند عائشة فقالت : « أما علي فلست قائلة لك فيه شيئاً ، وأما عمار فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يخير بين أمرين إلا اختار أرشدهما » .

---

(١) يراجع الكتاب الأول من أهل البيت « فاطمة الزهراء » .

كذلك عندما سئلت السيدة عائشة فى مسألة الوصاية وكان السؤال : أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى إلى على ؟ فقالت : لقد كان رأسه فى حجرى ، فدعا بالطست فبال فيها ، فلقد انخنث فى حجرى وما شعرت به ، فمتى أوصى إلى على ؟[1] .

وروى الطبرى أنه روى عن عائشة أنها قالت : لما اشتد بالرسول وجعه دعا نساءه فاستأذنهن أن يمرض فى بيتى فأذنّ له ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر تخط قدماه الأرض عاصباً رأسه حتى دخل بيتى » ، قال راوى الحديث : فحدثت بهذا الحديث عنها عبد الله بن عباس فقال : « هل تدرى من الرجل الآخر ؟ » قلت : « لا » قال : « على بن أبى طالب ، ولكنها لا تقدر على أن تذكره بخير وهى تستطيع » .

وحتى بعد انقضاء حرب الجمل وانتهاء الأمر بينهما على خير لم يزل ما بنفسها نحوه ، فقد ذكروا أنه لما انتهى إلى عائشة قتل على قالت متمثلة :

فألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قر عيناً بالإياب المسافر

فمن قتله ؟ فقيل : رجل من مراد . فقالت :

فإن يك نائياً فلقد نعاه ... غلام ليس فى فيه التراب

---

(١) طبقات ابن سعد .

فذكروا أن زينب بنت أبي سلمة كانت حاضرة فقالت : « ألعليّ تقولين هذا ؟ » فقالت : « إنى أنسى فإذا نسيت فذكرونى »

وبعض المعاصرين ومنهم الشيخ محمد أحمد فرج السنهورى يذكر أن السيدة عائشة ما خرجت لقتال ، وماخرجت إلا لإقامة الحد على البغاة قتلة عثمان الذين أشعلوا الفتنة وسعوا فى الأرض فساداً ولإطفاء الفتنة والإصلاح بين الناس ، استأذن عليها عمران بن حصين وأبو الأسود الدؤلى رسولا أمير البصرة عثمان بن حنيف وهى بالحفير فأذنت لهما ، فدخلا وسلما وقالا إن أميرنا بعثنا إليك لنسألك عن مسيرك هذا ، أعهد عهده إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم أم رأى رأيته ؟ فقالت ؟ ما مثلى يغطى لبنة الخير وإن هذا الرأى رأيته ، وإن الغوغاء ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستوجبوا لعنة الله ولعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا عذر فاستحلوا الدم الحرام وسفكوه ، وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام وحرمة الخلافة وحرمة الشهر الحرام ، فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء وما الناس فيه وراءنا وما ينبغى لهم من إصلاح ، وقرأتْ : (لا خير فى كثير من نجواهم . . . .) الآية . فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ومنكر ننهاكم عنه — غضبنا لكم من سوط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيوفكم . فقال لها أبو الأسود : فما أنت وسيوفنا وسوط عثمان وأنت حبيس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمرك أن تقرى فى بيتك

فجئت تضربين الناس بعضهم ببعض ، فقالت : وهل أحد يقاتلنى ؟ أو تقول غير هذا ؟ فقال الرسول نعم — فهى لم تأت لقتال والقوم هم الذين يهدون به من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويطالب بإقامة حدود الله ، وهو فرض على الناس كافة الرجال والنساء ، وأولى به العلماء ذوو المكانة وفى طليعتهم أم المؤمنين ، ولكن ما للأسود وهذا فليس اسماً وفعلا وحرفاً وما الأسود وما فقه أم المؤمنين .

ويستمر الشيخ السنهورى فى قوله ؛ فيذكر أن أم المؤمنين رضى الله عنها لم تعص الله ولم تقترف إثماً بهذه الوقعة ، ولا ريب فى أنها ندمت بعدها وما كان ندمها من أجل ذنب اقترفته، وإنما كان لإخفاق قصدها النبيل ولقتل من قتل من الجانبين ولاستمرار الفتن مشتعلة بين المسلمين ، وما كانت تعنى شيئاً من هذا حينما استأذن عليها ابن عباس وهى فى كرب الموت وغمه فقالت له : إنى أجد غمًّا وكرباً وأنا مشفقة مما أخاف أن أهجم عليه ، فقال لها أبشرى فوالله لرسول الله أكرم على الله من أن يزوجه جمرة من جمر جهنم ، فقالت له : « فرجت عنى فرج الله عنك » ، فما كان إشفاقها من وقعة الجمل وما كان إشفاقها إلا من أجل حساب الحياة كلها ؛ وهذا شأن الأبرار المقربين ، ولقد سبقها فى ذلك أبوها . وقد روى عن البخارى عن هشام بن عروة عن أبيه أنها أوصت ابن الزبير أن يدفنها مع صواحبها بالبقيع .

ويختم الشيخ السنهورى بحثه بقوله : إن وقعة الجمل لم تنل من

نفسها إلا بقدر ما ذكرت ، ولم تمس مكانتها بين المسلمين أى مساس ، وبقيت طول حياتها العالمة المجتهدة التى يرجع إليها الجميع ذات المكانة الرفيعة ، وكانت تتحدث بفضل الله عليها غير مفاخرة ، وتقول السيدة عائشة : « فىّ سبع خصال ليست فى أحد من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم : تزوجنى النبى صلى الله عليه وسلم بكراً ، ولم يتزوج أحداً من نسائه بكراً غيرى ، ونزل إليه جبريل بصورتى قبل أن يتزوجنى ، ولم ينزل بصورة أحد من نسائه غيرى ، ورأيت جبريل ، ولم يره أحد من أزواجه غيرى ، وكنت من أحبهن إليه نفساً ووالدا ، وكان جبريل ينزل عليه بالوحى وأنا معه فى شعار ، ولم يكن يأتيه وهو مع أحد من أزواجه غيرى ، ونزل فىّ آيات من القرآن كاد يهلك فىّ فئام من الناس ، ومات فى يومى وليلتى وبين سحرى ونحرى .

وروى ابن سعد وابن أبى شيبة أنها قالت أعطيت تسع خلال ما أعطيتها امرأة : والله ما أقول هذا فخراً — نزل الملك بصورتى ، وتزوجنى لسبع ، وأهديت إليه لتسع ، وتزوجنى بكراً ، وكان الوحى يأتيه وأنا وهو فى لحاف واحد ، وكنت أحب الناس إليه وبنت أحب الناس إليه ، ولقد نزلت فىّ آيات من القرآن وقد كادت الأمة تهلك فى ، ورأيت جبريل ولم يره أحد من نسائه غيرى ، وقبض فى بيتى لم يله أحد غيرى وغير الملك . .

أما الشيعة فيرون أن السيدة عائشة أخطأت بخروجها على الإمام العادل مظهرة الطلب بدم عثمان ، وهى كانت من أعظم المحرضين

عليه ، وكانت تقول ما هو معروف مشهور ، وتخرج قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد تركت عثمان وهو محصور لم تنصره ولم تحرض على نصره ، وخرجت إلى مكة فبقيت فيها حتى قتل ، ثم خرجت من مكة تريد المدينة وهى لا تعلم بقتله ، روى الطبرى وابن الأثير أنها لما كانت بسرف لقيها ابن أم كلاب وهو من أخوالها فقالت له : مهيم ؟ قال : قتل عثمان ، قالت : ما صنعوا ؟ قال : أخذها أهل المدينة بالاجتماع ، فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز ، وحارت بهم خير محار ، اجتمعوا على بيعة على : فقالت : ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك ، ردونى ، ردونى . فانصرفت إلى مكة وهى تقول : قتل والله عثمان مظلوماً . والله لأطلبن بدمه ؛ فقال لها : ولم والله ؟ إن أول من أمال حرفه لأنت، ولقد كنت تقولين : اقتلوا نعثلا فقد كفر ، قالت : إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولى الأخير خير من قولى الأول ، فقال لها ابن أم كلاب :

فمنك البداء ومنك الغير ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا إنه قد كفر
فهبنا أطعناك فى قتله وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ولم تنكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرإ يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب أثوابها وما من وفى مثل من قد غدر

وقد أمرت أن تقر فى بيتها بقوله تعالى : (وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى) .

ويعتذر المعتذرون لها بأنها اجتهدت فاخطأت أو أذنبت فتابت ورحمة الله واسعة ، ويصعب علينا[1] التصديق بأن هذا كان اجتهاداً . وإذا جردنا أنفسنا عن التقليد ونظرنا نظراً لم يتأثر بشيء وجدناه بعيداً عن الاجتهاد غاية البعد ، وقد قال البعض من الشيعة :

عائش ما نقول فى قتالك سلكت فيه سبل المهالك
ويا حميرا سبك محرم ولأجل عين ألف عين تكرم

وروى أبو الفرج الأصبهانى فى مقاتل الطالبين بسنده أنه لما جاءها قتل على بن أبى طالب سجدت ، وروى فيه أبو الفرج أيضاً ومحمد ابن سعد فى الطبقات وذكره المرزبانى فى معجم الشعراء والطبرى فى تاريخه وابن الأثير فى الكامل : أنه لما أتاها نعيه تمثلت :

فألقت عصاهاواستقرت بهاالنوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

ثم قالت : من قتله ؟ قيل : رجل من مراد : فقالت :

فإن يك نائياً فلقد نعاه غلام ليس فى فيه التراب

قال أبو الفرج : ثم تمثلت :

ما زال إهداء الصغائر بيننا شتم الصديق وكثرة الألقاب

---

(١) أعيان الشيعة (السيد محسن الأمين) الجزء الأول — القسم الثانى .

حتى تركت كأن قولك فيهم   فى كل مجتمع طنين ذباب

إلى هنا أجدنى قد أجبت عن السؤال الذى طرحته عن سبب خروج لسيدة عائشة رضى الله عنها ، ثم أجدنى أطرح السؤال الثانى والأخير ، هو : على من تقع تبعة حرب الجمل المشئومة ؟ ويجيب عن هذا لسؤال الأستاذ سعيد الأفغانى فيقول : إن الذى يحمل شر هذه الفتنة باشرة هم الذين حملوا إثم قتل عثمان والتأليب عليه ، فالسبئيون هم لذين ائتمروا بالجيشين وقد أشرفوا على الصلح وأسرعوا فباغتوا الطرفين نشاب القتال — وأعجلوها عن التروى والتثبت ، فعليهم إذن وحدهم ترية هذه الألوف الخمسة عشر من الدماء المهراقة ، كما كان عليهم حدهم إثم قتل عثمان مباشرة ، فإذا بلغنا من عليهم التبعات الثانوية غير المباشرة) فمن قصر أو أخطأ فى اجتهاده أو انصاع إلى طموح سه أو غلبته منافسته لأخيه؛ وجدنا ترتيب أنصبائهم من التبعة فى حرب لجمل على ترتيبها فى الحملة على الخليفة عثمان رحمه الله : من غش استئثاراً بالمنافع ؛ أو تقصير فى حقه أو خذلان له أو مجاهرة بنقده ، وفاهم نصيباً منها الأمويون ثم طلحة فالزبير فعائشة فعلى :

١ — أما الأمويون فكانوا قد استغلوا قرابة عثمان أسوأ استغلال ، بدلوه بما كان يجب له عليهم من المناصحة والعفة : احتكاراً للأعمال ستئثاراً بالأموال وإبعاداً لمن كرهوا من أهل الكفايات ، حتى كانت عمالهم هذه أشد ما أرث على عثمان ، فلما أن قتل انسلوا من أطراف

البلاد ، واجتمعوا بمكة بعددهم وعُددهم وما حملوا من أعمالهم من أموال الله : ينفخون فى الشر ويحرضون على الطلب بدم عثمان ويستغلون أهواء كل من أحسوا منه كرهاً لعلى أو منافسة له ، وأظهروا ذلك كله ، وأضمروا من ورائه أمراً آخر : قتل طلحة والزبير ورؤوس الناس من سواهم ، وودوا أن يقتل غيرهم عائشة . . . ليخلص لهم الأمر ويرجع فى بنى أمية وقد خلت الأرض من منافس لهم .

ويعد يوم الجمل بالنسبة للأمويين هو اليوم الذى كان لهم ما بعده، بحيث تولوا من قاتلوا فيه علياً وكافأوهم ، ولم يغتفروا لمن قصر فيه ، وهذا معاوية وقد صار خليفة يدخل عليه الأحنف بن قيس سيد أهل البصرة فيجبهه بهذا القول : أنت الشاهر علينا السيف يوم صفين والمخذل أم المؤمنين .[1] وبحق يعد الأمويون، ورأسهم فى هذه الفتنة مروان، حلقة وسطى تلى السبئيين أصحاب التبعة المباشرة فى هذه الدماء .

٢ ــ وأما طلحة ــ فكما كان أشد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم على عثمان[2] ، كان هنا أيضاً أشد الناس على علىّ وأكرههم لخلافته وأوفرهم سعياً فى التأليب عليه . وأطولهم يداً فى تحريض الجماهير على المطالبة بدم عثمان وسوقهم إلى البصرة ، وقد علم : أن إقامة الحدود من حق الإمام لا حق الغوغاء، وأن أولياء عثمان ــ وليس هو منهم ــ أولى

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر .
(٢) كلمة محمد بن سيرين (العقد الفريد ٣/٨٦) .

منه بهذه الدعوى ، وأن هذا الطلب لم يكن فى وقته المناسب وأن ثمرته إضعاف أمر علىّ لا الثأر الحقيقى لعثمان .

٣ – وأما الزبير فأمره قريب من أمر طلحة وإن لم يبلغ مبلغه فى لدد الخصومة والقوة فيها ، ولعل ابنه عبد الله أوفى منه نصيباً من التبعة .

٤ – وأما السيدة عائشة رضى الله عنها فنقدها عثمان كان أشد عليه لما لها من الحرمة والإجلال ونفاذ الكلمة ، وقد عرف الأمويون وطلحة والزبير ما يكون لدعواهم من القوة إذا نهضت بها معهم عائشة ، وعرفوا ما تكن من الكره لخلافة على ، فما زالوا يفتلون لها فى الذروة والغارب حتى نهضت لما أنهضوها ، وحملت من هذه الفتنة نصيبها ، ويكاد يكون من المقطوع به أن الأمور لم تكن لتصل إلى العاقبة السيئة التى انتهت بها هذه المأساة لو غابت أم المؤمنين عن فتنة الجمل ، ولقد عرف الإمام مصيبته فيها حق المعرفة حين قال : « حاربت خمسة أطوع الناس فى الناس : عائشة »[1] ، لقد كانت السيدة لهذه الفتنة – من حيث لا تريد – روحها ، وكان مقامها فيها أقوى ما حفز الجماهير على التطوع لها ، وعلى تهافتهم على الاستماتة بين يدى جمل عائشة ، وقد كان فى طبعها ولوع عظيم بالبطولة وإعجاب بالشجاعة ومقت للجبن ، لذلك لم تكن تنفك عن تحريض الناس وتقوية قلوبهم ،

---

(١) التمتة فى الأمالى لليزيدى .

وكان لهذا التحريض والتقوية أثرهما البالغ فى الاستماتة بين يديها على ما مر بلك ، ولقد أثر عنها قولها : « إن لله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير — كلما خفقت الريح خفقت فأف للجبناء » . هذا وقد أكثر الناصحون من أخواتها أمهات المؤمنين وأصحاب رسول الله الأجلاء وعقلاء أهل المصرين : البصرة والكوفة ، فلم تستجب لنصح أحد ، ونفذ قضاء الله ، والله سبحانه أعفى النساء من الدخول فيما هو من شأن الرجال ، فلم يكلفهن سياسة ولا إدارة ولا إثارة جماهير ولا تجييش جيوش ولا تأليباً على الخلفاء ، فإن باشرن شيئاً من هذا كان ذلك هو الفتنة عينها ، وكان المجتمع حينئذ يعالج داء دخيلا فى كيانه ينذر بالشر المستطير .

٥ — وأما الإمام فالحق أنه لا يحمل هنا من التبعة شيئاً — لقد فر من الشر فراراً — صبر عليه وطاوله ، وغاب عن وجهه والشر يلاحقه ، وكان أكره الجميع للفتنة ولإراقة الدماء ، لكن المحافظة على وحدة الأمة وواجب القضاء على الفتن ألزماه المبادرة إلى المخالفين ، فأرسل الرسل والمفاوضين وبذل من نفسه خير ما يبذل امرؤ بعيد عن الشر هرّاب منه ، وقد وجه الفريقين إلى الصلح حتى كاد يتم لولا عنصر الشر فى جيشه : السبئيون .

بقى أن أقول قبل أن أختم هذا الموضوع إنه ليس شىء أدل على استفظاع الناس ما قامت عنه فتنة الجمل من حال أصحاب الجمل أنفسهم كما سيأتى بيانه :

١ ــ لقد ندم طلحة ، وأصابته حيرة قاتلة ، وكان يكثر التفكير ويقول : « اللهم خذ منى لعثمان حتى يرضى » .

٢ ــ وكان الزبير أكثر ندماً ويقول : « مغلوب مطلوب يغلبنى ابنى ويطلبنى ذنبى » ، حتى لقد هم بترك القتال فى أوله لولا تعيير ابنه عبد الله وتعيير عائشة . ثم ترك القتال واعتزل .

٣ ــ أما على فقد بينت حسرته لما رأى القتلى وعظم الخسارة بهم .

٤ ــ أما السيدة عائشة فقد قلَّبت صفحات التائبين والنادمين فما رأيت حسرة أشد من حسرتها ، ولا توبة أصدق ولا أخلص من توبتها ، ولا ندماً أعظم إيلاماً من ندمها ، لقد قتلها الندم قتلا ، فما أكثر ما تمنت أن لم تكن خلقت ، وما أكثر ما تمنت أن تكون حجرا أو مدرة ، وكانت تقول : « لأن أكون قعدت فى منزلى عن مسيرى لى البصرة أحب إلى من أن يكون لى عشرة من الولد ــ كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام » .

والظاهر أنها كانت تكثر من هذه الحسرة ، فقد روى الدينورى عنها مثل هذا الحديث ؛ قالت : « وددت لوقعدت فى بيتى ولم أخرج ، هذا الوجه "تعنى إلى البصرة" ، لكان أحب إلىّ من عشرة أولاد و رزقتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم على فضل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعقله وزهده » .

ولقد ذكر عندها يوم الجمل مرة فبكت حتى ظنوا أنها لن تسكت ،

وكانت إذا قرأت قوله تعالى: « وقرن فى بيوتكن . . .) بكت حتى تبلّ خمارها . وعندما وافاها أجلها وقالوا لها : « تدفنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم» ؟ قالت : «لا — إنى قد أحدثت بعده ، ادفنونى مع أزواج النبى فى البقيع » —[١] وكانت أم المؤمنين تقول أيضاً : « ليتنى لم أخلق » ، « يا ليتنى كنت شجرة أسبح وأقضى ما علىّ » ، « والله لوددت أنى كنت شجرة — والله لوددت أنى كنت مدرة » ، « لوددت أن الله لم يكن خالقنى شيئاً قط» ، « ليتنى مت قبل يوم الجمل بعشرين سنة» .

---

(١) الطبرى .

المأساة الثانية

؛مام ومعاوية

نقدم لهذه المأساة بما قاله أستاذنا العميد الدكتور طه حسين
ن المسلمون من أهل المدينة يعرفون مكان العمال الذين أمّرهم عثمان
ى الأمصار . ويقدرون أنهم جميعاً ، أو أن بعضهم على الأقل .
ينكرون الخلافة الجديدة ويجادلون الخليفة فى سلطانه غضباً لعثمان
ى ولاهم ، وكانوا يخافون من هؤلاء العمال بنوع خاص معاوية
ن أبى سفيان عامل عثمان على الشام ، يعرفون قرابته من الخليفة المقتول ،
يعرفون طاعة أهل الشام له لطول إقامته فيهم وإمرته عليهم منذ عهد
ر . وكانوا يعرفون مكانة معاوية من بنى أمية . ويعرفون الخصومة
لديمة بين بنى أمية وبنى هاشم قبل أن يظهر الإسلام . وحين انتقل
ى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بدينهم الجديد إلى المدينة أصبح
سفيان قائد قريش بعد أن قتل قادتها وسادتها يوم بدر . وهو الذى
ن بقريش يوم أحد فثأر لقتلى بدر من المشركين ، وامرأته هند
معاوية هى التى أغرت وحشياً أن قتل حمزة ، فلما قتله أقبلت
ى ميدان الموقعة . وبحثت عن حمزة حتى وجدته بين القتلى ، فبقرت

بطنه واستخرجت كبده فلاكتها . وأبو سفيان هو الذى قاد قريشاً يوم الخندق ، وألب العرب على النبي وأصحابه ، وأغرى اليهود حتى نقضوا عهدهم مع النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ وأبو سفيان هو الذى ظل يدبر مقاومة قريش للنبي وكيدها له ومكرها به حتى كان عام الفتح ، فأسلم حين لم يكن له من الإسلام بد .

ومهما يقل الناس فى معاوية من أنه كان مقرباً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بعد إسلامه ، ومن أنه كان من كتاب الوحى ومن أنه أخلص للإسلام بعد أن ثاب إليه ، ونصح للنبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الثلاثة ، مهما يقل الناس فى معاوية من ذلك ، فقدكان معاوية هو ابن أبى سفيان قائد المشركين يوم أحد ويوم الخندق ، وهو ابن هند التى أغرت بحمزة حتى قتل ، ثم بقرت بطنه ولاكت كبده ، وكادت تدفع الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه إلى الجزع على عمه الكريم ، وكان المسلمون يسمون معاوية وأمثاله من الذين أسلموا بأخرة ومن الذين عفا النبي عنهم بعد الفتح بالطلقاء ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

هذه مقدمة لا بد منها للمأساة الثانية التى جاءت الإمام عليا من بلاد الشام ، وكانت بدون شك أشد هولاً ، ولا تزال آثارها باقية إلى الآن ، فالخصم[1] فى الشام عنيف يحيط به جند أولو قوة وأولو بأس

---

(١) الفتنة الكبرى – عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين .

شديد ، فأما عنف هذا الخصم وهو معاوية فيمكن أن نقدره حين نلاحظ أنه ابن أبي سفيان الذى حارب النبي بعد بدر فأبلى فى حربه أشد البلاء وأقواه ، وأظهر فى هذه الحرب قوة وقسوة وكيداً ودهاء ، ولم يسلم إلا بأخرة حين لم ير من الإسلام بداً ، وحين لم يكن له إلا أن يختار بين الإسلام والموت ، وقد ورث معاوية عن أبيه قوته وقسوته وكيده ودهاءه ومرونته كذلك ، ولم تكن أم معاوية بأقل من أبيه تنكراً للإسلام وبغضاً لأهله وحفيظة عليهم ، وهم قد وتروها يوم بدر ، فثأر لها المشركون يوم أحد ، ولكن ضغنها لم يهدأ وحفيظتها لم تسكن حتى فتحت مكة ، فأسلمت كارهة كما أسلم زوجها كارهاً .

وزيادة على ذلك أن معاوية كان ينتظر الإمام فى ثبات وثقة واطمئنان ، وكان معاوية يسير سيرة أقل ما توصف به — كما يقول أستاذنا العميد الدكتور طه حسين — أنها سيرة الرجل العربي الجواد الداهية ، يعطى الناس ما وسعه إعطاؤهم ، ويصل الذين يريد أن يتألفهم من الرؤساء والقادة لا يجد فى ذلك بأساً ولا جناحاً ، فكان الطامعون يجدون عنده ما يريدون ، وكان الزاهدون يجدون عند على ما يحبون ، أما الإمام فقد كان مؤمناً بالخلافة كما تصورها المسلمون أيام أبي بكر وعمر ، وفى الصدر الأول من خلافة عثمان ، يرى أن من الحق عليه أن يقيم العدل بأوسع معانيه بين الناس لا يؤثر منهم أحداً على أحد ، ويرى أن من الحق عليه أن يحفظ على المسلمين مالهم ،

لا ينفقه إلا بحقه ، فهولا يستبيح لنفسه أن يصل الناس من بيت المال ، بل هو لا يستبيح لنفسه أن يأخذ من بيت المال لنفسه وأهله إلا ما يقيم الأود لا يزيد عليه . جاءه أخوه عقيل بن أبى طالب مسترفداً فقال لابنه الحسن : إذا خرج عطائى فسر مع عمك إلى السوق فاشتر له ثوباً جديداً ونعلين جديدتين .

وكما بينت كان معاوية ينتظر فى اطمئنان لم يتعرض لحرب ، على حين يهتم الإمام بأم المؤمنين ومن معها يريد أن يردهم إلى الطاعة ، وكانت نتيجة حرب الجمل كما بينت أن اقتتل الشيوخ من المهاجرين والأنصار ، فقتل طلحة والزبير وعادت أم المؤمنين إلى المدينة ، وكثر القتل فى أهل البصرة والكوفة ، وبذلك يكون الإمام قد خاض حرباً منكرة قتل فيها من شيعته ومن عدوه خلق كثير .

وكانت سياسة معاوية تعظيم قتل عثمان ، وكان معاوية قد أشار على عثمان قبل قتله برأى قال فيه : «الرأى أن تأذن لى بضرب أعناق هؤلاء القوم ، قال : من ؟ قال : على وطلحة والزبير . قال عثمان : سبحان الله ! . . أقتل أصحاب رسول الله بلا حدث أحدثوه ، ولا ذنب كبوه ؟ قال معاوية : فإن لم تقتلهم فإنهم سيقتلونك . قال عثمان : لا أكون أول من خلف رسول الله فى أمته بإهراق الدماء .

قال معاوية : فاختر منى إحدى ثلاث خصال .

عثمان : ما هى ؟

معاوية : أرتب لك ههنا أربعة آلاف من خيل أهل الشام ، يكونون لك ردءاً وبين يديك يداً .

عثمان : من أين أرزقهم ؟

قال : من بيت المال .

عثمان : أرزق أربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين لحرز دمى ؟ لا فعلت هذا !

قال : فثانية .

قال : وما هى ؟

قال : فرقهم عنك فلا يجتمع منهم اثنان فى مصر واحد ، واضرب عليهم البعوث والندب حتى يكون دبر بعير أحدهم أهم عليه من صلاته .

قال عثمان : سبحان الله ! شيوخ المهاجرين وكبار أصحاب رسول الله وبقية الشورى أخرجهم من ديارهم وأفرق بينهم وبين أهليهم وأبنائهم ؟ لا أفعل هذا .

قال معاوية : فثالثة .

قال : وما هى ؟

قال : اجعل لى الطلب بدمك إن قتلت .

قال عثمان : نعم هذه لك . إن قتلت فلا يطل دمى[١] .

وفى رواية أخرى أن معاوية قال له غير ذلك : اخرج معى إلى الشام قبل أن يهجم عليك مالا تطيقه . قال : لا أبتغى بجوار رسول الله بدلا .

ويعلق الأستاذ العلامة المرحوم العقاد على الآراء التى أشار بها معاوية على الخليفة فيقول : ما من رأى منها إلا النفع فيه ثابت لمعاوية غير ثابت لعثمان ، وربما كان فى معظمها ما يضره ولا يجديه ، فليس قتل على وطلحة والزبير بالأمر الهين الذى يدفع الشر عن الخليفة ، وليس هو بالخطة التى يختارها معاوية لنفسه لو كان فى موضع عثمان ، وقد أعفى معاوية نفسه من التضييق على صعصعة ورهطه كما ضيق عليهم عبد الرحمن بن خالد ، فليس من خطته التى يختارها لنفسه ويحمل تبعتها على عاتقه أن يقتل ثلاثة من أقطاب الصحابة كعلى وطلحة والزبير ، كما أشار على عثمان ، وإنما يبوء عثمان بتبعتها ويترك الأمر من بعده لمعاوية بغير منافس ينافسه عليها بعد مقتل الثلاثة الذين كانوا مرشحين لها عند أهل الحجاز وأهل الكوفة وأهل مصر ، أما أهل الشام فهم فى ولايته لا يعرفون أحداً غيره ينافسه باسمهم عند اختلاف المختلفين ، وليس ثمة مختلفون إذا نفذ القضاء فى الأقطاب المقتولين .

وأما الإشارة على عثمان بإقامة أربعة آلاف من خيل الشام يحرسونه ؛

---

(١) الإمامة والسياسة .

فهو تسليم الحجاز إلى يدى معاوية فى حياة الخليفة وبعد حياته ، فلا يقدر أحد على بيعة فيه غير البيعة التى يرضاها ، ولا تقع هذه البيعة أصلا لمن يستجيب لها أولا يستجيب ، والخروج من المدينة إلى الشام مع معاوية ينقل العاصمة إلى دمشق ، ويجعل القول الفصل بعد موت الخليفة لصاحب القول الفصل فيها ، وما من أحد قط ينتفع من العمل بهذه النصائح غير معاوية فى جميع الحالات ، والدليل على منفعة معاوية بتلك المطالب التى عرضها على الخليفة فى شدته مطلبه أن تكون له ولاية الدم بعد مقتله ، فإنه بمثابة ولاية العهد بإذن صاحب الأمر ؛ إذ كان القصاص إنما يتولاه القائم بالشريعة حيث تقام حدود الدين ، ولم يكن عثمان ليخشى عليه القتل من فرد يعتدى عليه غيلة فيكون عمل ولى الدم أن يقتاده إلى الحاكم القائم بالشريعة ، ولكنه خشى عليه القتل من جماعات ثائرة لا يتولى إدانتها والقصاص منها غير صاحب سلطان أقوى من سلطانها وسلطان من تؤيده وتطيعه على شرطها ، فإذا كان معاوية قد طلب ولاية الدم بعد مقتل عثمان فقد طلب ولاية العهد ، وفارقه وهو يعلم أنه مقتول .

وأوشك الخليفة أن يقتل ، فإذا نظرنا فى أرجاء العالم الإسلامى يومئذ لم نجد أحداً أقدر على نجدته من معاوية ، لأنه الوالى المستقر ولايته منذ عشرين سنة يقصى عنها كل من يعاديه ويبقى فيها كل من يواليه ، وغيره من الولاة فى ذلك العهد بين معزول أو معتزل أو

مهدد فى سلطانه كما هدد الخليفة فى عاصمته ، ومن كان حول الخليفة من أسرياء المدينة لم يكن فى وسعه أن ينصره بقوة أقوى من الدولة وحراسها وأشياعها ، فإذا جمح السفهاء جماحهم الذى يغلب الدولة على قوّتها وهيبتها فحرىّ ألا يصده زاجر ولا ناصح ممن لا يملكون غير الزجر والنصيحة ، وفى تاريخ الخلفاء للسيوطى أن ذوى الجرأة من المعارضين لعثمان يلقون معاوية بهذا اللوم كلما أخذهم باللوم لأنهم لم ينصروه ، ومن هؤلاء أبو الطفيل عامر بن واثلة الصحابى .

قال له معاوية : ألست من قتلة عثمان ؟

قال أبو الطفيل : لا ، ولكننى ممن حضره فلم ينصره .

قال : وما منعك من نصره ؟

قال : لم ينصره المهاجرون والأنصار .

قال معاوية : أما لقد كان واجباً عليهم أن ينصروه ؟

فقال أبو الطفيل : فما منعك يا أمير المؤمنين من نصره ومعك أهل الشام .

فقال معاوية : أما طلبى بدمه نصرة له ؟

فضحك أبو الطفيل ثم قال أنت وعثمان كما قال الشاعر !

لا ألفينك بعد الموت تندبنى وفى حياتى ما زودتنى زادى

ووقعت الوقعة . ومات الخليفة قتيلا . وذهب معاوية يطالب

بدمه ، وينكر على عليّ بيعته لأنه لا يسلمه قتلة عثمان ممن يذكرهم إجمالا أو يسميهم بأسمائهم ، وآل الأمر كله بعد حين إلى معاوية يصنع بهؤلاء ما يشاء ، فلم يأخذ واحداً منهم بجريرة مشهودة ، ولم يحاسب أحداً على جريرة مستورة تتطلب الإشهاد ، وكان يلقى الرجل منهم فلا يزيد على أن يسأله كما سأل أبا الطفيل : ألست من قتلة عثمان ؟ ثم يصرفه فى أمان ، وقد يسكت عن سؤاله ويصرفه مزوداً بالعطاء .

وظهر من مبدأ الخصومة أن الغيرة على عثمان لم تكن تلك الغيرة اللاعجة التى تثير الثائرة وتضرم الحروب ، فإن معاوية قد حالف عمرو بن العاص وكافأه بولاية مصر ، وهى ولاية عزله منها عثمان .

ولم يخف هذا الموقف الذى لا خفاء به على أبناء عثمان وبناته ، فقد قدم معاوية بعد عام الجماعة فدخل دار عثمان بن عفان ، فصاحت عائشة ابنة عثمان وبكت ونادت أباها ، فقال معاوية : يابنة أخى ، ن الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أماناً ، وأظهرنا لهم حلماً تحته غضب ، أظهروا لنا ذلاً تحته حقد ، ومع كل إنسان سيفه ويرى موضع أصحابه ، إن نكثناهم نكثوا بنا ، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا ، ولأن تكونى بنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكونى امرأة من عرض الناس[١] .

فالمطالبة بدم عثمان إنما كانت — كما يقول المرحوم الأستاذ عباس

---

(١) العقد الفريد .

العقاد ـ قضية قائمة حين كانت لازمة للتحريض على علىّ وبث الدعوة والتمكين لمعاوية ، فلما تمكن واستطاع ما لم يكن فى وسع على أن يفعله سكت عن الثأر وحديثه ، إلا ما كان من قبيل الحوار العقيم فى المجالس ، وقبل من نفسه العذر ضعيفاً هزيلا ، ولم يكن يقبله قويًّا معززاً بالواقع والبينة ممن لا لوم عليه ؛ وأخيراً فإن كل ما فعله معاوية من نصرة عثمان قبل مقتله وبعده ثابت النفع لمعاوية غير ثابت النفع لعثمان ، وبذلك تكون الثورة التى ثارها معاوية باسم عثمان ثورة فى طلب الملك أعوزتها الحجة فالتمسها من مقتل الخليفة الشهيد ! !

رسول الإمام إلى معاوية :

بعث الإمام على جرير بن عبد الله البجلى إلى معاوية ، وانطلق جرير حتى أتى الشام ، ودخل على معاوية فقال : « أما بعد يا معاوية فقد اجتمع لابن عمك أهل الحرمين وأهل المصريين وأهل الحجاز واليمن ومصر وأهل العروض وعمان وأهل البحرين واليمامة ، ولم يبق إلا هذه الحصون التى أنت بها لو سال عليها سيل من أوديته غرقها ، وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك إلى مبايعة هذا الرجل ، ودفع إليه كتاب الإمام على وفيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم » سلام عليك . أما بعد فإن بيعتى بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ، لأنه بايعنى الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ،

على ما بويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضاً ، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً ، وإن طلحة والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتى وكان نقضهما كردهما ، فجاهدتهما بعد ما أعذرت إليهما ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإن أحب الأمور إلىّ قبولك العافية ، إلا أن تتعرض للبلاء ، فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت الله عليك ، وقد أكثرت فى قتلة عثمان ، فأدخل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكم القوم إلىّ أحملك وإياهم على كتاب الله ، وأما تلك التى تريدها فخدعة الصبى عن اللبن ، ولعمرى لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبرأ قريش من دم عثمان ، واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يدخلون فى الشورى ، وقد أرسلت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله وهو من أهل الإيمان والهجرة ، فبايعه ، ولا قوة إلا بالله » .

فكتب معاوية رسالة أرسلها إلى الإمام على مع أبى مسلم عبد الرحمن جاء فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم . من معاوية بن أبى سفيان إلى على بن أبى طالب . أما بعد فإن الله اصطفى محمداً بعلمه ، وجعله الأمين على وحيه والرسول إلى خلقه ، ثم اجتبى له من المسلمين أعواناً

أيده بهم فكانوا فى المنازل عنده على قدر فضائلهم فى الإسلام ، وكان أنصحهم لله ورسوله خليفته ثم خليفة خليفته ثم الخليفة الثالث المقتول ظلماً عثمان ، فكلهم حسدت ، وعلى كلهم بغيت ، عرفنا ذلك فى نظرك الشزر وقولك الهجر . وتنفسك الصعداء ، وإبطائك عن الخلفاء ، فى كل ذلك تقاد كما يقاد الجمل المخشوش ، ولم يكن لأحد منهم أشد حسداً منك لابن عمتك ، وكان أحقهم ألا تفعل به ذلك لقرابته وفضله ، فقطعت رحمه ، وقبحت حسنه ، وأظهرت له العداوة ، وأبطنت له الغش ، وألبت الناس عليه حتى ضربت آباط الإبل إليه من كل وجه ، وقيدت الخيل من كل أفق ، وشهر عليه السلاح فى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتل معك فى المجلّة وأنت تسمع الهائعة لا تدرأ عنه بقول ولا فعل ، ولعمرى يابن أبى طالب لو قمت فى حقه مقاماً تنهى الناس فيه عنه وتقبح لهم ما اهتبلوا منه ما عدل بك من قبلنا من الناس أحداً ، ولمحا ذلك عندهم ما كانوا يعرفونك به من المجانبة له والبغى عليه ، وأخرى أنت بها عند أولياء ابن عفان ظنين : إيواؤك قتلته فهم عضدك ويدك وأنصارك ، وقد بلغنى أنك تنتفى من دم عثمان وتتبرأ منه ، فإن كنت صادقاً فادفع إلينا قتلته نقتلهم به ، ثم نحن أسرع الناس إليك ، وإلا فليكن بيننا وبينك السيف ، ووالذى لا إله غيره لنطلبن قتلة عثمان فى الجبال والرمال والبر والبحر حتى نقتلهم أو تلحق أرواحنا بالله ، والسلام » .

ومن هذا الخطاب المملوء بالمغالطات نرى :

١ ــ أن معاوية لم يكن يريد السلم .

٢ ــ أن معاوية اتهم الإمام بحسد الخلفاء وعدم الإسراع فى بيعتهم ، وأنه لم يبايع إلا مضطرًّا .

٣ ــ أنه يتهم أيضاً الإمام بحسد ابن عمته والقعود عن نجدته حتى ضيق عليه الثائرون به .

٤ ــ يطلب معاوية من الإمام أن يثبت براءته من دم عثمان بتسليم قاتليه .

٥ ــ أنه تحدى الإمام بزعمه للإمام أنه إذا دفع إليه قتلة عثمان أسرع ومعه أهل الشام إلى بيعته .

وقد بينت فيما سبق بالتفصيل أن تلك الغيرة على عثمان لم تكن إلا حجة فقط لكى يستتر بها مهاجمته للإمام ، كما بينت أن هذا الموقف لم يكن خافياً على أبناء عثمان ولا على الناس جميعاً .

الإمام يرفض ويرد :

وقد رفض الإمام ما طلبه معاوية ، ورد بالكتاب الذى قال فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله على أمير المؤمنين إلى معاوية ابن أبى سفيان : أما بعد ، فإن أخا خولان قدم علىّ بكتاب منك تذكر

فيه محمداً وما أكرمه الله به من الهدى والرحمن ، فالحمد الله الذى صدق له الوعد ومكن له فى البلاد وأظهره على الدين كله ، وقمع به أهل العداوة والشنآن من قومه الذين كذبوه وشنعوا عليه ، وظاهروا عليه وعلى إخراج أصحابه ، وقلبوا له الأمور حتى ظهر أمر الله وهم له كارهون ، فكان أشد الناس عليه الأدنى فالأدنى من قومه إلا قليلا ممن عصم الله .

وذكرت أن الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه اختار له من المؤمنين أعواناً أيده بهم فكانوا فى منازلهم عنده على قدر فضائلهم فى الإسلام ، فكان أفضلهم خليفته وخليفة خليفته من بعده ، ولعمرى إن مكانهما من الإسلام لعظيم ، وإن المصاب بهما لرزء جليل . وذكرت أن ابن عفان كان فى الفضل ثالثاً ، فإن يكن عثمان محسناً فسيلقى رباً شكوراً يضاعف الحسنات ويجزى بها ، وإن يكن مسيئاً فسيلقى رباً غفوراً رحيماً لا يتعاظمه ذنب أن يغفره وإنى لأرجو — إذا أعطى الله المؤمنين على قدر أعمالهم — أن يكون قسمنا أوفر قسم أهل بيت من المسلمين .

إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم فدعا إلى الإيمان بالله والتوحيد له ، فكنا أهل البيت أول من آمن وأناب ، فكثنا وما يعبد الله فى ربع سكن من أرباع العرب أحد غيرنا ، فبغانا قومنا الغوائل وهموا بنا الهموم ، وألحموا بنا الوسائط ، واضطرونا إلى شعب ضيق وضعوا علينا فيه المراصد ، ومنعونا الطعام والماء العذب ، وكتبوا بينهم كتاباً ألا يؤاكلونا ولا يشاربونا ولا يُبايعونا ولا يناكحونا ولا يكلمونا أو ندفع إليهم نبينا فيقتلوه

أو يمثلوا به ، وعزم الله لنا على منعه والذب عنه وسائر من أسلم من قريش أخلياء مما نحن فيه، منهم من حليف ممنوع وذى عشيرة لا تبغيه كما بغانا قومنا، فهم من التلف بمكان نجوة وأمن . فمكثنا بذلك ما شاء الله .

ثم أذن الله لرسوله فى الهجرة وأمره بقتال المشركين ، فكان إذا حضر البأس ودُعيت نزال قدم أهل بيته فوقّى بهم أصحابه . فقتل عبيدة يوم بدر ، وحمزة يوم أحد ، وجعفر يوم مؤتة ، وتعرض من .و شئت أن أسميه سميته لمثل ما تعرضوا له من الشهادة ، لكن آجالهم حضرت ومنيته أخرت .

وذكرت إبطائى عن الخلفاء وحسدي لهم ، فأما الحسد فمعاذ الله ن أكون أسررته أو أعلنته ، وأما الإبطاء فما أعتذر إلى الناس منه ، لقد أتانى أبوك حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وبايع الناس ا بكر فقال : " أنت أحق الناس بهذا الأمر ، فابسط يدك أبايعك" ، ند علمت ذلك من قول أبيك . فكنت الذى أبيت ذلك مخافة الفرقة نرب عهد الناس بالكفر والجاهلية ، فإن تعرف من حقّى ما كان أبوك رفه تصب رشدك ، وإلا تفعل فسيغنى الله عنك .

وذكرت عثمان وتأليبى الناس عليه ، وإن عثمان صنع ما رأيت ، كب الناس منه ما قد علمت ، وأنا من ذلك بمعزل إلا أن تتجنى ، جنّ ما بدا لك . وذكرت قتلته بزعمك وسألتنى دفعهم إليك وما أعرف

له قاتلا بعينه ، وقد ضربت الأمر إلى أنفه وعينيه فلم أره يسعى دفع من قبلى ممّن اتهمته وأظننته إليك . ولئن لم تنزع عن غيلك وشقائك لتعرفن الذين تزعم أنهم قتلوه طالبين لا يكلفونك طلبهم فى سهل ولا جبل . . والسلام» .

وظاهر من هذا الكتاب أن الإمام عليًّا رضى الله عنه يريد أن يبرز أن أهل البيت احتملوا فى الإسلام ما لم يحتمل غيرهم وما لم يحتمل أبو بكر وعمر وعثمان خاصة ، فهم لم يحصروا ، ولم يهجروا ، ولم يضيق عليهم فى الرزق ، فأهل البيت إذاً أولى الناس بالنبى ، وأحقهم بالأمر بعده . ثم ذكر الهجرة وما كان من القتال فى سبيل الله وذكر أن النبى ، كان يقدم أهل بيته لحماية أصحابه فى مواطن البأس[١] .

الحرب

وأخيراً تبين لأهل الشام وأهل العراق أن الحرب قائمة لا شك فيها ؛ يرى أهل الشام أن يثأروا للخليفة المظلوم ، ويرى أهل العراق ومن معهم من المهاجرين والأنصار أن يكرهوا أهل الشام على البيعة والطاعة قبل كل شىء ، ويرى أهل الشام أن طاعة على لا تلزمهم لأن الناس لم يبايعوه عن رضا منهم جميعاً ولأنه عطل حدًّا خطيراً من حدود الله وهو القصاص ممن قتل الخليفة المظلوم ، ويرى أهل العراق ومن

---

(١) الفتنة الكبرى للأستاذ الدكتور طه حسين .

معهم من المهاجرين والأنصار أن كثرة المسلمين الضخمة قد بايعت علياً فى الحرمين والمصرين وفى مصر أيضاً فأصبحت طاعته واجبة ، وأصبح أهل الشام طائفة باغية يجب أن تقاتل حتى تفىء إلى أمر الله .

رسالة الإمام إلى عماله

كتب الإمام على رضى الله عنه إلى عماله فى الآفاق يأمرهم بالمسير إليه ، ويحث الناس على الجهاد معه ، فكتب إلى مخنف بن سليم عامله على أصبهان وهمذان : إذا أتيت بكتابى هذا فاستخلف على عملك أوثق أصحابك فى نفسك وأقبل إلينا . وكتب إلى عبد الله بن عباس : أما بعد فأشخص إلى من قبلك من المسلمين والمؤمنين ، وذكرهم بلائى عندهم وعفوى عنهم ، واستبقائى لهم ، ورغبهم فى الجهاد وأعلمهم الذى لهم فى ذلك من الفضل . فقرأ عليهم ابن عباس كتاب على عليه السلام . وقال أيها الناس استعدوا للمسير إلى إمامكم وانفروا فى سبيل الله خفافاً وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم .

وقال هاشم بن عتبة : « سر بنا يا أمير المؤمنين إلى هؤلاء القوم القاسية قلوبهم ، الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وعملوا فى عباد الله بغير رضا الله ، فأحلوا حرامه وحرموا حلاله ، واستولاهم الشيطان ، ووعدهم الأباطيل ، ومناهم الأمانى حتى أزاغهم عن الهدى ، وقصد بهم قصد الردى ، وحبب إليهم الدنيا فهم يقاتلون على دنياهم رغبة

فيها كرغبتنا فى الآخرة ، وأنت يا أمير المؤمنين أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وسلم رحماً ، وأفضل الناس سابقة وقدماً ، وهم يعلمون منك مثل الذى علمنا ، ولكن كتب عليهم الشقاء ، ومالت بهم الأهواء ، وكانوا ظالمين ، فأيدينا مبسوطة لك بالسمع والطاعة ، وقلوبنا منشرحة ببذل النصيحة ، وأنفسنا بنورك جذلة على من خالفك وتولى الأمر دونك ، والله ما أحب أن لى ما فى الأرض مما أقلت وما تحت السماء مما أظلت ، وأنى واليت عدواً لك أو عاديت ولياً لك » .

فقال علىّ عليه السلام : « اللهم ارزقه الشهادة فى سبيلك والمرافقة لنبيك صلى الله عليه وسلم » .

وصعد الإمام المنبر وقال : « اعلموا أن الله جعل أمراس الإسلام متينة ، وعراه وثيقة ، ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سفه نفسه ، وتناول ما ليس له ، ومالا يدركه : معاوية وجنده الفئة الباغية الطاغية ، يقودهم إبليس ويدليهم بغروره ، فلا أعرفن أحداً منكم تقاعس عنى فإن الذود إلى الذود إبل — ومن لم يذد عن حوضه يتهدم . ثم إنى آمركم بالشدة فى الأمر والجهاد فى سبيل الله وألا تغتابوا مسلماً وانتظروا النصر العاجل من الله إن شاء الله » .

ماذا قال الحسن والحسين

وقام الحسن بن على عليهما السلام خطيباً — وقال : « إن مما عظم الله عليكم من حقه ، وأسبغ عليكم من نعمه مالا يحصى ذكره ، لا يؤدى

نره ولا تبلغه صفة ولا قول ، ونحن إنما غضبنا لله ولكم ، فإنه لم يجتمع م قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم ، واستحكمت عقدتهم ، تتشدوا فى قتال عدوكم معاوية وجنوده ، ولا تخاذلوا فإن الخذلان لمع نياط القلوب ، وإن الإقدام على الأسنة نجدة وعصمة ، لأنه يمتنع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة ، وكفاهم جوائح الذلة ، وهداهم ، معالم الملة .

الصلح تأخذ منه ما رضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع»

وقام الإمام الحسين فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : «يا أهل كوفة ، أنتم الأحبة الكرماء ، الشعار دون الدثار ، جدّوا فى إحياء ثر دينكم ، وإسهال ما توعر عليكم ، ألا إن الحرب شرها ذريع ، طعمها فظيع ، وهى جرع متحساة ، فمن أخذ لها أهبتها فذاك صاحبها ، بن عاجلها قبل أوان فرصتها فذاك قمن ألا ينفع قومه ويهلك نفسه .

لقتال على الماء

سار الإمام على فى جيشه الكبير . وكان معاوية قد سبقه وأنزل أصحابه فى صفين ، ولكن أصحاب على لم يجدوا على الفرات شريعة يستقون منها ، ودعا الإمام صعصعة بن صوحان فقال : ائت معاوية فقل إنا سرنا مسيرنا هذا وأنا أكره قتالكم قبل الإعذار إليكم ، وإنك قد قدمت بخيلك تقاتلنا قبل أن نقاتلك ، وبدأتنا بالقتال ، ونحن من

رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك . وهذه أخرى قد فعلتموه حلتم بين الناس وبين الماء ، فخل بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم . وإن كان أحب إليك أن تدع ما جئنا له وندع الناس يقتتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا . فقال معاوية لأصحابه : ما ترون ؟ قال الوليد بن عقبة : امنعهم الماء كما منعوه ابن عثمان ، حصروه أربعين يوماً يمنعونه الماء ولين الطعام ، اقتلهم عطشاً قتلهم الله . وقال عمرو بن العاص : خل بين القوم وبين الماء ، فإنهم لن يعطشوا وأنت ريان ، ولكن لغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم . فأعاد الوليد مقالته،وقال عبد الله بن سعد بن أبي سفيان وهو أخو عثمان من الرضاعة : امنعهم الماء إلى الليل فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا ، وكان رجوعهم هزيمتهم ، امنعهم الماء منعهم الله إياه يوم القيامة .

فقال صعصعة : «إنما يمنعه الله يوم القيامة الكفرة الفجرة شربة الخمر» . فهاج عليه أنصار معاوية ، فقال لهم : كفوا عن الرجل فإنه رسول ، فقال صعصعة لمعاوية : هل لك أن ترد عليّ ؟ قال : سيأتيكم رأيي . فوالله ما راعنا إلا تسوية الرجال والخيل والصفوف ، فأرسل إلى أبي الأعور : امنعهم الماء . وقال السليل ابن عمرو يخاطب معاوية :

امنع الماء من صحاب على   أن يذوقوه والذليل ذليل

واقتل القوم مثلما قتل الشـ يخ ظمأً والقصاص أمر جميل
فامنع القوم ماءكم ليس للقو م بقاء وإن يكن فقليل

وفرح أهل الشام بالغلبة على الماء . فقال معاوية يأهل الشام هذا والله أول الظفر ، لا سقانى الله ولا سقى أبا سفيان إن شربوا منه أبداً حتى يقتلوا بأجمعهم عليه . وتباشر أهل الشام ، فقام إلى معاوية رجل من أهل الشام يقال له المعرى الهمدانى — وكان ناسكاً وكان له لسان ، وكان صديقاً ومؤاخياً لعمرو بن العاص — فقال : يا معاوية ، سبحان الله أن سبقتم القوم إلى الفرات فغلبتموهم عليه تمنعونهم عنه ، أما والله لو سبقوكم إليه لسقوكم منه ، أما تعلمون أن فيهم العبد والأمة والأجير والضعيف ومن لا ذنب له ! هذا والله أول الجور . لقد شجعت الجبان ، وبصرت المرتاب ، وحملت من لا يريد قتالك على كتفيك . فأغلظ له معاوية وقال لعمرو : اكفنى صديقك . فأتاه عمرو فأغلظ له ، فقال الهمدانى فى ذلك :

لعمر أبى معاوية بن حرب وعمرو ما لدائهما دواء
سوى طعن يحار العقل فيه وضرب حين تختلط الدماء
فلست بتابع دين ابن هند طوال الدهر ما أرسى حراء
لقد ذهب العتاب فلا عتاب وقد ذهب الولاء فلا ولاء
وقولى فى حوادث كل أمر على عمرو وصاحبه العفاء
ألا لله درك يابن هند لقد ذهب الحياء فلا حياء

أتحمون الفرات على رجال   وفى أيديهم الأسل الظماء
وفى الأعناق أسياف حداد   كأن القوم عندكم نساء
فترجو أن يجاوركم على   بلا ماء وللأحزاب ماء

وتوجه الأشعث إلى الإمام على وقال : يا أمير المؤمنين ، أيمنعنا القوم ماء الفرات وأنت فينا ومعنا السيوف ، خل عنا وعن القوم ، فوالله لا نرجع حتى نرده أو نموت . ونادى الأشتر فى الناس من كان يريد الموت أو الماء فميعاده الصبح فإنى ناهض إلى الماء ، فأتاه من ليلته اثنا عشر ألف رجل ، وشد عليه سلاحه وهو يقول :

ميعادنا اليوم بياض الصبح   هل يصلح الزاد بغير ملح
لا لا ولا أمر بغير نصح   دبوا إلى القوم بطعن سمح
لا صلح للقوم وأين صلحى   حسبى من الإقحام قاب رمح

وطلب الأشعث من الجنود أن يقتحموا الخيل ، فاقتحموها حتى وضعت سنابكها فى الفرات ، وأخذت القوم السيوف فولوا مدبرين ، فقال الإمام هذا يوم نصرنا فيه الأشعث بالحمية ، وقال الأشعث : يا أمير المؤمنين ، قد غلب الله لك على الماء .

وقال عمرو بن العاص لمعاوية : ما أظنك بالقوم إن منعوك الماء اليوم كما منعتهم أمس ! أتراك ضاربهم عليه كما ضاربوك عليه ، وما أغنى عنك أن تكشف لهم السوأة .

قال : دع عنك ما مضى . ما ظنك بعلى ؟ قال ظنى أنه لا يستحل

منك ما استحللت منه ، وأن الذى جاء له غير الماء . فلما غلب عليّ على الماء ، فطرد عنه أهل الشام ، بعث إلى معاوية : إنا لا نكافيك صنعك ، هلم إلى الماء فنحن وأنتم فيه سواء ، فأخذ كل منهما بالشريعة ما يليه . وقال على لأصحابه إن الخطب أعظم من منع الماء . وقال معاوية : لله در عمرو ما عصيته فى أمر إلا أخطأت الرأى فيه .

الإمام يراسل معاوية بصفّين

ودعا الإمام رضى الله عنه بشير بن عمرو الأنصارى وسعيد بن قيس الهمدانى وشبث بن ربعى التميمى : وقال لهم : ائتوا هذا الرجل ادعوه إلى الله عز وجل وإلى الطاعة والجماعة وإلى اتباع أمر الله تعالى . قال له شبث : ألا تطمعه فى سلطان توليه إياه ومنزلة تكون له بها ثرة عندك إن هو بايعك ؟

قال على : ائتوه الآن فالقوه واحتجوا عليه وانظروا ما رأيه .

وتوجه رسل الإمام إلى معاوية — وقال له بشير بن عمرو : يا معاوية ن الدنيا عنك زائلة ، وإن الله مجازيك بعملك ، وإنى أنشدك الله ن تفرق جماعة هذه الأمة وتسفك دماءها بينها . . .

فقطع معاوية عليه الكلام فقال : هلا أوصيت بذلك صاحبك ! !

فقال عمرو الأنصارى : سبحان الله ! إن صاحبي ليس مثلك ،

إن صاحبي أحق البرية بهذا الأمر فى الفضل والدين والسابقة فى الإسلام والقرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال معاوية : فيقول ماذا ؟

قال : أدعوك إلى تقوى ربك . وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق ، فإنه أسلم لك فى دينك ، وخير لك فى عاقبة أمرك .

قال معاوية : ويطل دم عثمان ، لا والرحمن لا أفعل ذلك أبداً .

وقال شبث بن ربعي : يا معاوية . إنه لا يخفى علينا ما تقرب وما تطلب ، إنك لا تجد شيئاً تستهوى به الناس إلا أن قلت لهم قتل إمامكم مظلوماً فهلموا نطلب بدمه ، فاستجاب لك سفهاء رذال ، وقد علمنا أنك أبطأت عليه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التى تطلب . ورب مبتغ أمراً يحول الله دونه . وربما أوتى المتمنى أمنيته وربما لم يؤتها ، والله ما لك فى واحدة منهما خير . والله إن أخطأك ما ترجو إنك لشر العرب حالا . ولئن أصبت ما تتمناه لا تصيبه حتى تستحق صلا النار . فاتق الله يا معاوية ولا تنازع الأمر أهله .

معاوية : إنى أول ما عرفت به سفهك وخفة حلمك قطعك على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقه ، ثم عتبت بعد فيما لا علم لك به ، ولقد كذبت ولؤمت أيها الأعرابى الجلف الجافى فى كل ما وصفت وذكرت . انصرفوا من عندى فليس بينى وبينكم إلا السيف .

واستمرت المراسلة بين الإمام على ومعاوية ثلاثة أشهر ، وليسر

عند معاوية شىء يقوله للإمام سوى مقتل عثمان وأن الإمام قتل عثمان
ـيطلب تسليم قتلته وقيل إن المراسلة بينهما استمرت خمساً وثمانين مرة
ـ ثلاثة أشهر إلى أن دخل أبو أمامة الباهلى وأبو الدرداء على معاوية
قالا : علام تقاتل هذا الرجل ؟ ! فو الله لهو أقدم منك ، وأحق
ـذا الأمر منك ، وأقرب من النبى صلى الله عليه وسلم ، فعلام تقاتله ؟
كان جوابه كالعادة : أقاتله على دم عثمان وأنه أوى قتلته ، فقولا له
يقدنا من قتلته وأنا أول من بايعه ، فانطلقا إلى على فأخبراه فقال :
م الذين ترون ، فخرج عشرون ألفا أو أكثر مسربلين فى الحديد لا يرى
ـهم إلا الحدق فقالوا : كلنا قتلته ، فإن شاءوا فليروموا ذلك منا ،
ـجع أبو أمامة وأبو الدرداء فلم يشهدا شيئاً من القتال ، حتى إذا كان
ـهر رجب وخاف معاوية أن يبايع الناس عليّاً على القتال أخذ فى
لكر وأخذ يحتال .

على أنه بمجرد أن انسلخ شهر المحرم واستقبل صفر سنة ٣٧
ـث على نفراً من أصحابه حتى إذا كانوا فى عسكر معاوية نادى مرثد
ـن الحارث الجشمى : يأهل الشام ، إن أمير المؤمنين على بن أبى طالب
صحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون لكم إنا والله ما كففنا
ـنكم شكّاً فى أمركم ولا بغياً عليكم ، وإنما كففنا عنكم لخروج المحرم
انسلخ ، وإنا قد نبذنا إليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين .
وفى رواية) أمره فنادى . يأهل الشام ، ألا إن أمير المؤمنين يقول

لكم : إنى قد استنبذتكم واستأنيتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه ، واحتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه فلم تتناهوا عن طغيان ، ولم تجيبوا إلى حق ، وإنى قد نبذت إليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين .

فثار الناس إلى أمرائهم ورؤسائهم ، وخرج معاوية وعمرو بن العاص يكتبان الكتائب وأوقدوا النيران وجاءوا بالشموع ، وبات الإمام ليلته كلها يعبئ الناس ويكتب الكتائب ويدور فى الناس ويحرضهم .

وكان الإمام يأمر عساكره فى كل موطن لقوا معه عدوه فيقول : لا تقاتلوا القوم حتى يبدءوكم فإنكم بحمد الله على حجة وترككم إياهم حتى يبدءوكم ، وإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل ، فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذنى ، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم فى عسكرهم ، ولا تهيجوا امرأة إلا بإذنى ، وإن شتمن أعراضكم وتناولن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف القوى والأنفس والعقول ، ولقد كنا لنؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات ، وإن كان الرجل ليتناول المرأة فى الجاهلية بالهراوة فيعير بها عقبه من بعده .

وسمع من الإمام على رضى الله عنه أيام الجمل وصفين والنهروان أنه كان يقول للناس : عباد الله ، اتقوا الله عز وجل وغضوا الأبصار واخفضوا الأصوات وأقلوا الكلام ، ووطنوا أنفسكم على المنازلة والمجادلة

والمبارزة والمعانقة والمكادمة ، واثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين . اللهم ألهمهم الصبر ، وأنزل عليهم النصر ، وأعظم لهم الأجر .

القتال

فى يوم الأربعاء أول صفر سنة ٣٧ ابتدأ القتال العنيف فخرج من أهل الكوفة الأشتر وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة ، فاقتتلوا قتالا شديداً جل النهار ثم تراجعوا وقد انتصف بعضهم من بعض ، ثم خرج هاشم بن عتبة فى خيل ورجالة حسن عددها وعدتها ؛ وخرج إليه من أهل الشام أبو الأعور السلمى فاقتتلوا يومهم ذلك تحمل الخيل على الخيل والرجال على الرجال ثم انصرفوا وقد صبر القوم بعضهم لبعض ، وخرج فى اليوم الثالث عمار بن ياسر وخرج عمرو بن العاص فاقتتل الناس كأشد القتال وجعل عمار يقول : يأهل الإسلام ، أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهدهما وبغى على المسلمين وظاهر المشركين ، فلما أراد الله أن يظهر دينه وينصر رسوله أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم . وهو والله فيما يرى راهب غير راغب ، وقبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم وإنا والله لنعرفه بعداوة المسلم ومودة المجرم ، ألا وإنه معاوية . وكان مع عمار زياد بن النضر على الخيل ، فأمره أن يحمل فى الخيل فحمل ، وصبروا له ، وشد عمار فأزل عمرو

ابن العاص عن موقفه ، وبارز زياد بن النضر أخاً من أمه من بني عامر وهو معاوية بن عمرو العقلي ، وخرج محمد بن علي بن أبي طالب وخرج إليه عبيد الله بن عمر بن الخطاب في جمعين عظيمين ، فاقتتلوا كأشد القتال ، ثم إن عبيد الله بن عمر أرسل إلى محمد بن الحنفية أن اخرج إلى أبارزك ، قال له : نعم ، ثم خرج إليه يمشي ، فبصر به علي ، فقال : من هذان المتبارزان ؟ فقيل له : ابن الحنفية وابن عمر ، فحرك عليّ دابته ثم دعا محمداً فوقف له وقال : أمسك دابتي ، فأمسكها ثم مشى إليه علي فقال : أنا أبارزك ، قال ليس لي في مبارزتك حاجة ، وأخذ ابن الحنفية يقول لأبيه : منعتني من مبارزته ، فوالله لو تركتني لرجوت أن أقتله ، قال : يا بني لو بارزته أنا لقتلته ، ولو بارزته أنت لرجوت من أخذ بها لحق ومن تركها مرق ومن فارقها محق . نحن أهل بيت الرحمة وقولنا الصدق ومن فعالنا القصد ، ومنا خاتم النبيين وفينا قادة الإسلام ومنا قراء الكتاب ، ندعوكم إلى الله وإلى رسوله وإلى جهاد عدوه والشدة في أمره وابتغاء رضوانه ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصيام شهر رمضان وتوفير الفيء لأهله ، ألا وإن من أعجب العجب أن معاوية بن أبي سفيان الأموي وعمرو بن العاص السهمي أصبحا يحرضان الناس على طلب الدين بزعمهما ، وقد علمتم أني لم أخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ، ولم أعصه في أمر قط ، أقيه بنفسي في المواطن التي ينكص فيها الأبطال وترعد فيها الفرائص

نجدة أكرمني الله بها فله الحمد ، ولقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن رأسه لفي حجري ولقد وليت غسله بيدي وحدي تقلبه الملائكة المقربون معي ، وايم الله ما اختلفت أمة قط بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها إلا ما شاء الله .

وفي ليلة الأربعاء قال الإمام في خطبة أخرى : ألا إنكم ملاقو العدو غداً إن شاء الله ، فأطيلوا الليلة القيام ، وأكثروا تلاوة القرآن ، واسألوا الله الصبر والنصر ، والقوهم بالجد والحزم وكونوا صادقين .

ثم انصرف ووثب الناس إلى سيوفهم ورماحهم يصلحونها ، ولما كان الليل بعث الإمام منادياً فنادى : يأهل العراق ، اغدوا على مصافكم نصبح أهل الشام في عسكرهم ؛ ونادى معاوية : أين الجند المقدم ؟ فخرج أهل حمص في راياتهم عليهم أبو الأعور السلمى ، ثم نودى : أين أهل الأردن ؟ فخرجوا في راياتهم عليهم سفيان بن عمرو السلمى ، وفي اليوم الخامس خرج عبد الله بن العباس والوليد بن عقبة فاقتتلوا قتالاشديداً ، ودنا ابن عباس من الوليد فأخذ الوليد يسب بني عبدالمطلب ، فأرسل إليه ابن عباس أن ابرز إلى فأبى ، وقاتل ابن عباس يومئذ قتالا شديداً ، ثم انصرفوا ، ثم خرج شمر بن أبرهة بن الصباح الحميرى في ذلك اليوم فلحق بعلى ، ومعه وفد من أهل الشام ، فلما رأى ذلك معاوية وعمرو بن العاص وما خرج إلى الإمام من قبائل أهل الشام فت ذلك في عضد معاوية وعمرو ، وقال الأخير : يا معاوية ، إنك

تريد أن تقاتل بأهل الشام رجلا له من محمد صلى الله عليه وسلم قرابة قريبة ورحم ماسة وقدم فى الإسلام لا يعتد أحد بمثلها ، ونجدة فى الحرب لم تكن لأحد من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؟ إنه قد سار إليك بأصحاب محمد المعدودين وفرسانهم وقرائهم وأشرافهم ، وقدمائهم فى الإسلام ولهم فى النفوس مهابة ، ومهما نسيت فلا تنس أنك على باطل . وعندما سمع معاوية ذلك حاول أن يخطب فى أهل الشام ، وكذلك حاول عمرو بن العاص بعده .

وعندما علم الإمام بما قاله معاوية وعمرو بات ليلته كلها يعبئ الناس حتى إذا أصبح زحف بالناس . وخرج إليه معاوية وأهل الشام ، وتقابل القوم ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، وانصرفوا عند المساء ، وكل غير غالب ، وأخذ الإمام يحرض أصحابه ويوصيهم وصايا مهمة فى الحرب فقال : « إن الله قد دلكم على تجارة تنجيكم من العذاب : إيمان بالله ورسوله وجهاد فى سبيله ، وجعل ثوابه مغفرة الذنوب ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ، وأخبركم بالذى يحب فقال : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص . فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص ، وقدموا المدرع ، وأخروا الحاسر ، وعضوا على الأضراس فإنه أنبى للسيوف عن الهام ، وأميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل وأولى بالوقار ، والتووا فى أطراف الرماح فإنه أمرر للأسنة ، وراياتكم فلا تميلوها ولا تزيلوها ولا تجعلوها إلا فى أيدى شجعانكم المانعى

الدمار ، وايم الله لئن فررتم من سيف العاجلة لا تسلمون من سيف الآخرة ، واستعينوا بالصدق والصبر فإنه بعد الصبر ينزل النصر» .

وطلب معاوية إلى عمرو بن العاص أن يسوى صفوف أهل الشام ، فقال له عمرو : على أن لى حكمى إن قتل الله ابن أبى طالب واستوسقت لك البلاد .

فقال معاوية : أليس حكمك فى مصر ؟

قال عمرو : وهل مصر تكون عوضاً عن الجنة وقتل ابن أبى طالب ثمناً لعذاب النار ؟ !

معاوية : إن لك حكمك أبا عبد الله إن قتل ابن أبى طالب . رويداً لا يسمع أهل الشام كلامك .

فقال عمرو موجهاً الكلام لأهل الشام : « سووا صفوفكم ، وأعيروا ربكم جماجمكم ، وجاهدوا عدو الله وعدوكم ، واقتلوهم قتلهم الله وأبادهم ، واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء والعاقبة للمتقين» .

ولم يكتف معاوية بذلك بل لجأ إلى « ذى الكلاع » وطلب منه أن يحرض الناس على قتال الإمام ، وكان من أخطر أصحاب معاوية ففعل وكان مما قاله : كان مما قضى الله أن ضم بيننا وبين أهل ديننا صفين ، وإنا لنعلم أن فيهم قوماً كانت لهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقة ذات شأن . وخطر عظيم ، ولكننى ضربت الأمر ظهراً وبطناً فلم يسعنى أن يهدر دم عثمان . . .

وأقبل ذو الكلاع فى حمير ومن لف لفها ومعه عبيد الله بن عمر ابن الخطاب فى أربعة آلاف من قراء أهل الشام ، قد بايعوا على الموت وهى ميمنة أهل الشام وعليها ذو الكلاع ، فحملوا على ربيعة وهى ميسرة أهل العراق وعليها عبد الله بن العباس حملة شديدة ، فتضعضعت رايات ربيعة ، وانصرف أهل الشام فلم يلبثوا إلا قليلا حتى كروا وعبيد الله بن عمر يقول :

يأهل الشام هذا الحى من أهل العراق قتلة ابن عفان وأنصار على ، وقد أدركتم ثأركم فى عثمان وهلك على وأهل العراق ، فشدوا على الناس شدة شديدة ، فثبتت لهم ربيعة وصبروا صبراً حسناً إلا قليلا من الضعفاء وثبت أهل الرايات وأهل البصائر منهم والحفاظ وقاتلوا قتالا شديداً ، حتى إذا كان يوم الخميس التاسع من صفر سنة ٣٧ خطب الناس معاوية وحرضهم وكان مما قاله : يأهل الشام تلقون غداً أهل العراق فكونوا على إحدى ثلاث أحوال ، إما أن تكونوا قوماً طلبتم ما عند الله فى قتال قوم بغوا عليكم فأقبلوا من بلادهم حتى نزلوا فى بيضتكم ، وإما أن تكونوا قوماً تطلبون بدم خليفتكم وصهر نبيكم صلى الله عليه وسلم . وإما أن تكونوا قوماً تذبون عن نسائكم وأبنائكم .

عمار بن ياسر وعمرو بن العاص

وفكر ذو الكلاع فى أن يجمع بين عمرو وعمار بن ياسر عندما سمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يلتقى أهل الشام وأهل العراق وفى إحدى الكتيبتين الحق وإمام الهدى ومعه عمار بن ياسر» .

واجتمع فعلا ذو الكلاع ومعه أبو نوح الكلاعى مع عمرو بن العاص عند معاوية ، وقال ذو الكلاع لعمرو : هل لك فى رجل ناصح يخبرك عن عمار بن ياسر لا يكذبك ، قال من هو ؟

قال : ابن عمى هذا وهو من أهل الكوفة .

فقال له : إنى لأرى عليك سيماء أبى تراب .

فقال أبو نوح : علىّ سيماء محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وعليك سيماء أبى جهل وفرعون .

وقال عمرو : أفيكم عمار بن ياسر ؟

قال نوح : ما أنا بمخبرك عنه حتى تخبرنى لم تسألنى عنه ، فإن معنا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة غيره وكلهم جادّ على قتالكم .

عمرو : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن عماراً تقتله الفئة الباغية ، وأنه ليس ينبغى لعمار أن يفارق الحق ، ولن تأكل النار منه شيئاً » .

قال أبو نوح : لا إله إلا الله والله أكبر . والله إنه لفينا جاد على قتالكم » .

عمرو : والله إنه لجاد على قتالنا ؟

أبو نوح : نعم والله الذى لا إله إلا هو . لقد حدثنى يوم الجمل أنا سنظهر عليهم ، وحدثنى أمس أن لو ضربتمونا حتى تبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أنا على حق وأنتم على باطل ، وكانت قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار .

عمرو : هل تستطيع أن تجمع بينى وبينه ؟

أبو نوح : نعم .

وجمع بينهما

وقال عمرو موجها الحديث إلى عمار بن ياسر إنى رأيتك أطوع أهل هذا العسكر فيهم ، أذكرك الله إلا حقنت دماءهم فعلام تقاتلنا ؟ !

عمار أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقاتل الناكثين وقد فعلت ، وأمرنى أن أقاتل القاسطين فأنتم هم ، وأما المارقون فما أدرى أأدركهم أم لا أيها الأبتر ، ألست تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلى : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وأنا مولى الله و رسوله وعلى بعده .

عمرو : لم تشتمني يا أبا اليقظان واست أشتمك ؟

عمار : وبم تشتمني ؟ أتستطيع أن تقول إني عصيت الله ورسوله يوماً قط ؟ !

عمرو : إن فيلك أسبات سرى ذلك .

عمار إن الكريم من أكرمه الله ، كنت وضيعاً فرفعني الله ، ومملوكاً فأعتقني الله ، وضعيفاً فقواني الله ، وفقيراً فأغناني الله ،

عمرو : ما ترى فى قتل عثمان ؟

عمار : فتح لكم باب كل سوء .

واشتد الحوار بينهما ، فقام أهل الشام وركبوا خيولهم ورجعوا ، فبلغ معاوية ما كان بينهم ، فقال هلكت العرب إذا أخذتهم خفة العبد الأسود (يعني عمار بن ياسر) ، ومشى عبد الله بن سويد إلى ذى الكلاع فقال له : لم جمعت بين الرجلين ؟ قال لحديث سمعته من عمرو ، وذكر أنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول لعمار بن ياسر : « تقتلك الفئة الباغية » .

اشتداد القتال والمبارزة

اشتد القتال بين الفريقين . وكانت الغلبة لأهل العراق حتى بدأ اليأس يدب فى نفس معاوية ، فقال لعمرو بن العاص أما ترى يا أبا عبد الله إلى ما قد وقعنا فيه ؟ كيف ترى أهل العراق غداً صانعين ؟ إنا لفى خطر عظيم ، وخرج معاوية فارًّا لائذاً إلى بعض مضارب العسكر فدخل فيه ، وبعث معاوية إلى خالد بن المعمر إنك قد ظفرت ولك إمرة خراسان إن لم تتم ، فطمع خالد فى ذلك ولم يتم فأمّره معاوية حين بايعه الناس على خراسان فمات قبل أن يصل إليها .

وبرز رجل من حمير اسمه كريب بن الصباح ليس فى أهل الشام يومئذ رجل أشهر شدة بالبأس منه ، ثم نادى : من يبارز ؟ فبرز إليه المرتفع بن الوضاح الزبيدى فقتل المرتفع ، ثم نادى من يبارز ؟ فبرز إليه الحارث بن الجلاح فقتله ، ثم نادى : من يبارز ؟ فبرز إليه عايذ بن مسروق الهمدانى فقتل عايذاً ، ثم رمى بأجسادهم بعضها فوق بعض ، ونادى : هل بقى من يبارز . فبدر إليه على عليه السلام ، ثم ناداه : ويحك يا كريب إنى أحذرك وأدعوك إلى سنة الله ورسوله . ويحك لا يدخلنك ابن آكلة الأكباد ، وكان جوابه : « ما أكثر

ما سمعت هذا الكلام منك ! فلا حاجة لنا فيه . أقدم إذا شئت ،
ن يشترى سيفى وهذا أثره» . فقال على عليه السلام «لا حول ولا
نوة إلا بالله» ، ثم مشى إليه فلم يمهله أن ضربه ضربة خر منها قتيلا ،
م نادى : من يبارز . فبرز إليه الحارث بن وداعة والمطاع بن المطلب
قتلهما ، وبعد ذلك نادى الإمام «يا معشر المسلمين (الشهر
لحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا
عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) » .
م قال موجهاً الكلام إلى معاوية : «ويحك يا معاوية . هلم فبارزنى ،
لا يقتلن الناس فيما بيننا» . فقال عمرو : «اغتنمه منتهزاً فقد قتل ثلاثة
ن أبطال العرب ، وإنى أطمع أن يظفرك الله به» . فقال له معاوية :
يحك يا عمرو ! والله إن تريد إلا أن أقتل فتصيب الخلافة بعدى ،
ذهب . إليك عنى . فليس مثلى يخدع

وطلب عمرو بن العاص من قومه أن يجدوا فى القتال .

وقام عبد الله بن العباس خطيباً ، وقال فيما قال : إن اضطراب
ذه الأمة سببه أن ابن آكلة الأكباد قد وجد من طغام أهل الشام
عواناً على على بن أبى طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم
صهره ، وأول ذكر صلى معه ، وقد شهد مع رسول الله صلى الله عليه
سلم كل مشاهده ، على حين كان معاوية وأبو سفيان مشركين يعبدان

الأصنام ، لقد قاتل على مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والإمام يقول : « صدق الله ورسوله » ، ومعاوية وأبو سفيان يقولان كذب الله ورسوله ، فما معاوية فى هذه بأبر ولا أتقى ولا أرشد ولا أصوب منه فى تلكم ، والله إنكم لعلى الحق ، وإن القوم لعلى الباطل فلا يكونوا أولى بالجد فى باطلهم منكم فى حقكم أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

عمار بن ياسر

وقام عمار بن ياسر وقال : «امضوا يا عباد الله إلى قوم يطلبون فيما يزعمون بدم عثمان ، والله ما أظنهم يطلبون دمه ، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرءوها ، وعلموا لو أن الحق لزمهم لحال بينهم وبين ما يرغبون فيه منها ، ولم يكن للقوم سابقة فى الإسلام يستحقون بها الطاعة والولاية ، فخدعوا أتباعهم بأن قالوا : قتل إمامنا مظلوماً ، ليكونوا بذلك جبابرة وملوكاً ، وتلك مكيدة قد بلغوا بها ما ترون ، ولولا هى ما بايعهم من الناس رجلان .

ومضى عمار — ومضى معه أصحابه ، فلما دنا من عمرو بن العاص قال : يا عمرو ، بعت دينك بمصر ! تبـًّا لك ،وطالما بغيت الإسلام عوجاً .

وجعل عمار يقاتل ويقول صبراً عباد الله . وكان لواء أهل الشام

مع أبى الأعور السلمى ، ولم يزل عمار ينخسه حتى شب القتال واقتتل الناس قتالا شديداً لم يسمع بمثله ، وكثرت القتلى ، وكان على عمار يوم هذه الوقعة درع وهو يقول : أيها الناس الرواح إلى الجنة . وقال حين نظر إلى راية عمرو بن العاص : والله إن هذه الراية قد قاتلتها ثلاث عركات وما هذه بأرشدهن ثم قال :

نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله

ثم استسقى عمار ، وقد اشتد ظمؤه وحين شرب قال : « الجنة تحت الأسنة . اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه » . ثم حمل عليه ابن جون السكسكى وقتله

ولا بد هنا من وقفة لكى نستمع إلى ما قاله أستاذنا الدكتور طه حسين عميد الأدب العربى عن عمار بن ياسر ، قال : «لم يجئ أحد بعمار إلى صفين ، لم يستكرهه علىّ على الحرب ولا على الخروج معه ، وإنما كان عمار شيخاً نيف على التسعين ، شاخ جسمه ، ولكن قلبه وعقله وبصيرته ظلت بمأمن من الشيخوخة ، فكان شابّ الحديث ، وكان شاب المناظرة ، وكان شاب الجهاد ، وهو الذى سلم على عائشة بعد وقعة الجمل ، ثم قال لها : كيف رأيت ضرابنا يا أمّه ! قالت : لست لك بأم ، ولست لى بابن . قال متضاحكاً : بل أنت أمى وأنا

ابنك وإن كرهت . يريد أن القرآن قد نزل بأن أزواج النبى أمهات المؤمنين — فلن تستطيع عائشة أن تغير ما نزل به القرآن . وكان عمار أشد أصحاب على تحريضاً على الحرب ، وكان يقول لأصحابه حين رأى بعض انكشافهم والله لو ضربونا حتى يبلغونا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل .

وفى قتل عمار يقول الدكتور طه أيضاً : « ما زال قتله من الأحاديث المأثورة بين المسلمين ، فهو ابن أول شهيدين فى الإسلام . فتن أبو جهل أباه ياسراً وأمه سمية حتى قتلهما ، كما هو معروف ، وهو الذى قال له النبى : ويحك يابن سُمَيّة ! تقتلك الفئة الباغية ، وقد أشفق الزبير من حرب علىّ حين عرف أن عماراً معه . وكان خزيمة بن ثابت الأنصارى يتبع عليًّا فى صفين ، ولكنه لا يقاتل وإنما يتحرى أمر عمار ، فلما عرف أنه قد قتل قال : الآن استبانت الضلالة ، ثم قاتل حتى قتل .

رأى أن أهل الشام قد قتلوا عماراً ، فعرف أنهم الفئة الباغية التى ذكرها النبى فى حديثه ذاك .

ووقع قتل عمار من معاوية وأصحابه وقعاً أليماً مروعاً لم يشكوا فى أن النبى قال له : تقتلك الفئة الباغية ، وإنما حاولوا أن يخفوا علمهم بهذا الحديث ، فلما لم يجدوا إلى ذلك سبيلا تأولوه . وقال معاوية : أنحن قتلناه ؟ إنما قتله الذين جاءوا به !

وبعد ذلك كانت وقعة مشهورة بوقعة الخميس ، وهى التى قتل فيها أعلام العرب . ويروى أن الإمام عليًّا رضى الله عنه نادى : يا معاوية — يكررها — فقال معاوية : اسألوه ما شأنه ؟ قال : أحب أن يظهر لى فأكلمه كلمة واحدة ، فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص ، وقال لمعاوية متجاهلا عمراً : « ويحك علام يقتتل الناس بينى وبينك ؟ ابرز إلىّ فأينا قتل صاحبه فالأمر له . فالتفت معاوية إلى عمرو ، فقال : ما ترى يا أبا عبد الله ؟ أبارزه ، فقال عمرو : لقد أنصفك الرجل ، وأعلم أنك إن نكلت عنه لم تزل سبة عليك وعلى عقبك ما بقى عربى .

فقال معاوية : يا عمرو ليس مثلى يخدع عن نفسه . والله ما بارز ابن أبى طالب رجلا قط إلا سقى الأرض من دمه .

ثم انصرف معاوية راجعاً إلى آخر الصفوف وعمرو معه ، وقال معاوية ويحك يا عمرو ! ما أحمقك وحقدها معاوية على عمرو ، وقال : ما أظنك يا عمرو إلا مازحاً : فلما جلس معاوية مجلسه أقبل عمرو حتى جلس ، فقال معاوية :

يا عمرو إنك قد قشرت لى العصا ... برضاك فى وسط العجاج برازى
ولقد أعدت فقلت مزحة مازح ... والمزح يحمله مقال الهازى
فإذا الذى منتك نفسك خالياً ... قتلى جزاك بما نويت الجازى

فرد عليه عمرو قائلا :

معاوى إن نكلت عن البراز لك الويلات فانظر فى المخازى
وما ذنبى بأن نادى على وكبش القوم يدعى للبراز
فلو بارزته بارزت ليثاً حديد الناب ينفذ كل بازى
وتزعم أننى أضمرت غشًّا جزانى بالذى أضمرت جازى
أضيع فى العجاجة يابن هند وعند الباه كالتيس الحجازى

على أنه كان من رأى أبرهة بن الصباح بن أبرهة الحميرى أن يبارز معاوية عليًّا ، ولكن معاوية رفض وكره مبارزة على فقال أبرهة فى ذلك :

لقد قال ابن أبرهة مقالا وخالفه معاوية بن حرب
وكم بين المنادى من بعيد ومن يغشى الحروب بكل عضب
أيهجرنى معاوية بن حرب وما هجرانه سخطاً لربى
وعمرو إن يفارقنى بدينى لفى سعة إلى شرق وغرب

وبرز يومئذ عروة بن داود الدمشقى فقال : إن كان معاوية كره مبارزتك يا أبا الحسن فهلم إلى ، فتقدم إليه على ، فقال له أصحابه : ذر هذا الكلب فإنه ليس لك بخطر ، فقال : والله ما معاوية اليوم بأغيظ لى منه ، ثم حمل عليه فضربه فقطعه قطعتين سقطت إحداهما يمنة والأخرى يسرة وارتج العسكران لهول الضربة ، ثم قال يا عروة اذهب فأخبر قومك . أما والذى بعث محمداً بالحق لقد عاينت النار وأصبحت من النادمين

وكذلك طلب الوليد بن عقبة من معاوية مبارزته

معاوية يفاوض ابن عباس :

بدأ اليأس يدب فى نفس معاوية فقال لعمرو بن العاص إن رأس لناس بعد على هو عبد الله ابن عباس ، فلو ألقيت إليه كتاباً فإنه ن قال شيئاً لم يخرج على عنه ، وقد أكلتنا الحرب ولا أرانا نصل إلى لعراق إلا بهلاك أهل الشام . فقال له عمرو : إن ابن عباس لا يخدع ، لو طمعت فيه لطمعت فى على ، وأصر معاوية على الكتابة إلى بن عباس ، فكتب إليه عمرو يقول : « أما بعد فإن الذى نحن أنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء ، وأنت رأس هذا الجمع بعد على ، انظر فيما بقى ودع ما مضى ، فو الله ما أبقت هذه الحرب لنا ولا لكم حياً ولا صبراً ، واعلموا أن الشام لا تملك إلا بهلاك العراق وأن العراق لا تملك إلا بهلاك الشام ، وما خيرنا بعد هلاك أعدادنا منكم ، وما خيركم بعد هلاك أعدادكم منا ، ولسنا نقول ليت الحرب عادت لكنا نقول ليتها لم تكن ، وإن فينا من يكره القتال كما أن فيكم من كرهه ، وإنما هو أمير مطاع أو مأمور مطيع أو مؤمن مشاور وهو نت . وختم كتابه بقوله :

طال البلاء وما يرجى له آسى — بعد الإله سوى رفق ابن عباس
يابن الذى زمزم سقيا الحجيج له — أعظم بذلك من فخر على الناس

انظر فدى لك نفسي قبل قاصمة للظهر ليس لها راق ولا آس
إنى أرى الخير فى سلم الشآم لكم والله يعلم ما بالسلم من باس
فيها التقى وأمور ليس يجهلها إلا الجهول وما النوكى كأكياس

فأتى ابن عباس بالكتاب إلى أمير المؤمنين فضحك وقال : قاتل الله ابن العاص ! ما أغراه بك يابن عباس ، أجبه وليرد عليه شعره الأفضل ابن العباس فإنه شاعر ، فكتب ابن عباس إلى عمرو

« أما بعد . فإنى لا أعلم رجلا من العرب أقل حياء منك . لقد مال بك معاوية إلى الهوى وبعته دينك بالثمن اليسير ، ثم خبطت بالناس فى عشوة طمعاً فى الملك فلما لم تر شيئاً أعظمت الدنيا إعظام أهل الذنوب ، وأظهرت فيها نزاهة أهل الورع ، فإن كنت ترضى الله بذلك فدع مصر وارجع إلى بيتك ، وهذه الحرب ليس فيها معاوية كعلى ، ابتدأها على بالحق وانتهى فيها إلى الغدر . وبدأها معاوية بالبغى وانتهى فيها إلى السرف ، وليس أهل العراق فيها كأهل الشام . بايع أهل العراق علياً وهو خير منهم ، وبايع معاوية أهل الشام وهم خير منه ، وليس أنا وأنت فيها بسواء ، أردت الله وأردت أنت فإن ترد شراً لا نسبقك به وإن ترد خيراً لا تسبقنا إليه . ثم قال لأخيه الفضل يابن أم أجب عمراً فقال الفضل :

يا عمرو حسبك من خدع ووسواس فاذهب فليس لداء الجهل من آس
إلا تـــواتر طعن فى نحـــوركم يشجى النفوس ويشفى نخوة الراس

ذا الدواء الذى يشفى جماعتكم حتى يطيعوا عليًّا وابن عباس
ما على فإن الله فضله بفضل ذى شرف عال على الناس
ن تعقلوا الحرب تعقلها مخيبة أو تبعثوها فإنا غير أنكاس
. كان منا ومنكم فى عجاجتها مالا يرد وكل عرضة الباس
لى العراق بقتلى الشام ذاهبة هذا بهذا وما بالحق من باس
بارك الله فى مصر فقد جلبت شرًّا وحظك منها حسوة الكاس

وعلق معاوية على كتاب ابن عباس وعلى الشعر بقوله : إن قلب ن عباس وقلب على قلب واحد وكلاهما ولدا عبد المطلب .

لة الهرير وانتهاء المعركة

وتبادل الإمام ومعاوية رسائل كثيرة لم تأت بنتيجة إلى أن كان يوم ثلاثاء العاشر من ربيع الأول سنة ٣٧ ، وفى ليلة شديدة الحر ترامى فريقان بالنبل حتى فنيت نبالهم ، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تقصفت تدقت ، ثم مشى بعضهم إلى بعض بالسيوف – وقد كسروا جفونها – مد الحديد ، فلم يسمع السامع إلا تغمغم القوم وتكادم الأفواه وصليل سيوف ووقع الحديد بعضه على بعض ، وكان أشد هولا فى صدور جال من الصواعق ومن جبال تهامة يدك بعضها بعضاً ، وكسفت شمس ، ومرت مواقيت أربع صلوات لم يسجد لله فيهن سجدة ، يصلوا لله صلاة إلا التكبير ، واستمر القتال من نصف الليل إلى

ارتفاع الضحى وافترقوا على سبعين ألف قتيل فى ذلك اليوم وتلك الليلة ، وهى ليلة الهرير ، والأشتر فى ميمنة الناس ، وابن عباس فى الميسرة ، وعلى فى القلب ، والأشتر فى هذه الحال يسير فيما بين الميمنة والميسرة فيأمر كل قبيلة أو كتيبة من القراء بالإقدام على التى تليها ، فلم يزل يفعل ذلك حتى أصبح والمعركة خلف ظهره ، ونادت المشيخة فى تلك الغمرات : يا معشر العرب الله الله فى الحرمات من النساء ، وجعل الأشتر يقول لأصحابه وهو يزحف بهم نحو أهل الشام : ازحفوا قيد رمحى هذا ، فإذا فعلوا قال : ازحفوا قاب هذا القوس . فإذا فعلوا سألهم مثل ذلك حتى مل أكثر الناس الإقدام ، وكان الأشتر يقول لهم : ألا من يشرى نفسه لله ويقاتل مع الأشتر. وقاتل الأشتر أهل الشام قتالا عنيفاً ، وانتقل الإمام عليه السلام إلى القبلة واتجه إلى الله سبحانه وتعالى ورفع يديه ثم نادى الله : يا رحمن يا واحد يا صمد يا ألله ، يا إله محمد ، اللهم إليك نقلت الأقدام ، وأفضت القلوب ، ورفعت الأيدى ، وامتدت الأعناق ، وشخصت الأبصار ، وطلبت الحوائج ، إنا نشكو إليك غيبة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وكثرة عدونا ، وتشتت أهوائنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين .

ثم توجه إلى جيشه قائلا : أيها الناس قد بلغ بكم الأمر وبعدوكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نفس ، وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم ما بلغنا وأنا غاد عليهم بالغداة أحاكمهم على الله عز وجل .

نتيجة وقعة الهرير
وحيلة رفع المصاحف

كانت نتيجة وقعة الهرير أن حاقت الهزيمة بجيش معاوية ، ستدعى عمرو بن العاص وقال له : يا عمرو ، إنما هى الليلة حتى دو على علينا بالفيصل ، فما ترى ؟ قال : « أرى أن رجالك لا يقومون جاله ، ولست مثله ، هو يقاتلك على أمر ، وأنت تقاتله على غيره ، ت تريد البقاء وهو يريد الفناء ، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت ، وأهل الشام لا يخافون عليًّا إن ظفر بهم ، ولكن ألق إليهم أمراً قبلوه اختلفوا ، وإن ردوه اختلفوا ، ادعهم إلى كتاب الله حكماً بينك وبينهم ، فإنك بالغ به حاجتك فى القوم ، فإنى لم أزل أؤخر الأمر لحاجتك إليه » .

فقال معاوية : صدقت .

وأصبح أهل الشام وقد رفعوا المصاحف على رءوس الرماح ، ـوا ينادون يأهل العراق ، كتاب الله بيننا وبينكم .

اختلاف أصحاب الإمام

فى هذا الموقف قال الإمام على عليه السلام : « اللهم إنك تعلم أنهم ما الكتاب يريدون ، فاحكم بيننا وبينهم إنك أنت الحكيم الحق المبين » .

وكان أصحاب الإمام أربع طوائف :

١ ــ أهل البصرة المخلصون له فى الظاهر والباطن ، العارفون بحقه ، العالمون بأنها خدعة ، وهم القليل أمثال الأشتر وحجر بن عدى والحصين ابن المنذر .

٢ ــ المخلصون له بقلوبهم ، لكنهم خدعوا ، أو أحبوا البقاء ، أمثال حريث بن جابر ورفاعة بن شداد .

٣ ــ الذين ليس للإمام فى قلوبهم مكانته التى يجب أن تكون له : مضافاً إلى أنهم قد خدعوا ، وهم القراء أهل الجباه السود ، وهؤلاء كانوا وما زالوا فى كل عصر أضر من الفساق المتجاهرين بالفسق

٤ ــ المنافقون الذين يظهرون النصيحة ويبطنون الغش أمثال الأشعث بن قيس الذى يقول فيه المرحوم الأستاذ عباس العقاد «كان الأشعث بن قيس أكبر سادات كندة وأخلقهم أن ينصر حزبا على حزب لو خلصت نيته . وبرئت شيمته من التقلب والغدر بأصحابه طمح هذا الرجل إلى الملك بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعا

ه أن يتوجوه ، وحارب المسلمين مع المرتدين حتى حوصر فى حصنه
ماً ويئس من الغلبة ، فاستسلم على أن يصان دمه ودم عشرة من
صحابه ، ثم فتح الحصن ، فقتل كل من فيه ، ونجا بالعشرة الذين
تارهم إلى أبى بكر رضى الله عنه ، فقبل توبته ، وزوجه أخته أم فروة ،
ا نشبت الفتنة بين على ومعاوية كان هو من حزب على يتطلع
ِصة السانحة » .

ويؤيد الدكتور طه حسين رأى العقاد فى الأشعث فيقول واصفاً
س أنصار الإمام : « وأكبر الظن أن بعض الرؤساء من أصحاب
، لم يكونوا يخلصون له نفوسهم ولا قلوبهم . ولم يكونوا ينصحون له ،
هم كانوا أصحاب دنيا لا أصحاب دين . وكانوا يندمون فى دخائل
سهم على تلك الأيام الهينة اللينة التى قضوها أيام عثمان ينعمون بالصلات
نوائز والإقطاع ، واست أذكر من هؤلاء إلا الأشعث بن قيس
ندى ذلك الذى أسلم أيام النبى ، ثم ارتد بعد وفاته . وألب قومه
، ورطهم فى الحرب ، ثم أسلمهم وأسرع إلى المدينة تائباً . فلم
م دمه من أبى بكر فحسب ، ولكنه أصهر إليه وتزوج أخته ،
خمل فى أيام عمر ، وظهر فى أيام عثمان . فتولى له بعض أعماله فى
ن . فلما هم على أن ينهض إلى الشام عزله عن ولايته . ويقال
طالبه بشىء من مال المسلمين » .

واختلف فعلا أصحاب الإمام رضى الله عنه وقد بينت آنفاً نموذجاً

فريداً فى نوعه ، وهو الأشعث بن قيس ، وسنرى حالا أنه كان النصير الأول للتحكيم بل سنرى أكثر من ذلك .

وأما من ربيعة — وهى الجهة الرئيسية — فقد قام كردوس بن هانئ البكرى فقال : « أيها الناس إنا والله ما تولينا معاوية منذ تبرأنا منه ، ولا تبرأنا من على مذ توليناه ، وإن قتلانا لشهداء ، وإن أحياءنا لأبرار ، وإن علياً لعلى بينة من ربه ، وما أحدث إلا الإنصاف ، وكل محق منصف ، فمن سلم له نجا ، ومن خالفه هالك » .

وأما شفيق بن ثور البكرى فقد قال كلاماً طويلا ختمه بقوله : « وقد أكلتنا هذه الحرب ، ولا نرى البقاء إلا فى الوداعة » .

وأما خالد بن المعمر — فقد قال : « يا أمير المؤمنين ، إنا لا نرى البقاء إلا فيما دعاك إليه القوم إن رأيت ذلك ، فإن لم تره فرأيك أفضل» .

وقام الحضين بن المنذر الرقاشى فقال : « أيها الناس ، إن لنا داعياً قد حمدنا ورده وصدره ، وهو المصدق على ما قال ، والمأمون على ما فعل ، فإن قال لا قلنا لا ، وإن قال نعم قلنا نعم» .

ماذا قال الإمام

روى أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب قال عندما رفع أهل الشام المصاحف يدعون إلى حكم القرآن : « عباد الله ، أنا أحق من أجاب

إلى كتاب الله ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب ابن مسلمة وابن أبي سرح ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، إني أعرف بهم منكم ، صحبتهم أطفالا ، وصحبتهم رجالا ، فكانوا شر أطفال وشر رجال، إنها كلمة حق يراد بها باطل ، إنهم والله ما رفعوها حقًا ، إنهم يعرفونها ولا يعملون بها ، وما رفعوها لكم إلا خديعة ومكيدة ، أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة ، فقد بلغ الحق مقطعه ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا » .

والذى لا شك فيه أن الإمام رضى الله عنه لم ينخدع برفع المصاحف، وكرر قوله : « إن معاوية ليس بصاحب دين ولا قرآن ، وإن معاوية وأصحابه يكيدون ويخادعون ويتقون حر السيف » .

وكان الإمام يرى ألا حكم إلا لله ، وأن السبيل إلى حكم الله هو القتال حتى يذعن أهل الشام ، ولكن الأغلبية من أصحابه لم تذهب مذهبه .

وكتب معاوية رسالة إلى الإمام قال فيها : « فهل لك فى أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وصلاح للأمة وحقن للدماء وألفة للدين وذهاب للضغائن والفتن ، أن يحكم بيننا وبينكم حكمان أحدهما من أصحابي والآخر من أصحابك فيحكمان بما فى كتاب الله بيننا » .

اختيار الحكمين

جاء الأشعث بن قيس إلى الإمام رضى الله عنه ، وألح على الإمام فى أن يختار على أبا موسى الأشعرى وأكره الإمام إكراهاً على قبوله ، واختار معاوية عمرو بن العاص .

ومما قاله الإمام فى اختيار الأشعرى : « إنى لا أرضى بأبى موسى ، ولا أرى أن أوليه » ، فقال الأشعث ويزيد بن حصين : نحن لا نرضى إلا به فإنه قد حذرنا ما وقعنا فيه ، فقال لهم الإمام : إنه ليس لى برضى ، وقد فارقنى وخذل الناس عنى ، ثم هرب حتى أمنته و بعد أشهر» .

ولا يستبعد الدكتور طه حسين أن يكون الأشعث بن قيس — وهو ماكر أهل العراق وداهيتهم — قد اتصل بعمرو بن العاص ماكر أهل الشام وداهيتهم ، ودبروا هذا الأمر بينهم تدبيراً ودبروا أن يقتتل القوم ، فإن ظهر أهل الشام فذاك ، وإن خافوا الهزيمة أو أشرفوا عليها رفعوا المصاحف فأوقعوا الفرقة بين أصحاب على ، وجعلوا بأسهم بينهم شديداً ، وقد تم لهم ما دبّروا إن كانوا قد دبروا شيئاً واستكره الأشعث ومن أطاعه عليًّا على كف القتال .

الإمام يرشح ابن عباس

وحاول الإمام ترشيح ابن عباس للتحكيم فقال مخاطباً الأشعث

ابن قيس ومن معه : « هذا ابن عباس أوليه التحكيم » ، فقالوا والله ما نبالى أنت كنت أو ابن عباس ، لا نريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ، فقال الإمام : فإنى أجعل الأشتر ، قال الأشعث : « وهل سعر الأرض علينا غير الأشتر ؟ وهل نحن إلا فى حكم الأشتر ؟ ». قال : وما حكمه ؟ قالوا : حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيوف حتى يكون ما أردت وما أراد .

وعن أبى جعفر محمد بن على الباقر عليه السلام قال : لما أراد الناس علياً على أن يضع حكمين قال لهم : إن معاوية لم يكن ليضع أحداً هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص ، وإنه لا يصلح للقرشى إلا مثله ، فعليكم بعبد الله بن عباس فارموه به فإن عمراً لا يعقد عقدة إلا حلها عبد الله ولا يحل عقدة إلا عقدها ، ولا يبرم أمراً إلا نقضه ، ولا ينقض أمراً إلا أبرمه . فقال الأشعث بإصرار : لا والله لا يحكم فينا مضريان حتى تقوم الساعة ، ولكن اجعله رجلا من أهل اليمن إذا جعلوا رجلا من مضر .

فقال الإمام عليه السلام « إنى أخاف أن يخدع يمنيكم فإن عمراً ليس من الله فى شىء إذا كان له فى أمر هواه » .

وفى إصرار الأشعث على اختيار أبى موسى من الدلالة على عدم إخلاصه للإمام ما فيه ، وليس من المستبعد إطلاقاً أن يكون الأشعث قد اتصل بعمرو بن العاص كما سبق أن ذكرنا .

وأخيراً – لما رأى الإمام إصرارهم وقلة أنصاره على رأيه بينهم – قال عليه السلام : قد أبيتم إلا أبا موسى ؟

قالوا : نعم .

قال : فاصنعوا ما أردتم .

فبعثوا إلى أبي موسى ، وكان معتزلا بأرض من أرض الشام يقال لها عرض ، فأتاه مولى له ، فقال : إن الناس قد اصطلحوا ، قال : الحمد لله .

قال : وقد جعلوك حكماً .

قال : إنا لله و إنا إليه راجعون .

فجاء أبو موسى حتى دخل عسكر علي عليه السلام .

كتاب الصلح

واجتمع المفوضون من الفريقين ، فكتبوا صحيفة هذا نصها كما
رواه البلاذرى :

« بسم الله الرحمن الرحيم — هذا ما تقاضى عليه على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان وشيعتهما ، فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، قاضى علىّ على أهل العراق ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين : أنّا ننزل عند حكم الله ، وبيننا كتاب الله فيما اختلفنا فيه من فاتحته إلى خاتمته ، نحيى ما أحيا ، ونميت ما أمات ، فما وجد الحكمان فى كتاب الله فإنهما يتبعانه ، وما لم يجداه مما اختلفا فيه فى كتاب الله نصًّا أمضيا فيه السنة العادلة الحسنة الجامعة غير المفرقة ، والحكمان عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص — وأخذنا عليهما عهد الله وميثاقه ليحكمانّ بما وجدا فى كتاب الله نصًّا ، وما لم يجداه فى كتاب الله يُسمى عملا فيه بالسنة الجامعة غير المفرّقة ، وأخذا من على ومعاوية ومن الجندين كليهما ، وممن تأمرا عليه من الناس عهد الله ليقبلن ما قضيا به عليهما ، وأخذا لأنفسهما الذى يرضيان به

من العهد ومن الثقة بالناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما وأموالهما ، وأن الأمة لهما أنصار على ما يقضيان به على علىّ ومعاوية وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما ، وأن على عبد الله بن قيس وعمرو ابن العاص عهد الله وميثاقه أن يصلحا بين الأمة ولا يرداهم إلى فرقة ولا حرب ، وأن أجل القضية إلى شهر رمضان ، فإن أحبا أن يعجلاها دون ذلك عجلا ، وإن أحبّا أن يؤخراها عن غير ميل منهما أخراها ، وإن مات أحد الحكمين قبل القضاء فإن أمير كل شيعة وشيعته يختارون مكانه رجلا لا يألون عن أهل المعدلة والنصيحة والإقساط ، وأن يكون مكان قضيتهما التى يقضيانها فيه مكان عدل بين الكوفة والشام والحجاز ، لا يحضرهما فيه إلا من أرادا ، فإن رضيا مكاناً غيره فحيث أحبا أن يقضيا ، وأن يأخذ الحكمان من كل واحد من شاءا من الشهود ثم يكتبا شهادتهم فى هذه الصحيفة أنهم أنصار على من ترك ما فيها: اللهم نستنصرك على من ترك ما فى هذه الصحيفة وأراد فيها إلحاداً أو ظلماً أو حاول له نقضاً .

وشهد بما فى الكتاب من أصحاب على : عبد الله بن عباس والأشعث بن قيس والأشتر مالك بن الحارث وسعيد بن قيس الهمدانى والحصين والطفيل ابنا الحارث بن المطلب وأبو أسيد ربيعة بن مالك الأنصارى وعوف بن الحارث بن المطلب القرشى وعقبة بن عامر الجهنى وعمرو بن الحمق الخزاعى والإمام الحسن والإمام الحسين وعبد الله

ابن جعفر الهاشمى والنعمان بن عجلان الأنصارى وحجر بن عدى الكندى وربيعة بن شرحبيل وحجر بن يزيد والحارث بن مالك الهمدانى وعقبة بن زياد .

ومن أهل الشام من أصحاب معاوية : حبيب بن مسلمة الفهرى وأبو الأعور بن سفيان السلمى وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومى وحبيب بن مسلمة وبُسْر بن أرطاة القرشى ومعاوية بن خديج الكندى وحمزة بن مالك الهمدانى ويزيد بن الحر الثقفى وعبد الله بن عمرو بن العاص ومروان بن الحكم والوليد بن عقبة القرشى وعتبة بن أبى سفيان ومحمد بن عمرو بن العاص ومحمد بن أبى سفيان وحمزة بن مالك ، وغيرهم .

ويرى عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين أن ليس فى كتاب الصلح الموضوع الأصلى الذى اختلفا من أجله فيقول : إن الخطير هو أن الفريقين قد حددا فى صحيفتهما كل شىء إلا هذا الموضوع الذى اختلفا فيه ، والذى يجب أن يقضى فيه الحكمان ، ففيم كانا يختلفان بالفعل ؟ كان معاوية يطلب بدم عثمان . ويريد أن يسلم إليه علىّ قتلة الخليفة المظلوم . وكان على لا يعرف لعثمان قاتلا بعينه ، ولا يقدر على أن يُسلم إلى معاوية جميع من ثاروا بعثمان حتى قتل . أفكان الفريقان يريدان من الحكمين أن يفصلا فى هذه القضية ؟ وإذاً فما لهما لم ينصا عليها ، بل لم يذكرا عثمان وقتلته فى الصحيفة أصلا ،

وكان معاوية يرى بعد مقتل طلحة والزبير ، وبعد أن استحصد أمره ، واشتد بأسه ، أن يكون أمر الخلافة شورى بين المسلمين ، وكان على يرى أنه قد بويع الخلفاء من قبله ، بايعه أهل الحرمين وهم أصحاب الحل والعقد ، وبايعه أهل الأمصار إلا الشام ، فقد اجتمعت له إذاً بيعة الكثرة الكثيرة من المسلمين عامة ، ومن المهاجرين والأنصار خاصة ، ولم يبق لمعاوية إلا أن يدخل فيما دخل فيه الناس ، ويدخل معه أصحابه من أهل الشام، فإن لم يفعلوا فهم الفئة الباغية التى أُمِر المسلمون بقتالها إن أبت الصلح ، وكرهت العافية ، حتى تفيء إلى أمر الله . وإذاً فما بال الفريقين لم ينصا على ذلك فى صحيفتهما ، بل لم يذكرا الخلافة ولا الشورى فى الصحيفة أصلا ؟ ! .

ويرى كثيرون — وفى مقدمتهم الدكتور طه حسين — أن كتاب الصلح قد أرضى الفريقين المختصمين ، وأن الذين كتبوا هذا الكتاب قد كرهوا الحرب وسئموا القتال وتعجلوا السلم ، كذلك كانت نتيجة هذه الصحيفة اختلاف فى صفوف أهل العراق وائتلاف فى صفوف أهل الشام .

اجتماع الحكمين بدومة الجندل

واجتمع الحكمان بدومة الجندل التى وقع عليها الاختيار لتكون وسطاً بين العراق والشام ، وأخذ عمرو يقدم أبا موسى فى الكلام ، ويقول إنك قد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلى ، وأنت

أكبر منى فتكلم ، وجعل يقدمه فى كل شىء ، وهدفه فى ذلك أن يبدأ بخلع الإمام ، وقال عمرو بن العاص : أخبرنى يا أبا موسى ما رأيك؟ قال : رأيى أن أخلع هذين الرجلين علياً ومعاوية ، ثم نجعل هذا الأمر شورى بين المسلمين يختارون لأنفسهم من شاءوا . فقال له عمرو : الرأى ما رأيت . فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون . وهنا المسألة الهامة : من يتكلم أولا ؟ وقد ذكرت أن عمراً كان دائماً يقدم أبا موسى ، وفى روايات كثيرة أن ابن عباس أشفق من خداع عمرو ، فأشار على أبى موسى أن يتأخر حتى إذا تكلم عمرو استطاع هو أن يتكلم بعده ، وقال له : « ويحك ! والله إنى لأظنه قد خدعك ، إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه قبلك فيتكلم بذلك الأمر قبلك ، ثم تتكلم أنت بعده ، فإن عمراً رجل غدار ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه ، فإذا قمت به فى الناس خالفك » .

وكان رد أبى موسى على ابن عباس : « إنا قد اتفقنا » . ولم يستمع إلى رأيه ، إنما قام فحمد الله وأثنى عليه وقال : إن رأيى ورأى عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة . ثم قال مخاطباً الجماهير : « أيها الناس ، إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة ، وقد أجمع رأيى ورأى صاحبى على خلع على ومعاوية ، ونستقبل هذا الأمر ، فيكون شورى بين المسلمين ، فيولون أمورهم من أحبوا ، وإنى قد خلعت علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم وولوا من رأيتم لها أهلا » .

ثم تنحى فقعد ، وقام عمرو بن العاص مقامه فقال : « إن هذا قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، فإنه ولى عثمان ، والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه» .

وهنا قال أبو موسى : « ما لك ! لا وفقك الله ! قد غدرت وفجرت ، وإنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » .

فابتسم عمرو وهو يقول : « إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً ...»

وهنا أقبل شريح بن هانئ رئيس الوفد من أصحاب على فقنع عمراً بسوطه ، وقام محمد بن عمرو فقنع شريحاً بسوطه .

وصدق المرحوم الأستاذ العقاد إذ يقول : «كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضبين ، وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه» .

وانتهت المأساة بهذه المهزلة ، أو انتهت المهزلة بهذه المأساة !

والتمس أصحاب علىّ أبا موسى ، فركب ناقته فلحق بمكة ، فكان ابن عباس يقول : قبح الله أبا موسى ! حذرته . . أمرته بالرأى فما عقل . وكان أبو موسى يقول : قد حذرنى ابن عباس غدرة الفاسق ، ولكن اطمأننت إليه وظننت أنه لن يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة .

بهذا تنتهى مهزلة التحكيم التى دبرها عمرو بن العاص ، وشرى دينه

بإمارة مصر التى عزله عنها معاوية فى الوقت المناسب ، وولاها عبد العزيز ابن مروان بن الحكم . ولنستمع إلى ما قال عمرو فى كتاب أرسله إلى معاوية :

معاوية الحال لا تجهل ... وعن طرق الحق لا تعدل
خلعت الخلافة من حيدر ... كخلع النعال من الأرجل
وألبستها لك يابن اللئام ... كلبس الخواتم فى الأنمل
ولولاى كنت كمثل النساء ... تعاف الخروج من المنزل
ولم تلك والله من أهلها ... ورب العباد ولم تكمل
فأين الحصى من نجوم السماء ... وأين الحسام من المنجل
وأين الثريا وأين الثرى ... وأين معاوية من على
وأعطيت مصراً لعبد العزيز ... ولم تعطنى حبة الخردل

الإمام بعد التحكيم

لم يدهش الإمام على بن أبى طالب لما سمعه عن مهزلة التحكيم ، كأنه كان يتوقعه ، وإنما ذكر تحذيره لأصحابه فى صفين حين رفعوا المصاحف فقال لهم : « إن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن » . وقد خطب الإمام بعد أن أتاه أمر الحكمين فقال : « الحمد لله ، وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجلل ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق المجرب تورث

الحسرة ، وتعقب الندم ، وقد كنت أمرتكم فى هذين الرجلين وهذه الحكومة أمرى ، ونخلت لكم رأيى ، لو يطاع لقصير رأى ، ولكنكم أبيتم إلا ما أردتم ، فكنت وإياكم كما قال أخو هوزان

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

ألا إن الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حُكم الكتاب وراء ظهورهما ، وارتأيا الرأى من قبل أنفسهما — فأماتا ما أحيا القرآن ، وأحييا ما أمات القرآن ثم اختانا فى حكمهما ، فكلاهما لا يرشد ولا يسدد ، فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين ، فاستعدوا للجهاد ، وتأهبوا للمسير ، وأصبحوا فى معسكركم يوم الاثنين إن شاء الله » .

المأساة الثالثة

الخوارج وواقعة النهروان

من هم الخوارج ؟ هم الذين أنكروا التحكيم الذى وقع يوم صفين ، وقالوا لا حكم إلا لله ، ويقال لهم الحرورية ، نسبة إلى المكان الذى اجتمعوا فيه ، ويقال له حروراء ، ويسمون أنفسهم الشراة ، لأنهم يزعمون أنهم – شروا أنفسهم وابتاعوا آخرتهم بدنياهم [1]

وقد اجتمع الخوارج ، وأبرموا فيما بينهم ميثاقاً : « إن هذين الحكمين قد حكما بغير ما أنزل الله ، وقد كفر إخواننا حين رضوا بهما ، وحكموا الرجال فى دينهم ، ونحن على الشخوص من بين أظهرهم . وقد أصبحنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا الخلق» .

وروى الطبرى أنه لما وقع التحكيم ورجع على من صفين رجعوا مباينين له ، فلما انتهوا إلى النهر أقاموا به ، ويؤيد ابن الأثير ذلك فيقول أيضاً إنه لما رجع على من صفين فارقه الخوارج ، وأتوا حروراء فنزلوا بها ، وكانوا اثنى عشر ألفاً ، ونادى مناديهم عبد الله بن الكواء : الأمر شورى بعد الفتح ، والبيعة لله عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهى

---

(١) قال أحدهم – وهو معدان الإيادى :

سلام على من بايع الله شارياً ... وليس على الحزب المقيم سلام

عن المنكر . فقامت الشيعة فقالوا لعلى : فى أعناقنا بيعة ثانية ، نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت .

فقالت الخوارج استبقتم أنتم وأهل الشام إلى الكفر كفرسي رهان ، بايع أهل الشام معاوية على ما أحبوا وكرهوا ، وبايعتم علياً على أنكم أولياء من والى وأعداء من عادى ، فقال لهم زياد بن النضر : أما والله ما بايعنا علياً إلا على كتاب الله وسنة نبيه ، ولكنكم لما خالفتموه وجاءته شيعته قالوا نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت ، ونحن كذلك . وهو على الحق والهدى ، ومن خالفه ضال مضل .

ويقول الطبرى أن الإمام علياً بعث إليهم ابن عباس ، فرجع ولم يصنع شيئاً .

وقال المبرد وغيره : لما وجه ابن عباس إليهم ليناظرهم قال لهم ما الذى نقمتم على أمير المؤمنين ؟ قالوا له : قد كان للمؤمنين أميراً ، فلما حكم فى دين الله خرج من الإيمان ، فليتب بعد إقراره بالكفر نعدله . فقال ابن عباس : ما ينبغى لمؤمن لم يشب إيمانه بشك أن يقر على نفسه بالكفر . قالوا : إنه حكم — قال : إن الله أمر بالتحكيم فى قتل صيد، قال : (يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ)، فكيف فى إمامة قد أشكلت على المسلمين ؟ فقالوا : إنه حكم عليه فلم يرض، فقال : إن الحكومة كالإمامة ، ومتى فسق الإمام وجبت معصيته ، وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقاويلهما ، فقال بعضهم لبعض : جعلوا

احتجاج قريش حجة عليهم ، فهذا من الذين قال الله فيهم : (بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ)، وقال جل شأنه : (وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا) .

قال المبرد ثم ناظرهم أمير المؤمنين بعد مناظرة ابن عباس . ولنقرأ ما دار بين الإمام وعبد الله بن الكواء قائد الخوارج :

الإمام على : ما الذى نقمتم على بعد رضاكم ولايتى ، وجهادكم معى ، وطاعتكم لى ؟ فهلا برئتم منى يوم الجمل ؟ !

ابن الكواء : لم يكن هناك تحكيم .

الإمام على : يابن الكواء ، ويحك ! أنا أهدى أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

ابن الكواء : بل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الإمام على : فما سمعت قول الله عز وجل : (قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ) — أكان الله يشك أنهم هم الكاذبون ؟

ابن الكواء : إن ذلك احتجاج عليهم . وأنت شككت فى نفسك حين رضيت بالحكمين ، فنحن أحرى أن نشك فيك .

الإمام على : وإن الله تعالى يقول : (فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ) .

ابن الكواء : ذلك أيضاً احتجاج منه عليهم .

وبعد مناقشة طويلة قال ابن الكواء : «إنك صادق فى جميع قولك ، غير أنك كفرت حين حكمت الحكمين» .

الإمام على : ويحك يابن الكواء ! إنى إنما حكمت أبا موسى ، وحكم معاوية عمراً .

ابن الكواء : فإن أبا موسى كان كافراً .

الإمام على : متى كفر ؟ أحين بعثته أم حين حكم ؟

ابن الكواء : بل حين حكم .

الإمام على: أفلا ترى أنى إنما بعثته مسلماً فكفر فى قولك بعد أن بعثته ؟ أرأيت لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا من المسلمين إلى ناس من الكافرين ليدعوهم إلى الله فدعاهم إلى غيره — هل كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك شىء ؟

ابن الكواء : لا .

الإمام على : ويحك ! فما كان على أن ضل أبو موسى ؟ أفيحل لكم بضلالة أبى موسى أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم فتعترضوا بها الناس .

وقال لهم الإمام على : ألا تعلمون أن هؤلاء القوم لما رفعوا المصاحف

قلت لكم إن هذه مكيدة ، وإنهم لو قصدوا إلى حكم المصاحف لأتونى ، وسألونى ؛ أفتعلمون أن أحداً كان أكره لكم للتحكيم منى ؟

قالوا : صدقت .

الإمام على : هل تعلمون أنكم استكرهتمونى على ذلك حتى أجبتكم إليه ، فاشترطت أن حكمهما نافذ ما حكما بحكم الله ، فمتى خالفاه فأنا وأنتم من ذلك براء ، وأنتم تعلمون أن حكم الله لا يعدونى .

قالوا : اللهم نعم . حكمت فى دين الله برأينا ، ونحن مقرون بأنا كفرنا ، ولكننا الآن تائبون فأقر بما أقررنا به وتب ننهض معك الشام .

الإمام على : أما تعلمون أن الله قد أمر بالتحكيم فى شقاق بين الرجل وامرأته ، فقال سبحانه وتعالى : (فَابْعَثُوا حَكَماً من أَهْلِهِ وحَكَماً من أَهْلِهَا) .

ولم تثمر المناقشة التى كان يرجوها الإمام بل تأثر .

ومن شعره الذى قاله وكان يردده لما ساموه أن يقر بالكفر ويتوب حتى يسيروا معه إلى الشام أنه قال : أبعد صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتفقه فى الدين أرجع كافراً . ثم أنشد :

يا شاهد الله على فاشهد   أنى على دين النبى أحمد

من شك فى الله فإنى مهتدى

ويقول ابن أبي الحديد : كل فساد في خلافة عليّ أصله الأشعث ، ولولا تصرفه مع الإمام ما كانت حرب النهروان . فقد حدث أن الإمام عليًّا خرج إلى الخوارج في حروراء وناشدهم فاستجابوا . فقالوا إنا أذنبنا ذنباً عظيماً بالتحكيم . وقد تبنا فتب إلى الله كما تبنا نعد معك ، فقال الإمام أنا أستغفر الله من كل ذنب . فرجعوا معه وهم ستة آلاف ، فلما استقروا بالكوفة أشاعوا أن عليًّا رجع عن التحكيم ورآه ضلالا ، فأتى الأشعث عليًّا فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الناس قد تحدثوا أنك رأيت الحكومة ضلالا والإقامة عليها كفراً فقام على يخطب الناس فقال :

من زعم أني رجعت عن الحكومة فقد كذب ، ومن رآها ضلالا فقد ضل . ومن هذا يتبين أن الإمام أراد أن يسلك مع الخوارج مسلك التعريض ، فقال لهم كلمة مجملة يقولها الأنبياء والمعصومون فرضوا بها ، فألجأه الأشعث إلى التصريح حيث سأله بحضور من لا يمكنه معه إلا التصريح فانتقض ما دبره .

ويقول الطبري : لما وصل الإمام على إلى النهر بعث إليهم : ادفعوا لنا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم . ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشام . فلعل الله يردكم إلى خير مما أنتم عليه . فقالوا كلنا قتلتهم ، وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم . وخرج إليهم قيس بن سعد بن عبادة

فوعظهم ، واحتج عليهم ، وقال لهم : ركبتم عظيماً من الأمر . تشهدون علينا بالشرك ، وتسفكون دماء المسلمين . فلم ينجح ذلك فيهم ، وخطبهم أبو أيوب الأنصارى فقال : إنا وإياكم على الحال الأولى التى كنا عليها ، فعلام تقاتلوننا ؟ فقالوا : إنا لو تابعناكم اليوم حكمتم غداً ، قال : فإنى أنشدكم الله أن تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتى فى القابل . وقال لهم الإمام على أيتها العصابة التى أخرجها عداوة المراء واللجاجة وصدها عن الحق الهوى ، ألم تعلموا أنى نهيتكم عن الحكومة ، وأخبرتكم أن طلب القوم إياها منكم مكيدة ، ونبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وأنى أعرف بهم منكم ، عرفتهم أطفالا ورجالا ، وهم أهل المكر والغدر ، وأنكم إن فارقتم رأيى جانبتم الحزم ، فعصيتمونى ، حتى إذا أقررت بأن حكمت ، فلما فعلت شرطت واستوثقت ، فأخذت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات ، فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة ، فنبذنا أمرهما ، ونحن على أمرنا الأول ، فما الذى بكم ؟ ومن أين أتيتم ؟ قالوا : إنا حكمنا ، فلما حكمنا أثمنا ، وكنا بذلك كافرين ، وقد تبنا ، فإن تبت كما تبنا فنحن منك ومعك ، وإن أبيت فاعتزلنا فإنا منابذوك على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين . فقال الإمام على أصابكم حاصب (والحاصب هى الريح الشديدة التى تثير الحصباء) ، ولا بقى منكم آبر ، أبعد إيمانى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهجرتى معه ، وجهادى فى سبيل الله ، أشهد على

نفسى بالكفر ؟ ! لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين . ثم انصرف عنهم . فتنادوا لا تخاطبوهم ولا تكلموهم وتهيئوا للقاء الرب — الرواح الرواح إلى الجنة .

وخرج الإمام علىّ فعبأ أصحابه ، وعبأت الخوارج ، ورفع الإمام رايته مع أبى أيوب فناداهم : من جاء هذه الراية ممن لم يقتل فهو آمن ، ومن انصرف إلى الكوفة أو المدائن فهو آمن . فانصرف خمسمائة فارس منهم . وبقى مع الإمام ألفان وثمانمائة وزحفوا إلى على ويقول المسعودى إن الإمام وقف عليهم بنفسه فدعاهم إلى الرجوع والتوبة فأبوا ، ورموا أصحابه ، فقيل له قد رمونا . فقال كفوا . فكرروا القول عليه ثلاثاً وهو يأمرهم بالكف حتى أتى برجل قتيل متشحط بدمه ، فقال الإمام الله أكبر ! الآن حل قتالهم . احملوا على القوم . فحمل رجل من الخوارج على أصحاب على فخرج فيهم وجعل يغشى كل ناحية ويقول :

أضربهم ولو أرى علياًّ   ألبسته أبيض مشرفياًّ

فحمل عليه الإمام وقتله ثم خرج منهم آخر فحمل على الناس ففتك فيهم وجعل يكر عليهم وهو يقول :

أضربهم ولو أرى أبا حسن   ألبسته بصارمى ثوب غبن

فخرج إليه علىّ وهو يقول :

يأيهذا المبتغى أبا حسن   إليك فانظر أينا يلقى الغبن

وحمل عليه وشكه بالرمح وترك الرمح فيه . وانصرف على وهو يقول : لقد رأيت أبا حسن فرأيت ما تكره .

روى أبو عبيدة معمر بن المثنى قال التفت على إلى أصحابه فقال لهم : شدوا عليهم ، فأنا أول من يشد عليهم ؛ وحمل بذى الفقار حملة عنيفة ثلاث مرات ، كل حملة يضرب به حتى يعوج متنه ثم يخرج فيسويه بركبتيه ؛ ثم يحمل به حتى أفناهم ولم يبق منهم سوى أربعمائة أصيبوا بجراح وعجزوا عن القتال .

قال ابن الأثير : ولما فرغ على من أهل النهر حمد الله وأثنى عليه وقال إن الله قد أحسن بكم ، وأعز نصركم ، فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم بالشام . قالوا يا أمير المؤمنين . نفدت نبالنا . وكلت سيوفنا ، ونصلت أسنة رماحنا ، فارجع بنا إلى مصرنا ، لنستعد . ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا وكان المتصدى للإمام كالعادة الأشعث ابن قيس .

تسلل الجند ودخلوا الكوفة . ولاذ من لاذ بالمدن القريبة منهم ، وأيقن الإمام أن القوم مارقون من يده ، ولا طاعة له عليهم ، فانكسر عليه رأيه فى المسير ، وحاول للمرة الأخيرة أن يخطبهم فقال : « أيها الناس استعدوا للمسير إلى عدوكم ، ومن جهاده القربة إلى الله عز وجل ، ودرك الوسيلة عنده ، حيارى عن الحق ، جفاة عن الكتاب ، فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، وتوكلوا على الله ، وكفى بالله وكيلا ، وكفى

بالله نصيراً » فلم ينفروا . وكان السلم محبباً إليهم . ومضى أصحاب الإمام فى إيثار الراحة والدعة والنكوص عن الحرب كلما دعوا إليها .

أما معاوية فقد علا نجمه بين قومه . وأعانه طلاب المنافع عامدين . وأعانه الخوارج غير عامدين ، واشترى ضمائر الرؤساء . وأفسدهم على إمامهم ، وجعلهم بالقياس إليه منافقين . يعطونه الطاعة بأطراف ألسنتهم ، ويطوون قلوبهم على المعصية والخذلان .

بقى الإمام فى الكوفة يائساً منعزلا عن الناس يتمنى الموت كما قال فى بعض خطبه ، ويوجس شرًّا من أقرب المقربين إليه ، وانتهى بقبول المهادنة بينه وبين معاوية على أن تكون له العراق ولمعاوية الشام ، ويكفا السيف عن هذه الأمة فلا نزاع ولا قتال .

المأساة الأخيرة

يقول الطبرى فى تاريخه وابن الأثير فى الكامل اجتمع زعماء الخوارج ، ومنهم عبد الرحمن بن ملجم المرادى ، والبرك بن عبد الله التميمى الصريمى واسمه الحجاج ، وعمرو بن أبى بكر التميمى السعدى ، وتذاكروا أمر الناس . وعابوا الولاة . ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم ، فلو شرينا أنفسنا لله ، وقتلنا أئمة الضلال ، وأرحنا منهم البلاد ! فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم علياً ، وقال البرك بن عبد الله : أنا أكفيكم معاوية . وقال عمرو بن بكر أنا أكفيكم عمرو بن العاص . فتعاهدوا ألا ينكص أحدهم عن صاحبه الذى توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه ، وأخذوا سيوفهم فسموها . وأتى ابن ملجم الكوفة فلقى أصحابه بها ، وكتمهم أمره ، ورأى يوماً أصحاباً له من تيم الرباب ، ومعهم امرأة منهم اسمها « قطام » ، قتل أبوها وأخوها يوم النهر ، وكانت فائقة الجمال فخطبها ، فقالت : لا أتزوجك إلا على ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل على .

فقال : أما قتل على فما أراك ذكرته وأنت تريدينى .

قالت : بل التمس غرته . فإن أصبته شفيت نفسك ونفسى .

ونفعك العيش معى ، وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وما فيها .

قال : والله ما جاء بى إلا قتل على ، فلك ما سألت .

قالت : سأطلب لك من يشد ظهرك ويساعدك .

وبعثت إلى رجل من قومها اسمه وردان فأجابها . وأتى ابن ملجم شبيب بن بجرة ، فقال : هل لك فى شرف الدنيا والآخرة . قال : وما ذاك ؟ قال : قتل على بن أبى طالب .

قال شبيب : ثكلتك أمك ! لقد جئت شيئاً إدًّا ، كيف تقدر على قتله ؟ !

قال : أكمن له فى المسجد . فإذا خرج إلى صلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه .

قال : ويحك ! لوكان غير على لكان أهون . قد عرفت سابقته وفضله وبلاءه فى الإسلام وما أجدنى أنشرح لقتله .

قال : أما تعلمه قتل أهل النهر العباد الصالحين ؟ !

قال : بلى .

قال : فلنقتله بمن قتل من أصحابنا . فأجابه . فلما كانت ليلة الجمعة — وهى الليلة التى واعد ابن ملجم فيها أصحابه على قتل على ومعاوية وعمرو — جاءوا قطام وهى فى المسجد الأعظم معتكفة ، فدعت لهم بالحرير وعصبتهم به .

وخرج الإمام رضى الله عنه ونادى : الصلاة الصلاة ، فضربه شبيب بالسيف فوقع سيفه بعضادة الباب ، وضربه ابن ملجم على قرنه بالسيف وقال : الحكم لله لا لك يا على ولا لأصحابك . ويقول أبو الفرج فضربه ابن ملجم فأثبت الضربة فى وسط رأسه .

وفى الاستيعاب اختلفوا : هل ضربه فى الصلاة أو قبل الدخول فيها ، وهرب القوم نحو أبواب المسجد ، وتبادر الناس لأخذهم . قال أبو الفرج فأما شبيب فأخذه رجل فصرعه ، وقيل إن الذى قتله ابن عم له ، وأما ابن ملجم فلحقه رجل من همدان وقبض عليه ، وأخذ السيف من يده وجاء به أمير المؤمنين .

واحتمل الإمام فأدخل داره ، وجلست أم كلثوم عند رجليه ، ففتح عينيه ، فنظر إلى الحسن والحسين فقال : الرفيق الأعلى خير مستقراً وأحسن مقيلا . ثم عرق ، ثم أغمى عليه ، ثم أفاق فقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنى بالرواح إليه عشاء ثلاث مرات .

يقول ابن الأثير : — وأدخل ابن ملجم على أمير المؤمنين وهو مكتوف فقال : أى عدو الله ! ألم أحسن إليك ؟ قال : بلى . فما حملك على هذا ؟ قال : شحذته أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه . قال على : لا أراك إلا مقتولا به ، ولا أراك إلا من شر خلق الله ، قال النفس بالنفس . إن هلكت فاقتلوه كما قتلنى ، وإن بقيت

رأيت فيه رأيي ، يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين ، وتقولون قتل أمير المؤمنين ألا لا يقتلن إلا قاتلي .

ثم وجه كلامه إلى نجله الإمام الحسن قائلا « انظر يا حسن إذا أنا مت من ضربتي هذه فاضربه ضربة بضربة ، ولا تمثلن بالرجل ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إياكم والمُثْلةَ ولو بالكلب العقور » .

وشاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يولد الإمام فى الكعبة وأن يموت شهيداً في بيت من بيوت الله . وكان ذلك فى ليلة الجمعة ١٧ من رمضان سنة ٤٠ هـ .

وفى قتل الإمام يقول ابن أبي مياس المراوى (١)

ولم أر مهراً ساقه ذو سماحة　　كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة　　وضرب على بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من على وإن غلا　　ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

وطلب الإمام الحسن إحضار ابن ملجم ، فلما مثل بين يديه قال له ابن ملجم : ما الذى أمرك به أبوك ؟

ــ أمرني ألاّ أقتل غير قاتله ، وأن أشبع بطنك ، وأنعم وطأك ، فإن عاش اقتص أو عفا ، وإن مات ألحقك به .

---

(١) نسب البعض هذا الشعر للفرزدق .

فقال الأثيم « إن كان أبوك ليقول الحق ويقضى به فى حالة الغضب والرضا» .

ثم ضربه الإمام الحسن ضربة بالسيف وقتله ولم يمثل به .

وقد اختلف المؤرخون فى مسألة التمثيل به ، فذهب فريق من المؤرخين إلى أنه من الموضوعات الهامة ، وذلك لنهى أمير المؤمنين عنه مكرراً قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المثُلة حرام ولو بالكلب العقور» . فكيف يسوغ لريحانة الرسول وسبطه أن يعرض عن وصية أبيه .

كما اختلف القائلون فى الشخص الذى مثل بابن ملجم ، فالمحب الطبرى ذكر أن الذى مثل به الإمام الحسين ومحمد بن الحنفية ، وقد نهاهما الحسن عن ذلك فلم يذعنا له . وذكر أبو الفداء أن الذى قام بذلك عبد الله بن جعفر ، وذكر ابن أبى الحديد أن الحسن هو الذى قام به . وذكر الأستاذ العميد الدكتور طه حسين : « إن الشىء المحقق هو أن ولاة الدم لم ينفذوا وصية على فى أمر قاتله ، فهو قد أمرهم أن يلحقوه به ولا يعتدوا ، ولكنهم مثلوا به أشنع تمثيل فلما مات حرقوه بالنار» .

والذى أميل إليه أن التمثيل بابن ملجم لم يكن من أسباط الرسول لأن الإمام على بن أبى طالب قال للحسن يوصيه : « يا بنى ارفق بأسيرك وارحمه وأشفق عليه» . فقال له الحسن « يا أبتاه ، قتلك هذا للعين ، وفجعنا بك ، وأنت تأمرنا بالرفق به » .

فأجابه أمير المؤمنين : « يا بنى نحن أهل بيت الرحمة والمغفرة ، أطعمه مما تأكل واسقه مما تشرب ، فإن أنا مت فاقتص منه بأن تقتله ، ولا تمثل بالرجل ، فإنى سمعت جدك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » ، وإن أنا عشت فأنا أعلم ما أفعل به ، وأنا أولى بالعفو ، فنحن أهل بيت لا نزداد على المذنب إلينا إلا عفواً وكرماً .

ونعود إلى عمرو بن العاص ومعاوية لنرى مدى تنفيذ المؤامرة فيهما . فأما عمرو بن العاص فقد اشتكى بطنه تلك الليلة فلم يخرج من بيته ، وأمر خارجة بن حذافة صاحب شرطته أن يصلى بالناس ، فضربه عمرو بن بكير وهو يحسبه عمراً فقتله ، فقال عمرو : « أردتنى وأراد الله خارجة» . وأمر بقتله ، وأما معاوية فضربه البرك بن عبد الله وقد خرج للصلاة فوقعت الضربة على إليته ، وقيل إن الطعنة مسمومة لا يشفيها إلا الكى بالنار أو شراب يمنع النسل ، فجزع معاوية من النار ورضى بانقطاع النسل وهو يقول : « فى يزيد وعبد الله ما تقرّبه عينى » .

وأخيراً فهى المصادفة أن يتفق ثلاثة على قتل ثلاثة ، فيذهب الإمام وحده ضحية هذه المؤامرة ويفلت زميلاه منها : معاوية وعمرو بن العاص .

والرواة يختلفون بعد ذلك فى قبر الإمام — يقولون إنه دفن بالكوفة وعُمى قبره حتى لا ينبشه الخوارج ، وقوم يقولون إن الحسين نقله بعد ذلك إلى المدينة فدفنه إلى جانب فاطمة زوجه ، والغلاة من خصوم

شيعة يزعمون أنه نقل إلى الحجاز فى تابوت وضع على بعير ولكن ناقليه ضلوا بعيرهم ذاك ، فأخذه جماعة من الأعراب ظنوا أن عليه مالا ن ذلك التابوت . فلما رأوا أن فيه جثة قتيل دفنوه فى مكان مجهول ن الصحراء ، والكلام كما يقول الدكتور طه حسين فى هذه الروايات لختلفة لا ينقضى ، وليس فيه طائل أو غناء .

وقد انتهى النبأ بموت على إلى أهل المدينة ، وبلغ السيدة عائشة ى الله عنها فتمثلت قول الشاعر :

وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

كأنها أرادت أن تقول : إن علياً قد أراح بموته واستراح ، وليس ن شك فى أنه استراح بموته من شقاء كثير ، ولكن الشك كل الشك أنه أراح ، بل اليقين كل اليقين هو أن موت على رحمه الله لم يُرح تداً ، وإنما أورث المسلمين عناء وخلافاً لم ينقضيا بعد ، وما أرى بما سينقضيان قبل وقت يعلم الله وحده أيقصر أم يطول[١] .

ية أمير المؤمنين عليه السلام :

ذكرها أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه وأبو الفرج صبهانى فى مقاتل الطالبيين : « بسم الله الرحمن الرحيم » هذا ما أوصى

(١) الفتنة الكبرى للعميد الدكتور طه حسين .

به أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، ثم إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ، أوصيكما بتقوى الله وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تأسفا على شىء منها زوى عنكما ، وقولا بالحق واعملا للأجر (للآخرة) ، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً ، أوصيكما وجميع ولدى وأهل بيتى ومن بلغهم كتابى هذا من المؤمنين بتقوى الله ونظم أمركم وصلاح ذات بينكم ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام ، وإن البغضة حالقة الدين ولا قوة إلا بالله ، انظروا ذوى أرحامكم فصلوهم يهون الله عليكم الحساب ، والله الله فى الأيتام ، لا تغيروا أفواههم ، ولا يضيعوا بحضرتكم ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من عال يتيماً حتى يستغنى أوجب الله له الجنة ، كما أوجب لآكل مال اليتيم النار ، والله الله فى القرآن فلا يسبقكم إلى العمل به غيركم ، والله الله فى جيرانكم فإنهم وصية نبيكم ما زال يوصينا بهم حتى ظننا أنه سيورثهم ، والله الله فى بيت ربكم فلا يخلون منكم ما بقيتم ، فإنه إن ترك لم تناظروا ، وإن أدنى ما يرجع به من أمه أن يغفر له ما سلف من ذنبه ، والله الله فى الصلاة فإنها خير العمل وإنها عمود دينكم ، والله الله فى الزكاة

نإنها تطفئ غضب ربكم ، والله الله فى صيام شهر رمضان فإن صيامه جنة من النار ، والله الله فى الجهاد فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، إنما يجاهد فى سبيل الله رجلان : إمام هدى ، ومطيع له مقتد بهداه ، الله الله فى ذرية نبيكم فلا يظلمن بين أظهركم ، والله الله فى أصحاب بيكم الذين لم يحدثوا حدثاً ، ولم يؤوا محدثاً ، فإن رسول الله صلى الله عليه آله وسلم أوصى بهم ، ولعن المحدث منهم ومن غيرهم والمؤوى للمحدث ، لله الله فى الفقراء والمساكين فأشركوهم فى معايشكم ، والله الله فى النساء ما ملكت أيمانكم ، فإن آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ن قال : أوصيكم بالضعيفين : نسائكم وما ملكت أيمانكم ، ثم قال صلاة الصلاة ولا تخافن فى الله لومة لائم يكفكم من أرادكم وبغى عليكم ، لوا للناس حسناً كما أمركم الله عز وجل ، ولا تتركوا الأمر بالمعروف نهى عن المنكر فيولى الله الأمر شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم ، ليكم بالتواصل والتباذل والتبار ، وإياكم والتقاطع والتدابر والتفرق ، اونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله ديد العقاب ، حفظكم الله أهل البيت وحفظ فيكم نبيكم ، وأستودعكم ، خير مستودع وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله وبركاته » .

ويقول ابن الأثير إن الإمام دعا الحسن والحسين عليهم جميعاً السلام ل لهم نفس الوصية ، ثم نظر إلى محمد بن الحنفية فقال هل حفظت أوصيت به أخويك قال نعم قال : فإنى أوصيك بمثله ،

وأوصيك بتوقير أخويك العظيم حقهما عليك ، ولا تقطع دونهما أمراً ، ثم قال أوصيكما به فإنه شقيقكما وابن أبيكما ، وقد علمتما أن أباكما كان يحبه .

وقال للحسن : أوصيك أى بنى بتقوى الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وغفر الذنب ، وكظم الغيظ ، وصلة الرحم ، والحلم عن الجاهل ، والتفقه فى الدين ، والتعاهد للقرآن ، وحسن الجوار ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، واجتناب الفواحش .

ثم كرر قوله فى شأن ضاربه ، وقال للحسن : « أبصروا ضاربى ، أطعموه من طعامى ، واسقوه من شرابى » .

ثم قال : « إذا أنا مت فلا تغال فى كفنى ، وصل على » وكبر على سبعاً ، وفى رواية خمساً ، وغيب قبرى » .

قال ابن الأثير : ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى توفى عليه السلام .

روائع من كلام أمير المؤمنين

١ — فى حديث الإمام على بن أبى طالب عن الدنيا يقول : إنها تغوى وتسلم . وتذل وتضر ، (والآخرة تسر) ، وهى أمد (والآخرة أبد) . ومحل الغِيَر ودار المحن . وغنيمة الحمق ، وضحكة المغتر . وأمنية الأرجاس . ومطلقة الأكياس . إذ هى ظل زائل . ومنقطعة . وعواريها مرتجعة وفانية . كيوم مضى وشهر انقضى . وهى العاجلة . الفَرَح بها حُمْق . والاغترار بها خُرق . لأنها دار الغرباء . وسوق الخسران . لمواصل لها مقطوع . والكمال فيها مفقود . هى مصرع العقول . وعالم لنقائص والآفات ، الواله بها أعظم فتنة . وهى كما تجبر تكسر . وكما تقبل تدبر . وهى بالآمل الكبير بها قُل ، والترغيب فيها يوجب المقت . الزهد فيها هو الراحة العظمى ! هى حلم . والاغترار بها ندم . وسُمٌّ كله من لا يعرفه . ومعدن الشر ومزرعته . ودار الأشقياء ومنيتهم وموطنهم . أن الأمر قريب . والرحيل وشيك يقول : الموت مريح ، وهو مفارقة ر الفناء . وارتحال إلى دار البقاء . والأعمال الدنيا تجارة الآخرة . لحازم من ترك الدنيا للآخرة ، والرابح من باع العاجلة بالآخرة والفقر فى بعد العرض على الله . والجنة دار الأمان ودار الأتقياء ومعبرة الآخرة . ولذلك يذكّر الإنسان بالموت ويقصر الأمل . ويقول : الحى لا يكتفى ،

والأمل حجاب الأجل ، وهو خادع ضار لا غاية له ويصرع ، الأمانى أشتات تخدعك. وعند الحقائق تدعك. وتدنى الآجال وتنقطع بها ! العمر أنفاس معدودة والساعات تنهب الأعمار. والذكر الجميل أحد العمرين !

وروى عن الصادق عن آبائه — عنه — قال : إنى كنت فى (فدك) فى بعض حيطانها حين صارت لفاطمة رضى الله عنها إذا أنا بامرأة قد هجمت علىَّ وفى يدى مسحاة وأنا أعمل بها . فلما نظرت إليها طار قلبى مما تداخلنى من جمالها فتشبهتها ببثينة بنت عامر بن الجمحى . وكانت من أجمل نساء قريش فقالت لى :

« يا بن أبى طالب فهل لك أن تتزوجنى فأغنيك عن هذه المسحاة وأدلك على خزائن الأرض ويكون لك الملك » ؟

فقلت لها   من أنت حتى أتزوجك من أهلك ؟ .

فقالت   أنا الدنيا .

فقلت لها   ارجعى واطلبى زوجاً غيرى .

وأنشأتُ :

فغرّى سواى إننى غير راغب   لما فيك من عزّ وملك ونائل
وقد قنعت نفسى بما قد رُزِقتُه   فشأنك يا دنيا وأهل الغوائل
فإنى أخاف الله يوم لقائه   وأخشى عقاباً دائماً غير زائل !

وفى التفسير المنسوب للإمام الزكى الحسن العسكرى قال : دخل

جابر بن عبد الله الأنصارى على أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، فقال له :

يا جابر قوام الدنيا بأربعة : عالم يستعمل علمه . وجاهل لا يستنكف أن يتعلم ، وغنى جواد بمعروفه ، وفقير لا يبيع دينه بدنيا غيره !

يا جابر من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه . فإن فعل ما يجب لله عليه عرضها للدوام والبقاء . وإن قصر فيما يجب لله عليه عرضها للزوال والفناء .

وأنشأ يقول :

ما أحسن الدنيا وإقبالها إذا أطاع اللهَ من نالها !
من لم يواس الناس فى فضله عرض للإدبار إقبالها
فاحذر زوال الفضل يا جابر وأعط من دنياك من سالها

ثم قال : إذا كتم العالم العلم لأهله . وزها الجاهل فى تعلم ما لا بد منه . وبخل الغنى بمعروفه . وباع الفقير آخرته بدنياه . حل البلاء وعظم لعقاب :

وكم رأينا من ذوى ثروة لم يقبلوا بالشكر إقبالها
تاهوا على الدنيا بأموالهم وقيدوا بالبخل أقفالها
لو شكروا النعمة جازاهم مقالة الشكر التى قالها
لئن شكرتم لأزيدنكم لكنما كفركمُ غالها

وقال الإمام رضى الله عنه : يا بن آدم أيامك ثلاثة . يوم أنت فيه فاعمل فيه لنفسك واجهد لها ، وأمس ماض بخيره وشره لا تدركه إلى يوم القيامة ، وغد مقبل بسعده ونحسه لا تدرى أتبلغه أم لا . ثم أنشد :

مضى أمسك الماضى شهيداً معدلا ... وأصبحت فى يوم عليك شهيد
فإن كنت بالأمس اقترفت إساءة ... فثن بإحسان وأنت حميد
ولا ترخ فعل الخير يوماً إلى غد ... لعل غداً يأتى وأنت فقيد

ويقول رضى الله عنه :

فإن تكن الدنيا تعد نفيسة ... فإن ثواب الله أعلى وأنبل
وإن تكن الأرزاق حظاً وقسمة ... فقلة حرص المرء فى الكسب أجمل
وإن تكن الأموال للترك جمعُها ... فما بال متروك به الحر يبخل
وإن تكن الأبدان للموت أنشئت ... فقتل امرئ لله بالسيف أفضل

وذكر الثعلبى فى تفسير قوله تعالى : (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً) ، أنها نزلت فى « على » — قال : جاء مسكين ، فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد . مسكين من مساكين المؤمنين . أطعمونى يطعمكم الله ، فسمعه على فقال :

فاطم ذات المجد واليقين ... يا بنت خير الناس أجمعين
أما ترين البائس المسكين ... قد قام بالباب له حنين
يشكو إلى الله ويستكين ... يشكو إلينا جائع حزين

كل امـــرى بكسبـــه رهين وفاعـــل الخـــيرات يستبين
موعـــده جنـــة عليّين حـــرمها الله على الضّنين
وللبخيـــل موقف مهـــين تهـــوى به النـــار إلى سجّين
شرابه الحميم والغِسلين

ويقول الإمام على حاثـًّا على رعاية النعم :

إذا كنت فى نعمة فارعها فإن المعـــاصى تزيل النعم

ويقول الأستاذ العلامة العقاد معلقـًا على قول الإمام : « يا دنيا غرى غيرى . . . غرى غيرى » : « وإنها لأكثر من كلمة وأكثر من دعاء — نها لسان قدر وعنوان حياة ، فقد خلق الإمام وفى كل خليقة من خلائقه لكبار اجتراء على الدنيا على ضرب من ضروب الاجتراء ، خلق شجاعـًا الغًا فى الشجاعة ، وزاهداً بيِّن الزهد ، ودارسـًا محبـًّا للحقيقة الدينية تحراها حيث اهتدى إليها ، والشجاع جرىء على الدنيا لأنه لايبالى الحياة ، الزاهد جرىء على الدنيا لأنه لا يبالى النعيم ، وطالب الحقيقة جرىء على دنيا لأنها طريق عنده إلى غاية من ورائها ، فأى مصير لهذا الرجل غير شهادة فى زمن لم يعرف بطارئ من الطوارئ كما عرف بالإقبال على الدنيا ؟ مام الناس قبله عن الدنيا ، ثم أقبلوا على الدنيا العريضة بحذافيرها ، دأت حماسة الدعوة النبوية وثابت الطبائع إلى مألوفها الذى أشربت ليه ، وتدفقت الأموال من الأمصار المفتوحة على نحو لم تعهده الجزيرة

العربية قط فى تاريخها القديم ، وأقبل الناس على الدنيا ، بل هرولوا إلى الدنيا ، وإذا بخليفة جرىء عليها زاهد فيها يقف لهم فى طريقها ويصدهم عنها ، يصد ماذا ؟ يصد الطوفان وهو مندفع من وراء السدود ، يصد الطبيعة الإنسانية وهى منطلقة من عقال التقوى ، يصد ما لا سبيل إلى صده بحال ، فهو مستشهد لا محالة ولو مات على سريره ، فإن الإنسان قد يعيش عيشة الشهداء ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميتة الشهداء ، وقد لزمته آية الشهادة فى كل قسمة كتبت له وكل حركة سعى إليها أوسعت إليه ، ومن آيات الشهادة ألا تغره الدنيا وقد غرت حوله كل إنسان » .

وعن الدين؛ يفهم من حديثه عنه : أن الدين ذخر ، والعلم دليل ، ولا يصلحه إلا العقل، وهو يعصم ويصد عن المحارم ويجل . ويصفه بأنه حبور وأفضل مطلوب وأقوى عماد ، وأنه شجرة أصلها التسليم والرضا ، وثمرتها الزهد ، الصدق لباسه واليقين رأسه ، والإخلاص غايته ، والجهاد عماده ، والجدل فيه يفسد اليقين ، ويقرر أن الوفاء عنوان وفور الدين وقوة الأمانة ، وأن الشك يفسد الدين والمرتاب لا دين له ، والمصيبة بالدين أعظم المصائب ، وإخوان الدين أبقى مودة ، والدين أشرف النسبين ، والمغبون من فسد دينه ، والخيانة دليل على قلة الورع وعدم الديانة .

ويقول رضى الله عنه :

إن المكارم أخــلاق مطهرة   فالدين أولها والعقل ثانيهــا
والعــلم ثالثهــا والحلم رابعهــا   والجود خامسها والفضل ساديها

والبر سابعها والصبر ثامنهـــا والشكر تاسعها واللين باقيهـــا
والنفس تعلم أنى لا أصادقهـــا ولست أرشد إلا حين أعصيها

وعن الإيمان يقول : إن الإيمان أمان ونجاة، وأعلى غاية، وشفيع منج ، وشهاب لا يخبو ، وأمارات العز ، وأفضل الأمانين ، وأصح الولائج ، وبرىء من الحسد والنفاق ، منزه عن الزيغ والشقاق ، وهو صبر فى البلاء وشكر فى الرخاء .

ويصفه بأنه إخلاص العمل ، وبأن الصبر رأسه وثمرته ، والصدق حليته وأقوى دعائمه ، والفقر زينته ، واليقين عنوانه ، ولذا يقول :

« المرء بإيمانه ، والمؤمن بعمله ، آلف مألوف متعطف ، كيس عاقل : (إذ الكافر فاجر جاهل) ، الوجل شعاره ، والرفق أخوه ، والتقوى حصنه ، والحلم نظام أمره ، وهو منيب مستغفر تواب (إذ المرتاب يستكبر ، والمنافق متكبر مصر مرتاب) ، لين هين ، سهل مؤتمن (إذ الكافر خب ، شديد الخداع ، جاف خائن) ، ينصف من لا ينصفه ، مغمور بفكرته ضنين بخلته ، لين العريكة ، سهل الخليقة ، (إذ الكافر شرس الخليقة سيئ الطريقة) ، قليل الزلل كثير العمل (إذ المنافق قليل العمل كثير الخطل) ، سيرته القصد ، وسنته الرشد ، يعاف اللهو ، ويألف الجد ، صدوق اللسان ، بذول الإحسان ، ينتظر إحدى الحسنيين غريزته النصح ، وسجيته الكظم ، وهو لا يظلم ولا يتأثم ، فالمؤمنون أعظم

أحلامًا ، خيراتهم مأمولة ، وشرورهم معدومة ، الوجل والخوف شعارهم ، والشوق خاصة العارفين منهم ، والتجمل من أخلاقهم .

فالأمانة إيمان ، والنجاة مع الإيمان ، والفضل مع الإحسان ، (إذ المكر السيئ والغل مجانبان للإيمان) .

ومن حديثه عن العلم : إن العلم عز وحرز ، وأعظم وأغلى كنز لا يفنى ، وجمال لا يخفى ، ونسب لا يُخفى ، وحياة جلالة تنجى وتنجد ، وأجل بضاعة ، ونعم الدليل ، وأشرف هداية ، ومكسب النبل وداعى الفهم ، وزينة الأغنياء ، وغنى الفقراء ، ومصباح العقل ، وينبوع الفضل ، وقائد الحلم وأصله ، ونزهة المتقين ، وخير دليل لا ينتهى ، العامل به كالسائر على الطريق الواضح ، والعلم بالله عز وجل شرف مرجوّ ، وهو رشد لمن عمل به ، ويهدى إلى الحق . وينسب العقل للعلم بقوله : العلم عنوان العقل والجهل فساد كل أمر .

ويقول رضى الله عنه :

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله وأجسادهم قبل القبــور قبور
وإن امرأ لم يحى بالعلم ميت وليس له حين النشور نشور

* * *

ما الفضل إلا لأهل العــلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء

فقم بعلم ولا تطلب به بدلا فالناس موتى وأهل العلم أحياء

* * *

العلم زين فكن للعلم مكتسبًا وكن له طالبًا ما عشت مقتبسا
اركن إليه وثق بالله واغن به وكن حليمًا رزين العقـــل محترسا

ويقول الإمام أيضًا: العقل يوجب الحذر، والجهل يوجب الغرور ، العقل حيث كان إلف مألوف ، وينبوع الخير ، وصلاح كل أمر ، وشجرة ثمرها الحياء والسخاء ، الجهل يفسد المعاد ، والهوى ضد العقل وعدوه ، والغفلة ضد الحزم ، اللهو والحقد من ثمار الجهل ، واليقظة ستبصار ونور ، والغفلة غرور وأضرّ الأعداء . العاقل يطلب الكمال ، الجاهل يطلب المال: الظفر بالحزم، والحزم بالتجاريب وبإجالة الرأى، التجارب لا تنقضى والعاقل منها فى زيادة . العاقل من اتعظ بسواه وأمات شهوته ، والقوى من قمع لذته ، والجاهل من انخدع بهواه . ولذا يقول : علم ينجيك والجهل يرديك . ويعلل ذلك بأن العقل مركبه والتواضع رته والفهم آيته .

وفى هذا يقول رضى الله عنه :

نضل قسم الله للمـــرء عقله وليس من الخيرات شيء يقاربه
ا أكمل الرحمن للمـــرء عقله فقـــد كملت أخلاقه ومآربه
بش الفتى فى الناس بالعقل إنه على العقل يجرى علمه وتجاربه

فمن كان غلابًا بعقل ونجـــدة فذو الجد فى أمر المعيشة غالبه
يزين الفتى فى الناس صحة عقله وإن كان محظوراً عليه مكاسبه
يشين الفتى فى الناس قلة عقله وإن كرمت أعراقه ومناصبه

ويرى الإمام رضى الله عنه أن العلم لقاح المعرفة وإحدى الحياتين ، العالم حى وإن كان ميتًا ، والجاهل ميت وإن كان حيًّا ، العلم حياة وشفاء ، والجهل موت وداء ، الحلم حلية العلم وعلة السلم . العالم ينظر بقلبه وخاطره ، والجاهل ينظر بعينه وناظره .

وعن العمل يقول الإمام رضى الله عنه : إنه عنوان الطوية وشعار المؤمن ، وأكمل خلف ، ويربط الإمام العلم بالعمل ويقول : العلم بالعمل . ويوضح فهمه للصلة بينهما بقوله : العلم بغير عمل وبال ، والعمل بغير علم ضلال .

ويقول أيضًا إن العاقل من يعتمد على عمله والجاهل من يعتمد على أمله ، والإخلاص أشرف نهاية وهو خير العمل ، والعمل بطاعة الله أربح ، والرجاء لرحمة الله أنجح ، والعمل كله هباء إلا ما أخلص فيه ، والنية الصالحة أحد العملين ، والتوكل أفضل عمل ، والأعمال ثمار النيات ، والعمل الجليل ينبئ عن علو الهمة ، والمواساة أفضل الأعمال ، والمداراة أحمد الخلال ، والإيثار فضيلة ، والبر عمل مصلح ، والإحسان غنم ، والعفو من الإحسان ، والمحسن والعاقل من صدّقت أقواله أفعاله ، والكيس

من عرف نفسه وأخلص أعماله ، والصدقة أفضل القرب والحسنات ، والكريم من بذل إحسانه ، واللئيم من أكثر امتنانه ، والعاقل من بذل نداه ، والحازم من كف أذاه ، والشكر ترجمان النية ولسان الطوية .

ويقول رضى الله عنه حاثًّا على العمل :

وما طلبُ المعيشة بالتمنى ولكن ألق دلوك فى الدلاء
تجئك بمائها يومًا ويومًا تجئك بحمأة وقليل ماء

وعن العبادة يفهم من حديثه عنها أنها فوز ، أولها انتظار الفرج بالصبر ، وأفضلها اليقين ، والإخلاص روحها وثمرتها وغايتها ، والفكر عبادة . والانفراد راحة المتعبدين ، والإيثار أفضل عبادة وأجل سيادة ، والغريب من ليس له حبيب ، والمتعبد ليس غريبًا ، والإشراك كفر ، والتوحيد حياة النفس . وهو ألا تتوهم ، والتسليم ألا تتهم ، والمتعبد سخى ، والبخل بالموجود سوء ظن بالمعبود ، والإحسان محبة ، والدنيا بالإنفاق ، والآخرة بالاستحقاق ، والذكر جلاء البصائر ونور السرائر ، ومجالسة المحبوب ، وهداية العقول ، وتبصرة النفوس ، ولذة المحبين ، وهو نور شرح الصدر ، وأهل القرآن والذكر هم أهل الله وخاصته .

ويناجى ، رضى الله عنه ، الله سبحانه وتعالى فيقول :

لبيك لبيك أنت مولاه فارحم عبيداً إليك ملجاه
يا ذا المعالى إليك معتمدى طوبى لمن كنت أنت مولاه

طوبى لمن كان نادمًا أرقًا يشكو إلى ذى الجلال بلواه
وما به علة ولا سَقَمٌ أكثر من حبه لمولاه
إذا خلا فى الظلام مبتهلا أجابه الله ثم لبَّاه
سألت عبدى وأنت فى كنفى وكل ما قلتَ قد سمعناه
صوتك تشتاقه ملائكتى فذنبك الآن قد غفرناه
فى جنة الخلد ما تمناه طوباه طوباه ثم طوباه
سلنى بلا خشية ولا رهب ولا تخف إننى أنا الله

ويستمر رضى الله عنه مناجيًا فيقول

لك الحمد ياذا الجود والمجد والعلا تباركت تعطى من تشاء وتمنع
إلهى وخلاقى وحرزى وموئلى إليك لدى الإعسار واليسر أفزع
إلهى لئن جلَّت وجمَّت خطيئتى فعفوك عن ذنبى أجل وأوسع
إلهى لئن أعطيت نفسىَ سؤلها فها أنا فى أرض الندامة أرتع
إلهى ترى حالى وفكرى وفاقتى وأنت مناجاتى الخفية تسمع
إلهى فلا تقطع رجائى ولا تزغ فؤادى فلى فى سيب جودك مطمع
إلهى لئن خيبتنى أو طردتنى فمن ذا الذى أرجو ومن ذا أشفع
إلهى أجرنى من عذابك إننى أسيرٌ ذليلٌ خائف لك أخضع
إلهى فآنسنى بتلقين حجتى إذا كان لى فى القبر مثوى ومضجع
إلهى فإن عذبتنى ألف حجة فحبل رجائى منك لا يتقطع
إلهى أذقنى طعم عفوك يوم لا بنون ولا مال هنالك ينفع

إلهى إذا لم ترعنى كنت ضائعاً ... وإن كنت ترعانى فلست أضيع
إلهى إذا لم تعف عن غير محسن ... فمن لمسىء بالهوى يتمتع
إلهى لئن فرطت فى طلب التقى ... فها أنا إثر العفو أقفو وأتبع
إلهى ذنوبى بذت الطود واعتلت ... وصفحك عن ذنبى أجل وأرفع
إلهى أقلنى عثرتى وامح حوبتى ... فإنى مقـــر خائف متضرع
إلهى أنلنى منك روحاً ورحمة ... فلست سوى أبواب دارك أقرع
إلهى لئن أقصيتنى أو طردتنى ... فما حيلتى يا رب أم كيف أصنع
وكلهم يرجو نوالك راجيـــا ... لرحمتك العظمى وفى الخلد يطمع
إلهى يمنينى رجـــائى ســـلامة ... وقبح خطيئـــاتى علىّ يشنع
إلهى فإن تعفو فعفوك منقذى ... وإلا فبالذنب المدبر أصرع
إلهى بحق الهـــاشمى وآله ... وحـــرمة أبرار همُ لك خشع
إلهى فانشرنى على دين أحمد ... تقياً نقياً قانتـــا لك أخشـــع
ولا تحـــرمنىّ يا إلهى وسيدى ... شـــفاعته الكبرى فذاك المشفع
وصلّ عليه ما دعاك موحد ... وناداك أخيـــار ببـــابك ركع

ويفهم من حديثه عن اليقين أن اليقين جلباب الأكياس ، وأفضل
ور ، وزهادة التوكل من قوته ، وهو يثمر الزهد، والمغبوط من قوى يقينه.
الشاك لا يقين له ، إذ الشك يطفىء نور القلب ، واليقين يرفع الشك .
الريبة توجب الظنة ، والارتياب يوجب الشرك . والثقة بالله أقوى عمل .
لتوكل كفاية لمن اعتمد ، وحصن الحكمة ، وأفضل عمل . والطاعة

تطفىء غضب الرب ، والعمل رفيق الموقنين ، والصدق أشرف خلائقه ؛ (وللوصول إلى اليقين يجب حق الحق) .

ويفهم من حديثه عن **الحق** أن الحق أحق أن يتبع ، وهو سيف قاطع ، وأفضل وأوضح سبيل وأقوى ظهير ، (إذ الباطل أضعف نصير) والخضوع لغير الحق دناءة ، والتعاون على إقامة الحق أمانة وديانة ، المغلوب به غالب ، والمحارب له محروب ! والعقل رسول الحق ، والصدق لسانه ، وهو سيف على أهل الباطل ، القول به خير من العى والصمت ، والعزلة حسن التقوى ، والعز إدراك الانتصار بالحق ، والحق يزيل الباطل .

وله رضى الله عنه فى وصف العزيز بالحق والمحب له :

ومحترس من نفسه خوف ذلة ... تكون عليه حجة هى ماهيا
فجانب أسباب السفاهة والخنا ... عفافاً وتنزيهاً فأصبح عاليا
وصان عن الفحشاء نفساً كريمة ... أبى همة إلا العلا والمعاليا
تراه إذا ماطاش ذو الجهل والصبا ... حليماً وقوراً صائن النفس هاديا
له حلم كهل فى صرامة حازم ... وفى العين إن أبصرت أبصرت ساهيا
يروق صفاء الماء منه بوجهه ... فأصبح منه الماء فى الوجه صافيا
ألم تره يرعى ذماماً لجاره ... ويحفظ منه العهد إذ ظل راعيا
صبوراً على صرف الليالى دريئة ... كتوماً لأسرار الضمير مداريا
له همة تعلو على كل همة ... كما قد علا البدر النجوم الدراريا

ثم لنستمع إليه رضى الله عنه وهو ينصح ابنه الحسين ، رضى الله عنه:

أبنىّ إن الذكر فيه مواعظ ... فمن الذى بعظاته يتأدب
فاقرأ كتاب الله جهدك واتله ... فيمن يقوم هناك أومن ينصب
بتفكر وتخشع وتقرب ... إن المقرب عنده المتقرب
واعبد إلهك ذا المعارك مخلصاً ... وانصت إلى الأمثال فيما تضرب
وإذا مررت بآية مخشية ... تصف العذاب فقف ودمعك يسكب
يا من يعذب من يشاء بعدله ... لا تجعلنى فى الذين تعذب
إنى أبوء بعثرتى وخطيئتى ... هرباً وهل إلا إليك المهرب
وإذا مررت بآية فى ذكرها ... وصف الوسيلة والنعيم المعجب
فاسأل إلهك بالإنابة مخلصاً ... دار الخلود سؤال من يتقرب
لتنال عيشاً لا انقطاع لوقته ... وتنال ملك كرامة لا تسلب
بادر هواك إذا هممت بصالح ... خوف الغوالب إذ تجىء وتغلب
وإذا هممت بسيئ فاغمض له ... وتجنب الأمر الذى يتجنب

ومن حديثه عن العدل يفهم أن العدل أقوى أساس ، وأشرف سجية ، وهو ملاك ، والجور هلاك . ويصفه بأنه إنصاف وراحة ، وعنوان النبل ، أفضل الشيم ، وأنه فوز ومكانة وحياة (إذ الجور ممات) ، وأنه حياة لأحكام ، وقوام الرعية ، إذ به تصلح البرية ، وهو فضيلة السلطان . يصف الظلم بأنه عقاب يسلب ويزيل ويطرد النعم .

ولننظر إلى كتابه الذى أرسله إلى مصقلة بن هبيرة الشيبانى وهو عامله

على « أردشير خرّة » ، ومن هذا الكتاب نرى كيف كان الإمام يعدل فى الرعية ، ويقسم بالسوية ، قال : « بلغنى عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك وأغضبت إمامك ، أنك تقسم فىء المسلمين الّذى حازته رماحهم وخيولهم، وأريقت عليه دماؤهم ، فيمن اعتامك من أعراب قومك ، فوالّذى فلق الحبة وبرأ النسمة لئن كان ذلك حقـًّا لتجدن بك علىّ هوانـًا ، ولتَخِفنّ عندى ميزانـًا ، فلا تستهن بحق ربك ، ولا تصلح دنياك بمحق دينك ، فتكون من الأخسرين أعمالا .

ألاوإن حقّ من قبلك وقبلنا من المسلمين فى قسمه هذا سواء يَردون عندى عليه ويَصدرون عنه » .

وهذا كتاب آخر يوجهه إلى بعض عماله تجد فيه ما يجب أن يتصف به العامل المسئول من شدة ولين حسبما تقتضيه الظروف ، وأن يسير بالعدل فى الرعية بدون تحيز : « أما بعد فإنك ممن استظهر به على إقامة الدين ، وأقمع به نخوة الأثيم ، وأشدّ به لهاة الثغر المخوف ، فاستعن بالله على ما أهمك ، واخلط الشدة بضغث من اللين ، وارفق ما كان الرفق أرفق ، واعتزم بالشدة حين لا يغنى عنك إلا الشدة ، أخفض للرعية جناحك ، وألن لهم جانبك ، وآس بينهم فى اللحظة والنظرة والإشارة والتحية حتى لا يطمع العظماء فى حيفك ولا ييأس الضعفاء من عدلك ، والسلام » .

وصـــاياه

من وصية له عليه السلام يوجهها لعسكره قبل لقاء العدو بصفين قال : « لا تقاتلوهم حتى يبدءوكم ، فإنكم بحمد الله على حجة ، وترككم إياهم حتى يبدءوكم حجة أخرى لكم عليهم ، فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تصيبوا مُعوراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تهيجوا النساء بأذى ، وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم ، فإنهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول ، إن كنا لنؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات ، وإن كان الرجل ليتناول المرأة فى الجاهلية بالنهر أو الهراوة فيُعَيَّر بها وعقبه من بعده » .

وهذه وصية أخرى وصى بها جيشاً بعثه إلى العدو فقال :

« فإذا نزلتم بعدو ، أو نزل بكم ، فليكن معسكركم فى قبيل الأشراف أو سفاح الجبال أو أثناء الأنهار كيما يكون لكم ردءاً وَدونكم مَرَداً ، ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين ، واجعلوا لكم رقباء فى صياصى الجبال ومناكب الهضاب ، لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو مأمن ، واعلموا أن مقدمة القوم عيونهم ، وعيون المقدمة طلائعهم ، وإياكم والتفرق ، فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً ، وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً ، وإذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كِفةً ، ولا تذوقوا النوم إلا غِراراً أو مضمضة . . . » .

ومنها قوله للولاة : « إنى سيرت جنوداً هى مارة بكم إن شاء الله ، وقد أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الأذى وصرف الشذى ، وأنا أبرأ إليكم وإلى ذمتكم من معرة الجيش إلا من جوعة المضطر لا يجد عنها مذهبًا إلى شيعة فنكلوا بمن تناول منهم شيئًا ظلمـًا عن ظلمهم، وكفوا أيدى سفهائكم عن مضارتهم والتعرض لهم . . . » .

ومن وصيته عليه السلام لمعقل بن قيس الرياح حين أنفذه إلى الشام فى ثلاثة آلاف مقدمة له قال :

« اتق الله الذى لا بدلك من لقائه ، ولا منتهى لك دونه ، ولا تقاتلن إلا من قاتلك ، وسر البردين – أى الغداة والعشى – وغور بالناس ، ورَفه بالسير ، ولا تسر أول الليل ، فإن الله جعله سكنـًا وقدره مقامـًا لا ظعنـًا ، فأرح فيه بدنك ، وروّح ظهرك ، فإذا وقفت حين يتبطح السحر ، أو حين ينفجر الفجر ، فسِر على بركة الله ، فإذا لقيت العدو فقف من أصحابك وسطـًا ، ولا تدن من القوم دنو من يريد أن ينشب الحرب ، ولا تباعد منهم تباعد من يهاب البأس حتى يأتيك أمرى ، ولا يحملنكم شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم والاعتذار إليهم » .

ومن وصيته عليه السلام يوصى بها من يستعمله على الصدقات ، وتعدّ هذه الوصية المثل الأعلى فى العدالة فى الإسلام :

« انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ، ولا تروعنّ مسلمـًا

ولا تجتازنّ عليه كارهًا ، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله فى ماله ،
فإذا قدمت على الحى فانزل بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم ، ثم امض
إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخدج بالتحية
لهم ، ثم تقول : عبادالله أرسلنى إليكم ولىّ الله وخليفته لآخذ منكم حق الله
فى أموالكم ، فهل لله فى أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليّه ، فإن قال قائل :
لا ، فلا تراجعه ، وإن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تخيفه
يتوعده أو تعسفه أو ترهقه ، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فإن
كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه ، فإن أكثرها له ، فإذا
نيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به ، ولا تُنفرنّ
بيمة ولا تفزعنّها ، ولا تسوءنّ صاحبها فيها ، واصدع المال صَدعين ،
خيّره ، فإذا اختار فلا تعرض لما اختاره ، ثم اصدع الباقى صَدعين ثم
يّره ، فإذا اختار فلا تعرض لما اختاره ، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه
ء لحق الله فى ماله ، فاقبض حق الله منه ، فإن استقالك فأقلِه ، ثم
لطهما ، ثم اصنع مثل الذى صنعت أولا حتى تأخذ حق الله فى ماله ،
تأخذن عوداً ولا هَرِمةً ولا مكسورة ولا مهلوسة ولا ذات عوار ،
تأمنن عليها إلا من تثق بدينه رافقًا بمال المسلمين حتى يوصله إلى
م ، فيقسمه بينهم ، ولا توكل بها إلا ناصحًا شفيقًا وأمينًا حفيظًا
مُعنِف ولا مجحف ولا مغلب ولا متعب ، ثم احدر إلينا ما اجتمع
ك نُصَيّره حيث أمر الله ، فإذا أخذها أمينك فأوعز إليه ألاّ يحول

بين ناقة وبين فصيلها ، ولا يُمصّر لبنها فيضر ذلك بولدها ، ولا يجهدنها ركوبًا ، وليعدل بين صواحباتها فى ذلك وبينها ، وليرفه على اللاّغب ، وليستأن بالنقب والظالع ، وليوردها ما تمر به من الغدر ، ولا يعدل بها عن نبت الأرض إلى جوادّ الطرق ، وليروحها فى الساعات ، وليمهلها عند النّطاف والأعشاب حتى تأتينا بإذن الله بُدنًا مُنقيات غير متعبات ولا مجهودات ، لنقسمها على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله ، فإن ذلك أعظم لأجرك وأقرب لرشدك إن شاء الله » .

وعهده إلى مالك الأشتر فيه من الوصايا والحكم ما لم يحوه عهد قبله أو بعده . يقول الإمام رضى الله عنه : « واردد إلى الله ورسوله ما يضعلك من الخطوات ، ويشتبه عليك من الأمور ، فقد قال الله تعالى لقوم أحبّ إرشادهم : (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول) — فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه ، والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة .

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ، ولا يتمادى فى الزلة ولا يَحْصُر من الفىء إلى الحق إذا عرفه ، ولا تُشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه ، وأوقفهم فى الشبهات ، وآخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرمًا بمراجعة الخصم ، وأصبرهم على تكشف الأمور ، وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء ، وأولئك قليل . ثم أكثر

تعاهد قضائه وأفسح له فى البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس . وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتياب الرجال له عندك ، فانظر فى ذلك نظراً بليغاً ، فإن هذا الدين قد كان أسيراً فى أيدى الأشرار يُعمل فيه بالهوى وتُطلب به الدنيا » .

ويقول سلام الله عليه : « ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة . واجتمعت بها الألفة . وصلحت عليها الرعية ، ولا تُحدثن سنةً تضر بشىء من ماضى تلك السنن فيكون الأجر لمن سنّها ، والوزر عليك بما نقضت منها . . .

وأكثر مدارسة العلماء ومناقشة الحكماء فى تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك وإقامة ما استقام به الناس قبلك . . .

واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض . فمنها جنود الله ، ومنها كتّاب العامة والخاصة ، ومنها قضاة لعدل ، ومنها عمّال الإنصاف والرفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من هل الذمة ومسلمة الناس ، ومنها التجار وأهل الصناعات ، ومنها الطبقة لسفلى من ذوى الحاجة والمسكنة . وكلا قد سمى الله سهمه ، ووضع لى حده فريضة فى كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله عهداً منه عندنا محفوظاً .

فالجنود حصون الرعية . وزين الوُلاة ، وعز الدين ، وسبل الأمن .

وليس تقوم الرعية إلا بهم — ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذى يقوون به فى جهاد عدوهم ويعتمدون عليه فيما يُصلحهم ويكون من وراء حاجتهم. ثم لا قوامَ لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتّاب لما يحكمون من المعاقد ويجمعون من المنافع ويُؤتمنون عليه من خَواصّ الأمور وعَوامّها؛ ولا قوامَ لهم جميعًا إلا بالتجار وذوى الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم. ويقيمونه من أسواقهم، ويكفونهم من الترفق بأيديهم ما لا يبلغه رفق غيرهم. ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رِفدهم ومعونتهم وفى الله لكل سعة، ولكل على الوالى حقّ بقدر ما يصلحه؛ وليس يخرج الوالى من حقية ما ألزمه الله من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله وتوطين نفسه على لزوم الحق والصبر عليه فيما خفّ عليه أو ثقل. فولّ من جنودك أنصحهم فى نفسك لله ولرسوله ولإمامك، وأنقاهم جيبًا. وأفضلهم حلمًا ممن يبطئ عن الغضب، ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء، وينبو على الأقوياء، وممن لا يثيره العنف، ولا يقعد به الضعف.

ثم الصق بذوى الأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة. ثم أهل النجدة والشجاعة والسماحة، فإنهم جماع من الكرم وشُعب من العرف، ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما، ولا يتفاقمن فى نفسك شيء قويتهم به. ولا تَحقِرنّ لُطفًا تعاهدتهم به وإن قل؛

فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك ، ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمها ، فإن لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به ، وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه . . .

وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم فى معونته ، وأفضل عليهم من جدته بما يسعهم ويسع من وراءَهم من خُلوف أهليهم حتى يكون همّهم همًّا واحداً فى جهاد العدو ، فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك ، وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل فى البلاد ، وظهور مودة الرعية ، وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة الأمور وقلة استثقال دُولهم وترك استبطاء انقطاع مدتهم ، فأفسح فى آمالهم ، وواصل فى حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم ، فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهزّ الشجاع وتحرض الناكل إن شاء الله .

ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى ، ولا تضيفنّ بلاء امرئ إلى غيره ، ولا تقصرنّ به دون غاية بلائه ، ولا يدعونّك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً ، ولا ضعة امرئ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً » .

الإمام يصف أهـل البيت

يقول الإمام عليّ رضى الله عنه فى وصف أهل البيت :

هم عيش العلم وموت الجهل ، يخبركم حلمهم عن علمهم ، وصمتهم عن حِكَم منطقهم ، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه . هم دعائم الإسلام ، وولائج الاعتصام ، بهم عاد الحق فى نصابه ، وانزاح الباطل عن مُقامه وانقطع لسانه عن منبته ، عقلوا الدين عقل وعاية لا عقل سماع ورواية ، فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل .

لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه وسلم وآله من هذه الأمة أحد ، ولا يُسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً . هم أساس الدين وعماد اليقين ، إليهم يفيء الغالى وبهم يلحق التالى ، ولهم خصائص حق الولاية وفيهم الوصية والوراثة – الآن إذ رجع الحق إلى أهله ونقل إلى منتقله . . .

ومن كلامه أيضًا فى وصفهم :

« فأين يتاه بكم ، بل كيف تَعمهون وبينكم عترة نبيكم وهم أزمَّة الحق وأعلام الدين وألسنة الصدق ، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن وردوهم ورود الهيم العِطاش . . .

« انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سَمتهم واتبعوا أثَرَهم ، فلن يُخرجوكم من هُدى ، ولن يُعيدوكم فى رَدى ، فإن لبدوا فالبدوا ، وإن نهضوا فانهضوا ، ولا تسبقوهم فتضلوا ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا . . .

ألا إن مثل آل محمد صلى الله عليه وسلم لمثل نجوم السماء إذا خوى نجم طلع نجم ، فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع وأراكم ما كنتم تأملون » .

ولم يخطر ببال الإمام رضى الله عنه تحية أهل البيت . وقد جاء ذلك فى كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لما ولاه إمارتها قال : « أمَّا بعد ، فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم نذيراً للعالمين ومهيمناً على المرسلين . فلما مضى صلى الله عليه وسلم تنازع المسلمون الأمر من بعده ، فوالله ما كان يُلقى فى روعى ، ولا يخطر ببالى أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه وسلم عن أهل بيته ، ولا أنهم نحوه عنى من بعده ، فما راعنى إلا انثيال الناس عن فلان يبايعونه ، فأمسكت يدى حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وسلم ، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثَلماً أو هدماً تكون المصيبة به علىّ أعظم من فوت ولايتكم التى إنما هى متاع أيام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السّراب أو كما يتقشع السّحاب ، فنهضت فى تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمأنّ الدين وتنهنه » .

من كلمات البلاغة

— اللهم كما صنت وجهى عن السجود[1] لغيرك ، فصن وجهى عن مسألة غيرك .

— أربع القليل منهن كثير : النار والعداوة والمرض والفقر .

— إياك وصاحب السوء فإنه كالسيف المسلول يروق منظره ويقبح أثره .

— الذليل عندى عزيز حتّى آخذ الحق له ، والقوى عندى ضعيف حتّى آخذ الحق منه .

— العامل بغير علم كسائر فى غير طريق فلا يزيده بُعده عن الطريق إلا بعداً عن حاجته .

— أرجح الناس عقلا وأكملهم فضلا من صحب أيامه بالموادعة وإخوانه بالمسالمة وقبل من الزمان عفره .

---

(١) كما بينت : ولد الإمام داخل الكعبة ، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها. وفى شرح ابن أبى الحديد عن الإمام : « أسلم على يديه — يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم — قبل أن يمس قلبه عقيدة سابقة ، أو يخالط عقله شوب من شرك موروث » ، وإذا كان لم يعرف عن الإمام عبادته للأصنام كذلك فإن أمه فاطمة بنت أسد أيضاً لم تسجد لصنم .

– لا تطلب الحياة لتأكل بل اطلب الأكل لتحيا .

– من حسدك لم يشكرك على إحسانك إليه .

– الحاسد المبطن للحسد كالنحل يمج الدواء ويبطن الداء .

– الحاسد يرى زوال نعمتك نعمةً عليه .

– رحم الله امرأ سمع حكماً فوعى ، ودعى إلى رشاد فدنا ، وأخذ بحجزة هاد فنجا .

– أوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله سبحانه وتعالى .

– ما شككت فى الحق مذ رأيته .

– لا يُدرك الحقّ إلا بالجد .

– احترس من ذكر العلم عند من لا يرغب فيه ، ومن ذكر قديم الشرف عند من لا قديم له ، فإن ذلك مما يحقدهما عليك .

– العامل بالعلم كسائر على الطريق الواضح فلينظر أسائر هو أم راجع .

– الأدبُ عند الأحمق كالماء العذب فى أصول الحنظل كلما ازداد ريّاً ازداد مرارة .

– عقل الكاتب فى قلمه .

– لا تسبن إبليس فى العلانية وأنت صديقه فى السر .

— أعم الأشياء نفعاً موت الأشرار .

— ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه .

— لا يغرّنكم ما أصبح فيه أهل الغرور فإنما هو ظل ممدود إلى أجل معدود .

— ليكن سرورك بما قدمت ، وأسفك على ما خلّفت ، وهمّك فيما بعد الموت .

— احذر كل عمل إذا سُئل عنه صاحبه أنكره أو اعتذر عنه .

— إن عقدت بينك وبين عدوك عُقدة أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء ، وارعَ ذمتك بالأمانة . واجعل نفسك جُنّةً دون ما أعطيت .

— بادروا آجالكم بأعمالكم ، فإنكم مرتهنون بما أسلفتم ومدينون بما قدمتم .

— لا تضعوا من رفعته التقوى ، ولا ترفعوا من رفعته الدنيا .

— لا يكن أفضل ما نلت فى نفسك من دنياك بلوغ لذة أو شفاء غيظ ، ولكن إطفاء باطل أو إحياء حق .

— الجاهل يُعرف بست خصال : الغضب من غير شىء ، والكلام فى غير نفع ، والعطية فى غير موضعها ، وألا يعرف صديقه من عدوه ، وإفشاء السر ، والثقة بكل أحد .

– لا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء ؛ فإن فى ذلك تزهيداً لأهل الإحسان فى الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة .

– أشرف الأشياء العلم . والله تعالى عالمٌ يُحب كل عالم .

– اختر أن تكون مغلوباً وأنت منصف ولا تختر أن تكون غالباً وأنت ظالم .

– ليس شيء أحسن من عقل زانه علم . ومن علم زانه صدق . ومن صدق زانه رفق ، ومن رفق زانه تقوى .

– إلهى . كفانى فخراً أن تكون لى ربًّا ، وكفانى عزًّا أن أكون لك عبداً ، أنت كما أريد ، فاجعلنى كما تريد .

المراجع

١ ــ القرآن الكريم .

٢ ــ تفسير محمد بن على بن محمد الشركانى .

٣ ــ تفسير الطبرى والقرطبي وابن كثير والنسفى والبيضاوى .

٤ ــ سيرة النبي : عبد الملك بن هشام .

٥ ــ أعيان الشيعة : السيد محسن الأمين .

٦ ــ شرح نهج البلاغة : ابن أبى الحديد .

٧ ــ نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبي المختار : الشيخ سيد الشبلنجى .

٨ ــ الفتنة الكبرى : الدكتور طه حسين .

٩ ــ عبقرية الإمام : الأستاذ عباس محمود العقاد .

١٠ ــ ينابيع المودة : الشيخ سليمان الحسينى البلخى القندوزى .

١١ ــ الكامل : ابن الأثير .

١٢ ــ حياة أمير المؤمنين فى عهد النبى : الأستاذ محمد صادق الصدر .

١٣ ــ حلية الأولياء : أبو نعيم الأصفهانى .

١٤ ــ البداية والنهاية : ابن كثير .

١٥ ــ الإمام على : الأستاذ جورج جرداق .

١٦ ــ الإمامة والسياسة : ابن قتيبة .

١٧ ــ اليقين فى إمرة أمير المؤمنين : ابن طاووس .

١٨ ــ خصائص أمير المؤمنين : الشريف الرضى .

١٩ ــ الشرف المؤبد لآ ل محمد : يوسف النبهانى .

٢٠ ــ معاوية فى الميزان : الأستاذ عباس العقاد .

٢١ ــ ملخص تاريخ الخوارج : الشيخ محمد شريف سليم .

٢٢ ــ الخلفاء أمراء المؤمنين : السيوطى .

٢٣ ــ الرياض النضرة : محب الدين الطبرى .

٢٤ ــ الإرشاد : الشيخ المفيد .

٢٥ ــ عائشة والسياسة : الأستاذ سعيد الأفغانى .

٢٦ ــ حرب الجمل وحرب صفين : السيد محسن الأمين .

٢٧ ــ البيان والتبيين : الجاحظ

٢٨ ــ طبقات ابن سعد : ابن سعد .

٢٩ ــ نظرية الإمامة : الدكتور أحمد صبحى .

٣٠ ــ الأغانى : أبو الفرج الأصفهانى .

٣١ ــ الاستيعاب : ابن عبد البر .
٣٢ ــ تاريخ الطبرى .
٣٣ ــ تاريخ ابن الأثير .
٣٤ ــ مولد أمير المؤمنين فى الكعبة : الشيخ محمد على الأوردبادى .
٣٥ ــ النص والاجتهاد : السيد عبد الحسين شرف الدين .
٣٦ ــ قضاء أمير المؤمنين على بن أبى طالب : الشيخ محمد تقى التسترى .
٣٧ ــ المجالس السنية فى مناقب ومصائب العترة النبوية : السيد محسن الأمين الحسينى العاملى .
٣٨ ــ الإمام على بن أبى طالب : الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود .
٣٩ ــ الفتنة ووقعة الجمل : سيف بن عمر الضبى الأسدى .
٤٠ ــ كشف الغمة : الشيخ عبد الوهاب الشعرانى .

الفهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

١٢ ربيع الأول ١٣٩٣
١٥ أبريل ١٩٧٣

رقم الإيداع		١٩٨٦ / ٥٠٦١
الترقيم الدولى	٩-١٧٨٥-٠٢-٩٧٧	ISBN

١ / ٨٦ / ٣٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)